كتابُ البيان

ضفادع وعقارب

من الذي قتل السادات ؟!



تأليف : دورين كايز

ترجمة واعداد : مصطفى كمال

كتاب البيان

ضفادع وعقارب
من الذي قتل السادات ؟!

تأليف : دورين كايز
ترجمة واعداد : مصطفى كمال

مقدمة المترجم

يسر «البيان» ان تقدم لقرائها هذا الكتاب «ضفادع وعقارب» من تأليف نجمة نشرات الأخبار بالتلفزيون الاميركي رودين كايز، وتتناول فيه شخصية الرئيس المصري السابق أنور السادات، والتطورات التي توالت خلال الأربع سنوات الأخيرة من حكمه وحياته، حتى انتهت بمصرعه يوم ٦ اكتوبر ١٩٨١، وهو في كامل ابهته، محاطا بكل أسباب القوة والحماية، على يد مجموعة من الجنود المصريين العاملين والمتقاعدين وصفوا بأنهم اعضاء في أحد التنظيمات الدينية المتطرفة.

والكتاب يقول بصراحة مؤيدة بالأدلة وتداعي الأحداث أن الاعلام الاميركي هو الذي قتل السادات.. بمعنى أنه هو الذي ساقه ودفع به حتى وضعه مباشرة أمام فوهات ٤٥ مليون بندقية، كان يكفي أن تنطلق واحدة منها لتؤدي بحياته.

ودورين كايز كما تعترف بنفسها كانت واحدة من أنشط عناصر الاعلام الأميركي في عملية سوق السادات الى مصيره المحتوم، وكما تقول هي نفسها أنها أيضا كانت مدفوعة كترس في آلة جهنمية اقوى منها. ولم تكن تدري بخطورة الدور الذي تلعبه حتى افاقت لنفسها فجأة يوم تشييع جنازة السادات فاذا بالرجل الذي توهموا أنهم صنعوا منه معبودا للجماهير لا يكاد يجد أحداً من بني بلده يمشي في جنازته ويشارك في تشييعه الى مقره الأخير..

كان الغرب الذي اختلق اسطورة السادات ونماها حتى صدقها هو وحده الممثل في الجنازة.. أما مصر.. وأما العالم العربي أجمع فقد كان غائبا

تماما .. بل كانت القاهرة يومها في عيد ، ولم يحاول أحد من عامة الشعب حتى مجرد التظاهر بالحداد .. وكأنما هم ثقيل أزيح عن كاهل الشعب المصري ..

تقول دورين كايز ، أن هذه الظاهرة أذهلتها . لأنها جاءت مناقضة لكل ماروجت هي وزملاؤها له طوال أربع سنوات حتى باتوا يصدقون ما يختلقون من أكاذيب .

وهذا ما جعلها تعيد النظر في كل ما فعله الاعلام الغربي ، وهي واحدة من عناصره النشيطة ، وكل ما قالوه وكتبوه واوصلوه الى الرأي العام .

وعندما أعادت النظر ، اكتشفت الكذبة الكبرى .. كما اكتشفت أيضا حقيقة أكبر .. تلك هي أن الاعلام الغربي ، والأميركي بنوع خاص ، هو المسؤول .. بل هو القاتل الحقيقي الذي أعد المسرح ، والسيناريو ، والديكور ، والأضواء لمسرحية لا يمكن أن تكون لها سوى نهاية واحدة هو موت البطل المصنوع .

وتبقى بعد ذلك كلمة لا بد منها .

تلك هي أننا قد نتفق وقد نختلف في كثير من وجهات النظر التي يعبر عنها هذا الكتاب . ولكن هدفنا هو أن نقدم للقارىء العربي أكبر قدر ممكن من شهادة الشهود حول ظاهرة السادات .. حتى تتوفر للرأي العام العربي صورة أكثر وضوحا .. ولربما استفدنا من التجربة ، مهما كان حجم ومدى بشاعتها .

ميم .. كاف

مقدمة الكتاب

حدث في يوم من الأيام أن جاء عقرب الى شط نهر الأردن. كان يريد أن يعبر النهر، ولكنه يعرف جيداً أنه لا يستطيع السباحة.. وفجأة لمحت عينه على حافة الماء ضفدعة قابعة في مكانها فأقبل عليها متهللا..

- السلام عليكم يا عزيزتي الضفدعة. هل تسمحين لي، فتنقلينني الى الضفة المقابلة؟

• سبحان الله! أتظنني مجنونة أيها العقرب؟ اني اعرفك جيداً. سوف تلدغني!

- اجاب العقرب:

- ابداً مستحيل. لو فعلت ذلك لهلكنا معاً.

قالت الضفدعة:

- معك حق. لا بأس اذن. تعال اركب على ظهري وسأعبر بك النهر.

وبينما الأثنان في وسط الموج اهوى العقرب بطرف ذيله المسموم على عنق الضفدعة. وبينما الأثنان يغوصان غارقين هتفت الضفدعة بالعقرب وهي تعالج سكرات الموت.

- أيها المجنون. لماذا فعلت ذلك؟ كلانا الآن سوف يهلك.

أجاب العقرب:

- لا تؤاخذيني يا سيدتي.. فهذا هو الشرق الأوسط!!

★ ★ ★

لا زلت أذكر أول مرة سمعت فيها هذه الحكاية. كان ذلك منذ سنوات بعيدة، وفي بلد يبعد آلاف الأميال عن الأردن. وكان الراوية مهاجر لبناني، هو في الواقع أبي.

وأذكر يومها أنني قلت على سبيل التعقيب.

ـ الحمد لله أنك كنت من الفطنة بحيث نجوت بنفسك بعيداً عن هذه الأنهار الصغيرة الغادرة، فعبرت الأطلنطي الى هنا!

ولم يجب أبي. فالواقع أنه لم يعد ابداً الى الشرق الأوسط منذ هجره. اللهم الا في أجازة واحدة قصيرة تزوج خلالها من أمي وعاد بها الى موطنه الجديد. كان اسمه سعيد نيقولا الغز. ولكن موظفي ادارة الهجرة في كندا عجزوا عن نطق اسم «الغز» فكان تغيير اللقب الى «كايز» حلا وسطا أرضى الجميع.

وطوال هذه السنين تعددت المناسبات التي تجعل هذه القصة تقفز الى ذاكرتي.. واخيرا بينما كان ابي يلفظ انفاسه الأخيرة كان لبنان يتحول الى لقمة سائغة تلتهمها الضفادع والعقارب على حد سواء.

كان ذلك في ١٩٧٧، وأنا حينذاك في اوروبا أواجه أكثر من خيار: اما أن انهي سنة من الراحة النسبية واعود الى مونتريال لاستئناف عملي في التلفزيون الكندي، أو أبقى حيث أنا في بروكسل لاتابع أنباء حلف الأطلسي والسوق الأوروبية المشتركة، أو أذهب الى الشرق الأوسط لحساب احدى شبكات التلفزيون الاميركية التي أبدت اهتمامها بنشاطي الصحافي والتلفزيوني.

ولما كنت قد نجحت في ما مضى في تجنب أربع حروب عربية ـ اسرائيلية، والى جانبها القتال الأردني ـ الفلسطيني، وحرب الاستنزاف المصرية ـ الاسرائيلية، وكذا حرب الاستنزاف السورية ـ الاسرائيلية وعدد لا آخر له من المعارك والاشتباكات والهجمات والهجمات المضادة بين الفلسطينيين والاسرائيليين، فقد بدا لي أنه آن الأوان لكي أنزل بنفسي الى ساحة الضفدعة والعقرب. ولذلك فقد استقلت من التلفزيون الكندي. وجلست أنتظر الى جوار هاتفي في بروكسل حتى جاءتني المكالمة الموعودة ذات مساء في أكتوبر بعد اسبوعين.

قال الصوت الذي كان يتكلم من باريس.

ـ ما رأيك في أن ترأسي مكتبنا بالقاهرة؟

ـ ضحكت ساخرة

ـ القاهرة؟ لا بد أنك تمزح! اني في الحقيقة أفكر في بيروت.

ولكن بيروت ـ باريس الشرق الأوسط التي عرفتها واحببتها ـ كانت الآن كومة من الأنقاض. ومن ثم فقد قبلت العرض مبدئيا. وبعد أسبوعين كنت في نيويورك أفاوض العقد مع شبكة التلفزيون الأميركي «ايه. بي. سي» وكانت هناك مشكلة بسيطة حول من يدفع ايجار المسكن بالقاهرة، أما المرتب فقد قبلته. وتركت لهم العقد ليتدبروا أمرهم وطرت أنا لكندا لأرى والدتي، وفي رأيي أن هذه العقدة لن يصعب حلها. وبعد عشرة أيام كان ستان اوبوتوسكي رئيس عمليات الأخبار اليومية

في نيويورك على الطرف الآخر من الهاتف يصيح بي: متى تتوجهين للقاهرة؟ وبالفعل لم يستغرق الامر أكثر من توقيع العقد، وزمن رحلة الطيران، حتى كنت في القاهرة.

كانت الأحداث تتوالي بسرعة. فالرئيس المصري أنور السادات ـ وقد استقر رأيه انه شبع من الحرب ـ يعلن أنه مستعد للذهاب الى آخر العالم سعيا من أجل السلام. ولكن رحلة الزعيم العربي التي لم تكن لتستغرق أكثر من نصف ساعة قدر لها أن تغير مجرى تاريخ الشرق الأوسط. حتى لم يعد شيء بعدها تماما مثلما كان قبلها. اللهم الا الشرق الأوسط ذاته.

نعم لقد تم توقيع معاهدة صلح، وجرى منح الجوائز، ولكن الحياة مضت في طريقها على نفس المنوال كما كانت دائما في أرض الضفدعة والعقرب، حيث استمر الظلم والحقد وانعدام الثقة والقنابل والرصاص والموت.. بل أن «صانع السلام» نفسه، انور السادات، لم يلبث بعد أربع سنوات من «مهمته المقدسة» ان لقي حتفه صريعا وسط بركة من الدماء.. لتكتمل بذلك القصة التقليدية للشرق الأوسط على شكل مأساة اغريقية واوبرا هزلية في وقت واحد.

غير أني اعترف أني في خلال هذا كله كنت اتوق بلا خجل الى حرب جيدة من الطراز القديم تنتهي بها مرارة السلام وهستيريا الاعلام التي جرفت في دوامتها كل من كان له دور في هذا العرض المثير على المسرح السياسي.

والحق ان قصة السلام التي هزت بدايتها العالم بأسره، كما هزته نهايتها ـ في عصر الاقمار الصناعية الذي نعيشه كانت دراما تلفزيونية حقيقية كتبها وأعدها واخرجها وانتجها وجهز لها نجمها الأول شبكات التلفزيون الاميركية الثلاث، «سي. بي. اس»، و«ان. بي. سي» و«ايه. بي. سي»، واذا كنا في احيان كثيرة قد تبادلنا الادوار فان هـذا ببساطة كان من اجل تعزيز الحبكة التي حسمت في النهاية مصير النجم الذي اسند اليه دور البطولة.

لقد كانت بالفعل دراما فيها كل عناصر الدراما الناجحة، حرب وصلح، واكثر من بطل وأكثر من شرير. وعرب ويهود، وسلطة وسياسة، وصراع وتضحية، وشجاعة وجبن، وأمل ويأس، واخيرا موت ودمار.

ولكن جمهور المتفرجين للأسف لم يتح لهم أن يشاهدوا العرض بأكمله. والواقع أن هذا أمر طبيعي في دنيا التلفزيون. ففي سياق هذه القصة التي استمرت أربع سنوات قطع الأرسال التلفزيوني المعتاد أربع مرات: الأولى مع رحلة السادات الى اسرائيل في نوفمبر ١٩٧٧، والثانية مع اتفاقيتي كامب ديفيد في سبتمبر ١٩٧٨، والثالثة مع توقيع اتفاقية الصلح في مارس ١٩٧٩، والرابعة والاخيرة مع مصرع ودفن السادات في اكتوبر ١٩٨١. وفيما بين هذه الأحداث التاريخية الأربعة كان

الجمهور يشهد بانتظام مئات المشاهد والمناظر واللقطات معظمها ان لم يكن كلها تحت اقصى قدر من تركيز الصورة والأضواء.

ولقد تجمع لدي - بحكم عملي الشيء الكثير سواء مما جرى على الشاشة أو ما كان يجري خلف الكاميرا. وليس هناك من شك في أن ما قدمته شبكة «ايه. بي. سي» كان عملا فنيا ممتازا بالمقاييس التلفزيونية، ولكن ما كان يزعجني وقتها وما زال يزعجني حتى الآن وما يجب أن ينزعج له معظم الأميركيين هو الشيء الذي لم نقدمه وليس الذي قدمناه للجمهور الأميركي الذي يتلقى - كما تؤكد استطلاعات الرأي - الجزء الأكبر من معلوماته من التلفزيون. والواقع ان النتائج التي تكشف عنها استطلاعات الرأي هذه جد مخيفة لأنها تبين في نفس الوقت مدى قدرة التلفزيون على تشكيل رأي الجماهير غير العارفة أو غير المهتمة كثيرا بالنبأ الذي تسمعه. ولأن القائمين على شبكات التلفزيون يدركون مدى صعوبة «بيع» الأخبار الاجنبية لجمهرة المشاهدين، فانهم يعمدون الى اسباغ اكبر قدر من الروح الدرامية عليها حتى تكون اكثر جاذبية.. وما اكثر ما يتجاوزون في هذا كل الحدود.

* * *

ان الذي حدث هو أن قصة «سلام السادات»، مثلها مثل كثير من الأحداث المؤثرة على الصعيد الدولي كانت منذ اللحظة الأولى ضحية للتناقض المعهود في الانباء التلفزيونية، الا وهو المبالغة الاعلامية المفرطة من ناحية والصورة ذات البعد الواحد من الناحية الأخرى.

فعلى مدى اربع سنوات، كان بطل القصة الذي يقدمه التلفزيون الاميركي لجمهوره هو أنور السادات. الرئيس المصري الشهم، والزعيم الذي فعل ما لم يجرؤ عليه أي عربي آخر، والبطل الشجاع الساحر الجذاب الانيق الذي حصل على جائزة نوبل للسلام ويحظى بحب والتفات معظم العالم المعاصر، والداعية الفذ الذي محا بمجهوده وحده صورة العربي القبيح من اذهان الاميركيين، والذي نجح في كسر الحاجز النفسي بين العرب واليهود. واخيرا.. فان هذا الرجل الذي وصفه هنري كيسنجر بقوله «انه أعظم رجل دولة على الأرض منذ بسمارك» لقى حتفه على يد جماعة من الشباب المتهوسين دينياً. فبكته الملايين.

ولكن كانت هناك صورة أخرى لم تظهر أبداً على شاشة التلفزيون الأميركي. صورة بطلها أيضا هو أنور السادات.. الرئيس المستبد الذي حكم مصر لمدة ١١ عاما بالحديد والنار، والانتهازي الذي وقع معاهدة صلح مع اسرائيل في مقابل سيناء «منقوصة السيادة»، الخائن الذي فشل في انهاء النزاع العربي - الاسرائيلي ولم يحقق سلاما في الشرق الأوسط، والمختل المصاب بجنون العظمة الذي لم يتورع من اجل اشباع رغبته في اخذ مكان في التاريخ عن اسكات معارضيه وقمعهم بالقوة في

الداخل، وحرم البلاد من افضل مثقفيها، وعزل نفسه عن اشقائه العرب، واهدر الوضع الاقتصادي والاجتماعي لشعبه المطحون تحت مطرقة الفقر. وفرعون اخر الزمان الذي جاء في ثياب رمسيس الثاني ولكنه اخذ يلتمس السلام بأي ثمن، ثم مات برصاص مجموعة من الشباب المتحمسين من جنود جيشه، فلم يبكه سوى عدد قليل من المصريين... وعدد اقل من العرب، وكان واضحا أنه لم يحظ بين أبناء شعبه بشيء من الحب الذي أسبغه عليه العالم الغربي.

والواقع ان الصورتين صحيحتان، ودقيقتان. فلقد كان السادات الاثنين معاً. كان بطلاً وشريراً في وقت واحد. كان رجل العالمين.. كان هو العقرب، كما كان هو الضفدعة.

هذه اذن هي القصة التي قضيت في تغطيتها اربع سنوات. انها ليست من النوع الذي تشاهده في «اخبار العالم الليلة» أو «صباح الخير يا أميركا» أو اية نشرة اخبار في بريطانيا أو أميركا، انها من ذلك النوع الذي يتحدث عنه الصحافيون بقولهم «ان احسن القصص هي تلك التي لا تروى أبداً».

والذي لا شك فيه أن السلام، والسادات، والشرق الأوسط والمصالح الاميركية في هذه المنطقة الاستراتيجية ـ كل هذا كان يمكن أن يلقى خدمة أفضل بمرات لو أن جمهور التلفزيون الأميركي توفرت له نظرة أكثر توازنا وابعد عمقا الى التعقيدات المحيطة بسلام السادات. ومن المؤكد أنه لو أن التلفزيون تناول القصة تناولا مختلفا، لكن من الممكن تفادي النهاية المأساوية التي ختمت بها.

ولقد قضيت الفترة من نوفمبر ١٩٧٧ حتى ديسمبر ١٩٨١ وأنا أغطي الأنباء والتقارير أمام الكاميرا، لابعث بها الى شبكة التلفزيون التي أعمل لحسابها. ولكن كثيراً مما أرسلته ظل حبيسا في الأدراج ولم يصل الى الجمهور. وبهذه الطريقة كان للتلفزيون الأميركي دور كبير ليس فقط في توصيل الانباء منقوصة، وانما لعب دوراً كبيراً في صياغة القصة.. دراما الضفادع والعقارب.

الفصل الأول:

الى آخر مكان على الأرض

لما كانت اللغة العربية لغة غنائية مسرحية غنية بالمحسنات اللفظية التي تغري مستخدمها بالاستطراد الى حد المبالغة، فان من بين كل الزعماء العرب كان انور السادات بالذات مغرماً بالألفاظ الرنانة المنمقة. ولذلك لم يكن هناك ما يدعو للدهشة ان يقابل خطابه بمناسبة افتتاح دورة الانعقاد السنوي لمجلس الشعب في ٩ نوفمبر ١٩٧٧ بالتصفيق المعتاد، وبعض التثاؤب هنا أو هناك. فحتى بالرغم من طبيعة السادات الزئبقية التي يصعب معها التنبؤ بما سيقول أو يفعل، كان الخطاب مجرد ٣ ساعات من الحديث الروتيني الممل عن التقدم الذي تم في مختلف المجالات، ثم تعرض بتفصيل مطول الى التحضيرات الجارية لاستئناف وانعقاد مؤتمر جنيف للسلام الذي تجمد منذ فترة طويلة بسبب مشكلة التمثيل الفلسطيني. وأوضح السادات أنه قد سئم كل هذا الشد والجذب بلا نتيجة، وانه يود أن ينفذ الى قلب المشكلة رأسا. كذلك اثنى على الأميركيين وعلى الرئيس كارتر بالذات لموقفه من أحياء المؤتمر واخراجه من دائرة الجمود، متعمداً في نفس الوقت عدم الاشارة بالمرة الى السوفيات الذين اصدروا قبل ذلك بأسابيع بيانا مشتركا مع الأميركيين يدعو الى طريق جنيف للسلام.

وكان السادات يقترب من ختام خطابه عندما اخذ يقلب في الصفحات أمامه كأنما يبحث عن جملة معينة.. وكما قال لي صحافي مصري، انه كان يقلب في الأوراق معطياً الانطباع بأنه فقد سياق خطبته مع أنه كان يتكلم مرتجلا دون نص مكتوب.

المهم، ان السادات بعد كثير من المأمأة والوأوأة المألوفة في خطاباته قال لمستمعيه أنه مستعد للذهاب الى آخر مكان على ظهر الأرض اذا كان هذا يعني أن احداً من أبنائه الجنود والضباط لن يجرح فضلا عن أن يقتل. ثم اضاف: انني اقول الآن أنني مستعد للذهاب الى آخر مكان في العالم، ولسوف تدهش اسرائيل وهي تسمعني اقول لكم الآن امامكم أنني مستعد للذهاب الى برلمانهم، الى الكنيست، لأتحدث اليهم.

غير أن أحدا، فضلا عن الاسرائيليين بالذات، لم يدهش لهذه الكلمات وفي ذلك المساء توجه وزير الدفاع الاسرائيلي عزرا وايزمان الى فراشه دون أن يهتم بالاطلاع على نص خطاب السادات، بعد أن قيل له أنه لم يتضمن أي جديد. وفي صباح اليوم التالي نشرت الصحف وأذاع الراديو موجزا للخطاب ولكن على حد قول وايزمان ـ «لم تلق عبارة السادات الغريبة حول ذهابه للكنيست اهتماما جادا يذكر، وكان انطباعي الأول متفقا مع ثلاثين عاما من العداوة والحرب فلم أصدق حرفا مما قال».

حتى صحافة السادات الخاضعة تماما لسيطرته لم تر في هذه العبارة أكثر من مجرد اطناب واستطراد على الطريقة العربية. وبدا واضحاً أن صحف القاهرة اليومية الرئيسية الثلاث لم تكن تدري أو معدة للاعتناء بهذه العبارة، فقد جاء في العنوان الرئيسي للأهرام «مستعدون للذهاب الى جنيف بصرف النظر عن المشاكل الاجرائية»، أما حديث السادات عن التوجه للكنيست فقد أشير اليه عرضا في عنوان فرعي. أما صحيفة الاخبار الأكثر اثارة فكان عنوانها «السادات يتحدى اسرائيل»، ونسبت الى السادات قوله «نحن لا نخشى مواجهة اسرائيل بعد أن اعدناها لحجمها الطبيعي بحرب اكتوبر»، وتحت هذا عنوان على ثمانية أعمدة يقول «السادات مستعد للذهاب للكنيست ومواجهة قادة اسرائيل». ولوحظ أن ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية الذي كان يستمع الى خطاب السادات وهو على مقعده بالصف الأمامي بقاعة مجلس الشعب توقف عن التصفيق لحظة عندما مال عليه اسماعيل فهمي وزير الخارجية المصرية الجالس بجواره، ليؤكد له أن السادات غير جاد فيما قاله، بل أن كبار المسؤولين في مصر لم ينظروا الى كلمات السادات عن الذهاب الى آخر مكان على ظهر الأرض الا باعتبارها مجرد مبالغات لفظية، حتى أن رئيس الوزراء ممدوح سالم ورئيس مجلس الشعب سيد مرعي والدكتورة ليلى تكلا رئيسة لجنة الشؤون الخارجية توجهوا معا عبر الشارع الى مكتب رئيس الوزراء وهم يتحدثون في أمور اللجنة.

وتقول الدكتورة ليلى تكلا «لم يخطر ببالنا لحظة أن عبارة السادات لها أية أهمية تستحق معها أن نناقشها». ولا حتى السفير الأميركي هيرمان اليتس الذي كان

يستمع الى الخطاب من شرفة الدبلوماسيين بالمجلس، أو المسؤولون الأميركيون في واشنطن بدا أنهم سمعوا شيئا مثيرا. أما بالنسبة للعالم العربي فلم ير أحد في عرض السادات أكثر من ضرب جيد من ضروب الدعاية على الطريقة الساداتية.

وفي اسرائيل، عندما سمع مناحيم بيجن رئيس الوزراء بعرض السادات لأول مرة في صباح اليوم التالي اكتفى باجابة قاطعة على اسئلة الصحافيين بقوله انه مستعد للاجتماع مع السادات في أي مكان، واشار الى جنيف بنوع خاص باعتبار أن هذه هي المكان المرشح لأي حديث عن السلام في الشرق الاوسط. ولكنه في وقت لاحق من ذلك اليوم عندما وجد نفسه محاصرا بفريق من أعضاء الكونجرس الأميركي عاد فقال أنه «اذا كان السادات ينوي فعلا الحضور الى القدس فسوف يقابل هناك بكل مظاهر التكريم التي تليق به كرئيس دولة».

وعندما ادرك بيجن أنه لم يعد بوسعه تجاهل عرض السادات توجه بنفسه في مساء اليوم التالي الى التلفزيون ليوجه رسالة مخاطبا فيها الشعب المصري بقوله:

«يا مواطني مصر» فليكلم بعضنا بعضا. وليكن هناك قاسم مشترك بين بلدينا، وكفي للحرب. كفي لاراقة الدم. كفى للتهديدات».

* * *

والواقع ان كلمات بيجن كان لها على الصعيد الدولي صدى اكبر مما لقيه عرض السادات، ومع ذلك لم يكن لها أدنى استجابة لدى الاعلام المصري. وقالت صحيفة «أخبار اليوم» أنه كان أولى ببيجن أنه يوجه حديثه الى ابناء جلدته لأنه والاسرائيليين هم المعروفون بالغطرسة والعدوان والنوايا التوسعية وانكار حقوق الفلسطينيين. كذلك ذكّرت الجريدة بيجن «بعمليته المجنونة» في جنوب لبنان التي راح ضحيتها مئات من النساء والأطفال الأبرياء قتلى بفعل الغارات الاسرائيلية.

(كانت اسرائيل قبل أربعة أيام قد شنت سلسلة من الغارات ضد الفلسطينيين في جنوب لبنان).

وفي يوم ١٢ نوفمبر التقى وفد الكونجرس بالرئيس السادات وفي هذا اللقاء كرر السادات عرضه لاعضاء الوفد وكان مما قاله بالنص" اننا مستعدون للذهاب، حتى لو اقتضى الأمر أن أبقى يومين أو ثلاثة في الكنيست.أنا مستعد لمناقشتهم جميعا"، ولكنه - كما قال لاعضاء الكونجرس لا يجد أية اشارة للترحيب بعرضه.

ولم يكد هذا التصريح يذاع حتى أعلن بيجن دعوة للسادات عن طريق أجهزة الاعلام قائلا بالنص: «انني باسم حكومة اسرائيل ادعو رسميا الرئيس المصري لزيارة القدس، واهلا به وسهلا..!»

وفي تلك الأثناء بينما كان المراسلون الأجانب في القاهرة قد أخذوا يميزون بين ما هو عرض حقيقي، وما هو مجرد استطراد خطابي، وجدوا أنفسهم فجأة

متخلفين مسبوقين بواحد من ملتهم هو والتر كرونكيت الذي أمسك بالثور من أذنيه، واستطاع أن يجري حديثين منفصلين في وقت واحد بواسطة الأقمار الصناعية مع كل من السادات وبيجن.

وبدأ الحديث الثلاثي بسؤال من والتر كرونكيت للسادات:

- متى ستذهب الى اسرائيل؟
- كل ما في الأمر أني انتظر الدعوة المناسبة.
- تعني أنك يجب أن تتلقى دعوة مباشرة من السيد بيجن، وليس من خلال الصحافة؟
- تماما .. تماما.

بعدها انتقل كرونكيت بالكاميرا عن طريق القمر الصناعي الى تل ابيب ليسأل بيجن متى يمكن ان يبعث للسادات بالدعوة المنتظرة فأجاب هذا بقوله:

- سوف أطلب خلال هذا الاسبوع من صديقي السفير الاميركي لدى اسرائيل أن يعرف من زميله السفير الأميركي بالقاهرة ما اذا كان مستعدا لمنحنا بعض وقته كي ينقل رسالة مني الى الرئيس السادات أدعوه فيها رسميا وبكل ود عن طريق الولايات المتحدة للمجيء الى القدس.

ومرة اخرى يعود كرونكيت الى السادات ليسأله عما اذا كان لديه أية شروط مسبقة لرحلته. فقال:

- ان الشرط الوحيد هو أني أود أن أناقش الوضع برمته مع أعضاء الكنيست المائة وعشرين حتى أضع أمامهم صورة الموقف بتفاصيله كما نراه من وجهة نظرنا.
- اذا تلقيت هذه الدعوة الرسمية فكم يلزمك من وقت حتى تكون مستعدا للذهاب؟
- في الحقيقة أنا أتطلع للقيام بهذه الزيارة في أسرع وقت ممكن.
- هل نقول في ظرف أسبوع مثلا؟
- تستطيع أن تقول ذلك. نعم.
- قلت أنك ترغب في التحدث الى الكنيست أي البرلمان الاسرائيلي، فهل ستقوم أيضا ....
- هذا صحيح..
- أعني هل ستقوم أيضا باجراء محادثات أساسية؟
- قد أتبادل وجهات النظر أو ما الى ذلك مع بيجن، أجل.
- وماذا عن معارضة بعض زملائك من قادة العالم العربي لهذه الزيارة؟ أعتقد أنهم أعربوا عن ذلك لكم.
- انا لم أبلغ أحدا من زملائي ولم أطلب من أحد منهم أن يوافق أو لا يوافق على

ذلك. وانما احسست أن مسؤوليتي شخصيا ومسؤوليتي كرئيس لمصر هو أن اطرق كل سبيل من أجل السلام فاتخذت قراري. ومن المؤكد أن هناك من يعارضونه. ولكني مقتنع كل الاقتناع أن هذا هو الطريق السليم، وشعبي يؤيدني في ذلك حتى أقوم بالمهمة كاملة.

ـ هل أعرب لكم ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية عن أي رأي له تجاه هذه الزيارة لمناحيم بيجن؟

ـ كلا، بالمرة، أبداً، لأنه ـ كما قلت لك يا والتر ـ هذه مبادرة مني أنا.

ـ ما هي المحصلة النهائية التي يمكن أن تنتج من هذه الزيارة؟ ما هو أحسن ما ترجوه من ورائها؟

ـ نحن الآن في لحظة حاسمة. فلم يحدث في تاريخ العالم العربي أن سنحت له فرصة ملائمة مثل تلك التي نشهدها الآن لكي يقوم سلام حقيقي في هذه المنطقة. ولذلك فأنا أريد أن أضع الحقائق أمامهم، وفي الوقت نفسه نريد أن نناقش ماذا يكون البديل اذا عجزنا عن تحقيق السلام. ان البديل مخيف صدقني.. مخيف جدا.

هنا عاد كرونكيت الى بيجن يسأله ما اذا كان سيتخذ الخطوات اللازمة لتحريك هذه المبادرة السلمية الجديدة من ديالوج بعيد المسافات الى لقاء شخصي وجها لوجه فقال بيجن:

ـ غدا سأذيع بيانا في برلماننا بعد الظهر، واعتقد أني سأتصل بعد هذا البيان على الفور بصديقي العزيز السفير الأميركي مستر لويس لأرى ما يمكن عمله. ولكنني استطيع أن اؤكد لك يا مستر كرونكيت أننا لأننا راغبون حقا في السلام وفي اقامة سلام دائم فانني لن أتردد في ارسال مثل هذه الرسالة.

ـ هل هناك أية شروط مسبقة؟ اعني هل هناك أية شروط تدعونه على أساسها؟

ـ لا شروط مسبقة. واعتقد أن الرئيس السادات أيضا لا يطرح أية شروط مسبقة. أنه له موقفه. ونحن أيضا لنا موقفنا. فلنجلس اذن حول مائدة المفاوضات لنبحث السلام ويعرض كل طرف موقفه.

ـ لقد ألمح لي «السادات» هذا الصباح أنه قد يكون من الممكن أن يذهب الى اسرائيل اذا وصلت الدعوة في بحر اسبوع أو نحو ذلك. فهل تعتقد أن هذا يدخل في باب الواقع؟

ـ هذا نبأ طيب جدا. حسن! اذا كان الرئيس السادات مستعدا للقدوم في الأسبوع المقبل، اذا قال لي أنه سيأتي في الأسبوع المقبل فسيتعين علي أن ارجىء زيارتي لبريطانيا المقرر أن ابدأها يوم الأحد المقبل بدعوة من رئيس الوزراء البريطاني كالاهان. غير أني اعتقد أن مستر كالاهان سيرحب في هذه الحالة بتأجيل اجتماعي به لمدة اسبوع وسيفضل أن أكون في استقبال السادات في القدس ما دام ذلك سيوفر

فرصة لاقرار السلام في الشرق الاوسط. ولكن اذا كان الرئيس السادات سيحضر بعد عودتي من اوروبا فاني سأكون هنا يوم الجمعة المقبل بعد زيارتي لكل من لندن وجنيف وعلى ذلك يستطيع هو أن يحضر يوم الاثنين . ولكن على أية حال في أي وقت وأي يوم يكون هو فيه مستعدا للحضور فانني سوف استقبله مرحبا في المطار وأصحبه الى القدس وأيضا اقدمه الى الكنيست وادعه يتحدث الى برلماننا. وسأتبعه الى المنصة وأحييه واستقبله واعتقد أن الأمر الآن متروك للرئيس السادات ليحقق - اذا جاز لي القول - وعده أو يستثمر استعداده للحضور الى القدس.

* * *

وهكذا في ١٤ نوفمبر ١٩٧٧ وعلى مشهد من أميركا بأسرها تمكنت شبكة «سي. بي. سي» ومدرسة كرونكيت في الدبلوماسية التلفزيونية من ولادة طفل جديد هو سلام السادات بعد فترة حمل لم تتجاوز خمسة ايام!

ولم يكن أمام شبكتي التلفزيون المنافستين «اي. بي. سي» و«ان. بي. سي» وقت يذكر للحاق بالسبق الذي احرزه كرونكيت لشبكته. ففي اليوم التالي مباشرة تسلم السادات دعوته الرسمية وتقرر أن تتم الزيارة في نهاية الأسبوع. فاذا بأجهزة الاعلام في جميع أنحاء العالم تتدافع وتتزاحم لتغطي الحدث الخطير وفي مقدمتها بالطبع التلفزيون الاميركي. وفي ساعات قليلة تم حشد وانتشار مئات من القوى الضاربة لخوض المعركة من أجل التاريخ ومن أجل السباق على جذب الجمهور.

وكانت شبكة «ايه. بي. سي» التي التحقت بها تحت قيادة رئيسا روني ارليدج تواجه أول تحد خطير لها كمنافس لكل من شبكتي «سي. بي. سي» و«ان. بي. سي» الذي عمل منذ عهد اليه بقيادتها في الصيف السابق على تعزيز امكانياتها المادية والبشرية ليجعلها اقدر على المنافسة ولم يضن في ذلك بأي جهد أو مال. فقد دفع مليون دولار لاغراء باربارا والترز بالانتقال من شبكة «ان. بي. سي» الى «ايه. بي. سي» وامتدت جهوده الى كندا لاقتناص أحسن المواهب. واسند ادارة قسم الأخبار الى اف ويستين وهو من أقدر العاملين في هذا الميدان.

ولقد اسعدني جدا أن أعمل تحت رئاسة ويستين نظرا لمعرفتي السابقة به وتقديري العميق لامكانياته. ومع أن وضعي في منصب رئيسة مكتب القاهرة لم يتقرر الا في شهر يناير التالي الا أني في يوم ١٦ نوفمبر كنت في طريقي للقاهرة للانضمام الى سيرك رجال الاعلام الطائر المكلفين بتغطية قصة الصلح المصري الاسرائيلي.

اعترف أنني طوال الرحلة الطويلة الى القاهرة لم أكن أفكر لحظة في مصير السادات وان كنت أفكر في مصيري. وهكذا كان الجميع.

فالحدث الذي وجدته ملقى في حجري لم يكن تماما من نوع الأحداث التي استخدموني من أجلها ووقعوا معي العقد على أساسها قبل اسبوعين. فقد كان

المفروض أن عملي سيكون متصلا بالانباء والموضوعات الخفيفة (التي تدخل في باب المنوعات) اكثر منه بالانباء اليومية العنيفة،وذلك بناء على مفهوم سائد كان يستبعد امكانية نشوب حرب خامسة بين العرب واسرائيل في الوقت المنظور. والانباء العنيفة هي الانباء التي ينبغي أن تغطى احداثها فور وقوعها. أما الموضوعات الخفيفة فهي أقرب الى التوقعات المتعلقة بأحداث لم تقع بعد. والفارق بين تغطية هذا وذاك هو نفس الفارق بين الصراخ، والهمس في الآذان.

وقد يفضل بعض الصحافيين الطابع الخلاق المرن الذي تتصف به الأنباء الخفيفة والبعض الآخر يفضلون الحيوية والفورية والحركة الميكانيكية التي تتسم بها الانباء العنيفة.أما أنا في الواقع فكنت قد اعتدت النوعين من التغطية على حد سواء. غير أني بعد عشر سنوات طويلة من العمل مع الأنباء العنيفة توصلت الى قناعة أنه اذا كان الظهور كل مساء على شاشة التلفزيون قد يرضي «الانا» كثيرا الا أنه يضر براحة البال والجسم معا. وعلى هذا الاساس كان في ظني وأنا أقبل الذهاب للقاهرة أن هذه المهمة وان كانت تنذر بقليل من الاثارة والدراما والظهور على الشاشة على الهواء الا أني كنت أحس أنها جاءت في وقتها وموافقة تماما لما كنت أطلبه في هذا الوقت، وهو استراحة لطيفة من ضغط الجري اللاهث وراء الأنباء والعناوين اليومية وفرصة لاكتشاف وتطوير قدراتي على التغطية في منطقة لها باستمرار مكانتها وجاذبيتها الخاصة للجمهور والصحافيين على حد سواء ولأن احداثها في هذه الفترة كما توقعت تماما لم تكن تحتاج الى الصراخ وانما الى التغطية الهادئة فلم تكن هناك حاجة لارسال تغطيتها بالاقمار الصناعية ويكتفي بشحنها الى نيويورك ليجري بثها في الوقت الملائم وليس حتما عند الوصول.

ولكني كنت مخطئة.وكان اولى بي أن اقدر أن الرئيس المصري أنور السادات سيكون صانع خبري التالي بحكم تاريخه الطويل في صنع المفاجآت.ومع أني لم أكن أحمل معي أية ملفات أو مذكرات أو قصاصات الا أني كنت أحتفظ في ذاكرتي ببعض المعلومات الاساسية،منها أن السادات تقدم بعرضه الأول للسلام الى اسرائيل في عام ١٩٧١. وفي عام ١٩٧٢ طرد من مصر ٢٠ الفا من الخبراء والفنيين السوفيات (هذا هو الرقم الذي اعتاد اعلام الغرب أن يذكره ولكن الرقم الحقيقي كان اقل من ١٧ الفا بما فيهم عائلات المطرودين). وفي ١٩٧٣ شن حرب اكتوبر التي عوضت الشرف العربي بعد هزيمة ١٩٦٧. وفي ١٩٧٤ وقع مع اسرائيل اتفاقية سيناء الأولى لفك الاشتباك واستضاف الرئيس الاميركي حينذاك ريتشارد نيكسون. وفي ١٩٧٥ وقع اتفاقية سيناء الثانية واعاد فتح قناة السويس كعلامة على حسن النية.

اذن فمع عام ١٩٧٧ كان الاتجاه قد أصبح واضحا.فالرئيس المصري قد أصبح

مقتنعا ان العرب لن يستطيعوا ابدا كسب حرب ضد اسرائيل،ولذلك فقد أخذ يلتمس وحده باب السلام. وحسب تقديره فان الطريق الى السلام يمر من خلال أميركا حامية اسرائيل واقرب اصدقائها. وعليه فانه يجب أن يلتمس صداقة الصديق القوي لعدوه وأن يقنع الأميركيين بأفعاله وبابداء نواياه الطيبة. ولقد حان الآن أوان الخطوة التالية لتكون مفاجأة اخرى ولكن على نحو أكثر درامية من كل ما سبقها من مفاجآت مجتمعة معا، ذلك أنه سيطير «الى آخر العالم» ويتعامل مع العدو مباشرة،وبلا ستار،ووحده.

وفي اللحظة التي هبطت فيها طائرتي بمطار القاهرة ليلة ١٧ نوفمبر كنت أفكر في أن هذا الرجل اما أن يكون عبقريا أو معتوها. ولكن الذي لا شك فيه هو أنه كان بين يدي الآن قصة تلهث وراءها الانفاس.

- مرحبا بك في القاهرة!

كان المرحب هو حسن بهجت. ساحر تلفزيون «ايه. بي. سي» المقيم بالقاهرة. وكنا في منتصف الليل. ولكن ابتسامته المشرقة الفياضة بالحيوية وحركته الرشيقة في زحام المطار بين آلاف القادمين والعاملين والأمتعة والحمالين والحشد الكبير من الاقارب المستقبلين لاهاليهم العائدين كانت شيئا مناقضا لحقيقة أنه لم يسترح لحظة واحدة منذ الصباح.

وبينما كان حسن ينهي اجراءات الجوازات انتحيت أنا ركنا لاقرأ فيه الرسالة المغلقة التي سلمني اياها لحظة وصولي. كانت كلمة ترحيب رقيقة من رئيس مكتب القاهرة حينذاك، ورئيسي لفترة مقبلة بيل برانينجان يعتذر فيها عن عدم الوجود بالمطار لاستقبالي لانشغاله في هذه اللحظة بارسال بعض الأنباء عن طريق القمر الصناعي.

واخيرا ها نحن نصل بعربة امتعتي الى ضابط الجمارك. وحسن يلوح بجوازي، وبطاقته قائلا بثقة كمن يقدم شخصية جديرة بأن تلقى أحسن معاملة:مدام دورين كايز.. المراسلة الجديدة لتلفزيون «ايه. بي. سي» ليس معنا شيء بالمرة.

وكانت كلمة «مرحبا» التي كررها موظف الجمارك بالانجليزية اكثر من مرة لا تزال ترن في أذني ونحن نشق طريقنا بصعوبة الى السيارة ثم في شوارع القاهرة، حتى الفندق.

وأحسست بعقدة ذنب بسيطة تخز جنبي وانا أذكر أن رفاقي في الرحلة ما زالوا يعانون الأمرين في صالة الوصول بالمطار.

والواقع أن السلطات المصرية كانت قد اصدرت أوامرها بحسن استقبال أهل الاعلام الاميركيين، خاصة مراسلي شبكات التلفزيون. ولكن ما فعله حسن بهجت الذي كان الآن يقود سيارته الفيات ستيشن بمهارة تشبه المعجزة وسط اكداس لا

نهاية لها من السيارات المتحركة في كل اتجاه كان أقوى من أي ترحيب.

والذي لا شك فيه أن القاهرة لا تعد من أجمل مدن العالم مع أنها كانت كذلك منذ سنوات ويمكن أن تستعيد جمالها وأكثر لو انخفض عدد سكانها الى الربع. وفي الطريق بدا أن «حسن» فخور باجادته للانجليزية بقدر ما أنا فخورة بأصلي اللبناني ولغتي العربية البسيطة التي ورثتها عن ابي وأمي ولكنه اختار أن تكون لغة التخاطب بيننا هي الانجليزية حتى توقفت بنا سيارته أمام هيلتون النيل. وافترقنا بعد أن ساعدني في انزال أمتعتي وترتيبها، وأنا أرجو الله ألا يكون لدى شبكات التلفزيون الأخرى المنافسة مثل هذا الشاب الاريب.

* * *

ومع أني لم أكن قد ذقت طعم النوم على مدى ٣٦ ساعة الا أنني لم استطع أن اقاوم التوقف طويلا خلف نافذتي الواسعة اتطلع الى النيل العظيم. كان طريق الكورنيش خاليا من المارة في هذه الساعة المتأخرة من الليل أو المبكرة من الصباح والنيل ينساب بهدوء مثلما كان ينساب من أيام الفراعنة، دون أن يلقى بالا الى كل ما مر به من أحداث وملوك وحروب وثورات ومساع للسلام ومراسلي صحف وتليفزيونات وهو لا يتغير. وعندما اويت أخيرا الى فراشي كان الهاجس الذي يتملكني أنه اذا كان النيل قد استطاع أن يصمد لكل ما حوله كل هذه الآلاف من السنين، فأنني على الأقل يجب أن أصمد ولو بضع سنوات.

غير أنه لم تمض عشرون دقيقة حتى استيقظت على رنين التليفون.

- حمدا لله على سلامتك بالقاهرة!

كان نفس الصوت المألوف الذي سألني قبل ذلك بنحو شهر من الزمان «ما رأيك في أن تكوني رئيسة مكتبنا بالقاهرة؟» يطلب مني أن اخرج من غرفتي لأرى ما هناك. وعندما فتحت الباب لم اتمالك نفسي من الصراخ للمفاجأة فقد سقط فوقي بوكيه ورد ضخم ارتفاعه اكثر من ٨ اقدام وواضح أنه «مقتبس» من حفل زواج كان مقاما بالفندق في نفس الليلة وعندما نهضت لأهتف الى زميلي ارني كولينز المخرج بتلفزيون «اي. بي. سي» ومايك دانك الكاتب البريطاني المعروف القادم من لندن، باعتبارهما اصحاب الدعابة وزميلين في نفس المهنة ينزلان بنفس الفندق.

في صباح اليوم التالي، ١٧ نوفمبر، توجهت سيرا على الاقدام الى مكتب «ايه. بي. سي.» القريب في شارع رمسيس. على مدخل العمارة كانت اكياس الرمل المصفوفة تشكل جزءا من الديكور. واحسست بالاحباط يتزايد لرؤية المكتب. كان عبارة عن شقة متواضعة لم تحظ على رضاي من اللحظة الأولى. ولكني رفضت ان استسلم للقنوط من اول يوم لي في العمل. وركزت اهتمامي على الزملاء الخمسة بالمكتب: بيل برانينجان رئيس المكتب، والمصور روبين فوجيمو ركيان، ومهندس الصوت بيتر

لوزاريان، والسكرتيرة ماجدة، واخيرا السوبر مان حسن بهجت.

كان هناك ايضا بالمدينة بيتر جيننجز كبير مراسلي مكتب «ايه. بي. سي» في لندن وطاقم اضافي من المصورين ينتظر وصولهم بين لحظة واخرى من لندن. غير أن الجزء الأكبر من المراسلين العالميين كانوا في طريقهم أو وصلوا فعلا الى تل ابيب والقدس لتغطية وصول السادات المقرر أن يكون في ١٩ نوفمبر، أو في دمشق حيث كان من المتوقع ان يتوقف السادات في زيارة سريعة يحاول خلالها الحصول على موافقة الرئيس السوري حافظ الاسد قبل توجهه للقدس. غير أن الاسد اوضح جيدا أنه لن يوافق على زيارة السادات لاسرائيل. والواقع أن حافظ الاسد من بين جميع الزعماء في العالم العربي كان اشدهم اعتراضا على رحلة السادات السلامية، ولم يتصور أحد منا حينذاك أن زيارة الرئيس المصري للقدس كادت لا تتم. فبعد اغتيال السادات بشهور اعترف امامي وزير سوري سابق بقوله «لقد وضعنا بالفعل خطة لاعتقال السادات عند وصوله الى دمشق لمنعه من الذهاب الى اسرائيل ولكن الرئيس الاسد اعترض في اللحظة الاخيرة على أساس أن الخطة كانت غير عملية».

وفي نفس اليوم فقد السادات وزير خارجيته اسماعيل فهمي. وقالت لي ليلى تكلا رئيسة لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشعب المصري والتي كانت في زيارة خاصة لدمشق اثناء اجتماع السادات والاسد، انها حاولت الاتصال به في جناحه بفندق الميريديان وقد طلبته بالهاتف عدة مرات طوال اليوم دون أن اتلقى أي رد، الأمر الذي بدا في غاية الغرابة».

ولذلك فقد توجهت الى بهو الفندق وسألت عن اسماعيل فهمي فقيل لي ان حقائبه وصلت، ولكنه شخصيا لم يصل. كان فهمي قد استقال، ولن يصحب رئيسه الى اسرائيل. اما عن سبب وصول حقائبه وحدها، فيرجع الى ان العادة جرت على شحن حقائب الدبلوماسيين المسافرين في مثل هذه المهام قبل ٢٤ ساعة من سفر اصحابها. ومعنى ذلك ان فهمي كان حتى آخر لحظة لا يصدق أن السادات سوف يتوجه الى اسرائيل عقب زيارته لدمشق. وقد استقال لأنه كان يرى أن السادات يلقى بجميع اوراقه دفعة واحدة بذهابه الى اسرائيل. وان مجرد ذهابه للقدس يعني الاعتراف الرسمي بها وبالقدس المحتلة ايضا كعاصمة لها.

وفيما بعد، عندما ظهر اسماعيل فهمي مرة اخرى وتحدث اكثر من مرة مع المراسلين الاجانب كان مما قاله لي:

«لقد طالبت الرئيس الا يذهب لاسرائيل وللقدس بالذات وقلت له «اذا كنت تريد مقابلة مناحيم بيجن فليس في ذلك مشكلة.انا استطيع أن ارتب لقاءك به في أي مكان في العالم. ولكن لا تذهب الى اسرائيل».

ويضيف اسماعيل فهمي ان السادات لم يطلب لمبادرته السخية أي مقابل بالمرة.

ومن وجهة النظر التفاوضية كان في أضعف وضع ممكن.

واذن فقد استقال وزير خارجية السادات عشية زيارته لاسرائيل كمسألة مبدأ. وان كان خطر ببالي وأنا اقرأ نص كتاب استقالته في اليوم التالي أنه استقال احتجاجا على تجاهل السادات له وابعاده عن المسرح بأسلوب في منتهى عدم الدبلوماسية واللياقة. ولكن ما لبثت أن عرفت أن المسألة كانت أعمق كثيرا من ذلك، وكانت أحداث الاشهر التالية كافية لكي اغير رأيي.

ولكن الاضواء في يومي ١٧ و١٨ نوفمبر لم تكن معنية بالرافضين أو المتشائمين وانما كانت مركزة على السادات وتنقلاته. وكان كل ما يهمنا هو أن يكون لدينا العدد الكافي من المراسلين والمصورين، كل في مكانه المناسب لتغطية رحلة السادات الى القدس باعتبارها أهم حدث درامي في تاريخ المنطقة منذ قيام دولة اسرائيل. وكان دورنا في مكتب القاهرة هو التدعيم والمساعدة. اما التغطية المباشرة فقد اسرع للقيام بشرف معالجتها النجوم الكبار من نيويورك. وفي مقدمتهم والتر كرونكيت الذي سبقهم الى القاهرة وباعتباره «القابلة» التي قامت بعملية ولادة المبادرة، فقد ضمن لنفسه مقعدا في طائرة السادات، وفي تل ابيب كان هناك عميد تلفزيون «ان. بي. سي» حيث سافرت ايضا زميلتنا بربارا والترز واخذت تحاول جاهدة اللحاق به.

كان كل ما يهمنا باعتبارنا ممثلين لشبكة تلفزيون «ايه. بي. سي» هو أن نكون في مستوى تلفزيون «سي. بي. سي» المنافس بعد الضربة التي حققها كرونكيت. ولقد حققت زميلتنا الجديدة بربارا والترز هدفا في مرمى المنافسين عندما طارت بطائرة خاصة استأجرتها شبكتنا من تل ابيب مباشرة الى القاهرة لتنجز بذلك أول رحلة مدنية في التاريخ بين البلدين.

ورحب السادات بوجود بربارا ضمن حاشيته على متن طائرته، مدركا بخبرته الدعائية انها، وهي التي يسمونها في اميركا «مذيعة المليون دولار» ستفيده كثيرا لدى جمهورها الغفير في اميركا.

وحتى بدون وجود كرونكيت، فان السادات كان لديه مكان لشبكة «ايه. بي. سي» التي كانت حينذاك تحتل المرتبة الثالثة بين شبكات التلفزيون الاميركية الكبرى، وخصوصا نجمها الكبير بيتر جينينجز. فعندما كان السادات لا يزال يسعى في طريق النجومية تطوع جينينجز وطاقم كامل من مساعديه على مدى شهر كامل لانتاج وتصوير فيلم وثائقي عن السادات بعنوان «السادات .. ترجمة حياة»، وقد قدم هذا الفيلم الرئيس المصري للجمهور الاميركي في صورة شديدة البريق، وساعدت هذه الصورة كثيرا في تلميع شخصية السادات وتمهيد الجمهور الاميركي لتقبله كسوبر ستار.

الفصل الثاني :

عيد الأضحى في القدس

ان كل ما أرجوه أن يحصل العالم على رؤية للتاريخ افضل من تلك التي قدمتها له في مساء ١٩ نوفمبر ١٩٧٧. ففي خضم ذلك الوهج الصاخب الذي احاط بقصة تغطية رحلة السادات «الى آخر مكان في العالم» كنت أنا والمصور روبين فوجيموركيان ومهندس الصوت بيتر لوساريان والمخرج ارني كولينز نشق شوارع وحواري القاهرة في سيارة مرسيدس سوداء علاها الغبار رغم انها تكاد تكون جديدة تماما-كنا في طريقنا الى المقهى الوافي بالغرض، ولكن دون ان نعرف مكانه بالتحديد.

كان سائقنا «مصطفى» - مثل سائر القاهريين - يبدو عارفا بكل شيء.. بسيارته، ومدينته، وكل العشرة ملايين من سكانها. وما من رجل آخر يعرف كل مقاهيها خيرا منه، اللهم الا مصورنا اللبناني الارمني الاصل روبين.. فبعد عامين من الاقامة بالقاهرة كان روبين يعرف تماما المقهى الذي نريده وكيف نصل اليه.. وبين الجدل بين الاثنين وصلنا الى مقهى ثم ثان ثم ثالث ولكن كلها لم تكن مناسبة. بعضها كان خال من الرواد اكثر مما يجب. والبعض الآخر كان مزدحما اكثر مما يجب. والبعض الثالث لم يكن به جهاز تلفزيون. والبعض الرابع بعيد جدا عن مكتب تلفزيون ايه. بي. سي». واخيرا وصلنا الى مقهى في باب اللوق لم يكن هو بالتحديد الذي نرجوه، ولكنه كان على الاقل وافيا بالغرض. كان به عدد لا بأس به من الرواد.. وجهاز تلفزيون، ومكان يتسع لطاقمنا والكاميرا، وقريب من مكتبنا،

ومدخل مكشوف على حارة جانبية يتيح لنا طريقا للهرب في حالة الخطر.

وشرحنا للقوم من نحن، ولماذا نقتحم عليهم مكانهم، وكيف أن على الجميع أن يتفضلوا بالاستمرار في ما هم به دون أن يبدو عليهم أي احساس بوجودنا.. وقد كنت طوال عمري استمتع كل الاستمتاع بهذا الجزء الاخير من طقوس تقديم الخبر التلفزيوني. الا وهو ان يمثل الجميع دور من لا يمثلون، فبحكم خبرتي كان الكل يتجاهلون هذه الوصية، لسببين، اولهما هو أنهم بطبيعة الحال ليسوا ممثلين محترفين، والثاني انهم يدركون ان ما يحدث هو امر غير عادي والا لما كنا موجودين هنا.

وكان مصورنا روبين معروفا بأنه من أمهر من عملوا في مجال التصوير التلفزيوني للانباء.. وقد كنت اعرف ذلك. ولكن وانا اراقبه الآن وهو يعد طريقة جلوسنا واماكن الرواد في أول عمل مشترك نقوم به معا ايقنت انه ايضا مخرج ممتاز ولشد ما أحسست بالأسى فها أنذا الآن أمام فلليني «المخرج الايطالي العظيم» وهو يعد للتصوير مشهد رد الفعل لزيارة السادات، بدلا من أن يصور المشهد ذاته. وعلى أية حال فقد وقت التساؤل عما اذا كان العنصر الأساسي في المشهد التمثيلي وهو جهاز التلفزيون ذاته سوف يثبت كفاءته بما فيه الكفاية بحيث يباح للجميع أن يروا، وان يظهر عليهم رد الفعل، وهم يشاهدون السادات يضع قدمه فوق أرض اسرائيل.. كما فات الوقت للتأكد من أن ردود الفعل التي سنراها ستكون صدى لزيارة السادات ذاتها أم لوجودنا هنا ومعنا كاميرات التصوير.. ولم يعد باستطاعتنا أو من حقنا أن نستشعر القلق ازاء جدوى ما نفعله بالنسبة للمنافسة الحادة مع الشبكات التلفزيونية الاخرى.. كان الوقت قد فات لنفكر في اي شيء آخر.. فالعرض كان يوشك أن يبدأ.

وقد كنا اكثر انشغالا بمحاولتنا تسجيل التاريخ بالصوت والصورة من أن نحدد بدقة متى وقع الحدث. ومن المؤكد أن الألفي مراسل من جميع أنحاء العالم المنشغلين بتغطية المناسبة لم ينظروا الى ساعاتهم لحظة وقوعه. ومع ذلك، فان اللحظة التاريخية كانت ٥٨ر٧، ٥٩ر٧، ٨ مساء «كما هو مقرر» ثم ١ر٨ بالتوقيت الاسرائيلي.

وكان كل ما رأيته وسمعته سلسلة سريعة من الصور المتلاحقة والاصوات غير الواضحة اثارت في البداية لحظة صمت مطبق ما لبثت أن قطعت بعاصفة من التصفيق والهتاف من جمهور الرواد الذين امتلأ بهم المقهى.. واخذ روبين ينتقل ببراعة بالكاميرا بين شاشة التلفزيون والجمهور ـ وكلهم من الرجال ـ مصورا ردود الفعل كيفما يختار ليناسب الدراما. والحق، أنه لأسباب كثيرة ـ ليس منها قصور من جانب المعلق المصري أو شبكة التلفزيون المصرية أو القمر الصناعي ـ كان من

الصعب تمييز الرئيس المصري عن البوينج ٧٠٧، أو مناحيم بيجن من جولدا مائير.. أو السلام الوطني المصري عن السلام الاسرائيلي، أو علم نجمة داود عن النسر المصري على العلم المصري المثلث الألوان، أو رجال الأمن عن رجال الاعلام.. او الفن عن الحقيقة. غير أني أحسست بشيء من الارتياح عندما خطر ببالي أنه اذا كان التاريخ يسجل بالفعل في هذه اللحظة، فلست أنا الوحيدة التي يفوتها حدث التسجيل.. فقد كان هناك في مؤخرة المقهى اثنان من الزبائن لا بسي الجلاليب جالسين حول احدى الموائد ويبدو عليهما منتهى الملل وعدم المبالاة منتظرين بفارغ الصبر ان تنتهي كل هذه الضجة لكي يستأنفا مباراتهما بورق اللعب، وسط الدخان المنبعث من نرجيلة مشتركة بين الاثنين.

كانت لقطة رائعة للتصوير.. ولكن روبين للأسف لم يلتقطها.. ببساطة لأنه لم يكن مشاركا في اعدادها. وفي اللحظة التي انتبه روبين اليهما كانا قد نهضا واقبلا نحو الكاميرا.. ليظهرا في الصورة! وهكذا فقدنا جانبا هاما من الصورة الحقيقية.. فقد اقبلا ليظهرا رد الفعل المناسب للظهور على الشاشة، وليس المعبر عما يشعران به في الواقع.. كانت لقطة عظيمة، لعلنا لو التقطناها، واظهرناها على شاشة التلفزيون الاميركي لكانت قد ساعدت اكثر على تخفيف عملية التزويق التي طغت منذ تلك اللحظة، او ربما من قبلها، على كل شيء حتى اخفت الحقيقة تماما عن كل العيون.

ومع ان روبين - الخبير - حاول ان يتفادى اهتمام كل من تقع عليه الكاميرا بالصورة التي سيظهر عليها عندما يجري بث الفيلم في اليوم التالي، وذلك بأن يتظاهر بالتصوير في ناحية، بينما العدسة تلتقط مشهدا آخر.. فان الجميع كانوا يدركون انهم يمثلون.. ومستمتعون بالاستمرار في التمثيلية.

صورة اخرى فات روبين أن يلتقطها. في زاوية من المقهى.. كان هناك جندي مصري بثياب الجيش يجلس وحيدا.. ولم يبد عليه أي اهتمام بالاشتراك في التمثيل أو الظهور أمام الكاميرا. ولكني لحظت دمعة حزينة تنحدر على خده وهو يرى السادات يخطو بقدمه على أرض العدو، ويأخذ قادته بالأحضان، الواحد بعد الآخر. وكانت لقطة تساوي العمر.

وعندما خرجنا اخيرا الى الشارع كان كثير من الصبية والشباب الأكبر سنا من عمر الصبا قد انتبهوا الى أن هناك تصويرا، وفرصة للظهور على شاشة التلفزيون فأخذوا يتدافعون ويتصايحون ملوحين بأيديهم ويسدون علينا الطريق هاتفين بحياة السادات واميركا (لقد ادركوا اننا نمثل التلفزيون الاميركي).. ولم يفوّت روبين الفرصة فادار الكاميرا نحوهم وظهرت الصورة على شاشة التلفزيون الاميركي لتصور مدى ترحيب شوارع القاهرة بزيارة السادات.

كانت الساعة تجاوزت الحادية عشرة مساء في القاهرة، ولكنها كانت لا تزال بعد الظهر في نيويورك عندما انتهى تحميض الفيلم واعداده للارسال بالقمر الصناعي الى محطتنا الاميركية. وعندما وصل كانت المحطة تذيع مباراة هامة لكرة القدم بين فريق ولاية اوهيو وجامعة ميتشيجان على الهواء. وقطع ارسال المباراة لكي يذاع نبأ زيارة السادات ووعد ببرنامج لمدة ساعة في المساء حول الزيارة، ويتضمن نحو دقيقة و١٥ ثانية عن ردود الفعل في القاهرة، وبعدها تقارير بربارا والترز وبيل سيمانز رئيس مكتب اسرائيل من تل ابيب.

وكان التقرير الذي اذيع على لساني مصحوبا باللقطات المعبرة التي التقطها روبين كما يلي:

البعض كانوا ببساطة في حالة ذهول.. والبعض الاخر تسابقت الى اعينهم الدموع.. فقد كانت ليلة مفعمة بالانفعال بالنسبة لملايين المصريين وهم يرون رئيسهم يطأ بقدمه على ارض اسرائيل امام شاشة التلفزيون.. واذا كان كثيرون قد شاهدوا هذا الحدث الكبير وهم مسترخون على مقاعدهم في البيوت.. فان الآلاف قد شاهدوه في المقاهي. بعضهم كانوا اصغر سنا من ان يدركوا ما حدث .. والبعض الآخر كانوا اكبر من أن يهتموا كثيرا بالامر. ولكن الاغلبية الساحقة بدت وكأنها لا تصدق ما يحدث الآن امام الجميع. كان من يجري يتجاوز الواقع، ويحكم بقبضته على مشاعر المشاهدين . فها هو السادات يبتسم وهو يتبادل الحديث مع ... سين؟ عدوهم المعروف لعشرات السنين... بل ها هو يصافح سيدة من كبار المستقبلين لعلها جولدا مائير، ثم يهز يد موشي دايان وغيرها من قادة العدو الاسرائيلي.

ولقد اوجز لي رجل واحد وجهة نظر كل من كانوا بالمقهى في هذه الليلة بقوله: لقد حاول العرب كل شيء، حاولوا الارهاب، وحاولوا الحرب.. ولكن شيئا من ذلك لم يحقق السلام. غير ان هذا النوع من الأعمال لم يجرب من قبل. فاذا اعطت مبادرة السادات ثمرتها - اي كانت خطوة حقيقية نحو السلام - فما أروع ذلك. أما اذا كان العكس فيكفينا على الأقل أننا حاولنا هذا أيضا».

ووقعت على أول رسالة لي من القاهرة بامضائي: دورين كايز، اخبار تلفزيون «ايه. بي. سي» القاهرة..

ودلفت الى فراشي في تلك الليلة وأنا لا أدري ما اذا كان تقريري سوف يذاع، أو ماذا سيكون شكل المنافسة مع الشبكات الأخرى.. كذلك لم أكن دارية بما تم فعلا في مطار بن جوريون ثم بعد ذلك في القدس.. وعلى عكس جمهور التلفزيون في اميركا كان علي أن انتظر حتى تصل تفاصيل ظهور السادات لأول مرة على المسرح الاسرائيلي. أما الذي حدث على السطح فهو معروف. فقد عزفت الأبواق، وتوترت أعصاب الآلاف الذين تجمعوا في مطار بن جوريون انتظارا لباب طائرة جمهورية

مصر العربية البوينج ٧٠٧ حتى يفتح.. واخيرا، بعد دقائق مرت بطيئة كأنها ساعات، وتحت أضواء عشرات كاميرات التلفزيون ظهر رجل الساعة على رأس سلم الطائرة، ووجهه في البداية خال من أي تعبير، ثم ينفرج عن ابتسامة واسعة وهو يلوح بيده للجمهور الذي استقبله بالهتاف والتصفيق.

وتحت السلم رحب به الرئيس الاسرائيلي افرايم كاتزير ورئيس وزرائه مناحيم بيجن بحرارة. وكأن الأمر أقرب ما يكون الى جارين تجاوزا في لحظة واحدة ٣٠ سنة من الخصام والنزاع حول قطعة صغيرة من عقار كل يدعي ملكيته. غير أن الأمر هنا كان أعمق والنزاع كان أكبر من ذلك لأنه يشمل فيما يشمل ملايين من الفلسطينيين بلا دولة أو وطن، وأربع حروب ضارية والاف مؤلفة من القتلى والمشوهين.. وكل هذا جعل الصورة على شاشة التلفزيون غير قابلة للتصديق.

ووقف اول رئيس عربي يزور اسرائيل وقفة انتباه بينما كانت فرقة موسيقى عسكرية تعزف السلام الوطني المصري دون أن يتاح لها وقت كاف لتتدرب عليه كما يجب.. ثم سادت فترة صمت تخللتها بعض الدموع.. ثم عزفت الموسيقى النشيد الاسرائيلي، الهاتيكفاه. وبعدها تقدم الرئيس المصري ليتفقد حرس الشرف المشكل من ٧٢ جنديا وبحارا وطيارا.

وفجأة بعد انتهاء الرسميات وجد السادات نفسه وجها لوجه امام اعضاء الاسرة الاسرائيلية الرسمية، واصبح الجو مفعما بروح الود، بل المرح، بينما السادات يخطو امام صف طويل من رجال الحكم الاسرائيليين الحاليين والسابقين. وعندما لمح دايان، بطل حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ انفرج وجهه عن ابتسامة واسعة وهو يشد على يده كأنما يقول ما فات قد مات.. وسأل عن أرييل شارون الجنرال الاسرائيلي السابق الذي عبر القناة وغير اتجاه حرب ١٩٧٣ وكان بالتأكيد موجودا هناك. وبينما أخذ يهز يده مصافحا قال مازحا..

- لقد حاولت ان القاك من قبل ولكني لم استطع اللحاق بك.

فأجابه شارون وهو يضحك مقهقها.

- اني سعيد بان احييك في بلادنا.

ثم خطا السادات نحو جولدا مائير التي طالما نعتها بقوله العجوز الحيزبون - فقال لها:

- مدام! لقد كنت اشتاق للقائك منذ زمن طويل.

وبادلته رئيسة وزراء اسرائيل السابقة والتي طالما سببت له المتاعب ابتسامته وهي تردد انها هي الاخرى انتظرت طويلا حتى تلقاه.

واستمرت لحظة السلام المجيدة تجرف السادات. والجماهير المشتعلة بالحماس تحاول ان تكسر حزام الأمن لتحصل على نظرة او لمسة بينما كان الرئيسان المصري

والاسرائيلي يشقان طريقهما الى السيارة الليموزين السوداء المحصنة ضد الرصاص (وكانت معارة من السفارة الاميركية) لتقطع بهما طريقا طوله نحو ٣٠ ميلا للقدس.

كانت ليلة باردة. وقد فضل معظم الاسرائيليين مشاهدة الحدث في بيوتهم على شاشة التلفزيون. ولكن هذا لم يمنع بضعة الاف من الاصطفاف على جانبي الطريق عند مدخل القدس وهم يهتفون للموكب العجيب. بل وكان بعضهم يحمل اعلاما مصرية كمبالغة في الترحيب، اما اجراءات الأمن فلم يسبق لها مثيل حتى بالمقاييس الاسرائيلية. فكان هناك آلاف من جنود الأمن يفسحون الطريق للسيارة الليموزين السوداء وسائر الموكب المرافق حتى وصل الجميع الى فندق الملك داود. نفس الفندق الذي نسفه مناحم بيجن وهو زعيم عصابة ارجون في عام ١٩٤٦ كجزء من الحملة الصهيونية للتعجيل باخراج البريطانيين من فلسطين.

وما ان خطا السادات داخلا بهو الفندق حتى استقبلته عاصفة اخرى من الهتاف «سادات.. سادات». وفي اثناء احتفال صغير اقيم لحظة وصوله سلمه مدير الفندق شهادة بمائة وثمانين شجرة ثم غرسها باسمه في غابة القدس للسلام.

ومع ان شبكة الأمن حجبت معظم السائحين المجتمعين عن رؤية السادات الا ان العديد يقولون انه رآهم ولوح لهم بيده!

واغرورقت عيون كثيرين بالدموع وكأنهم صدموا بمعجزة لا يتوقعها مخلوق، وهم يشاهدون السادات، وفي يده نسخة من «الجيروزاليم بوست» بعناوين حمراء كبيرة بالعربية والانجليزية تقول «مرحبا بالسادات» يتوجه نحو الجناح رقم ٦٣٢ وبصحبته رئيس الوزراء مناحم بيجن حيث دار بينهما حديث مغلق لم يستغرق وقتا طويلا. وعندما ظهر بيجن خارجا الى البهو، اجاب على اسئلة الصحافيين بايجاز وحبور قائلا:

«لقد احب كل منا الآخر».

اما المسؤول الكبير الاسرائيلي الوحيد الذي فاتته المناسبة فكان وزير الدفاع عزرا وايزمان الذي اصبح بعد ذلك اكثر القادة الاسرائيليين حظوة لدى السادات. وكان في تلك اللحظة راقدا في المستشفى ليعالج من بعض الاصابات نتيجة حادث سيارة وقع له في نفس الاسبوع. وواضح انه كان مستاء للغاية لحرمانه من هذه الفرصة السعيدة. ولذلك، كما يقول هو نفسه في كتابه «معركة السلام»، خاطب اطباءه بقوله: «ايها السادة.. اني ذاهب الى الكنيست يوم الاحد ولن أبالي بأي كلام تقولونه. اسمعوا! هاتوا اوراقكم معكم ومعها ما تشاءون من هيروين او كوكايين او حشيش ثم تعالوا معي وافعلوا المستحيل حتى استطيع ان اقف على اقدامي لمدة ٢٤ ساعة على الاقل!!

كان من بين الاسباب التي جعلت السادات يختار يوم الاحد ٢٠ نوفمبر ليكون في القدس هو ان هذا اليوم يوافق عيد الاضحى الذي يحتفل فيه المسلمون بذكرى اقدام النبي ابراهيم المقدس لدى المسيحيين والمسلمين واليهود على التضحية بابنه كعلامة على طاعته المطلقة لله. وهكذا، وبوعي من السادات الى ما ترمز اليه المناسبة، توجه في الساعة ٦ر٤٥ من صباح ذلك اليوم ليقيم صلاة العيد بالمسجد الاقصى الذي يعتبر ثالث اقدس المساجد لدى المسلمين بعد الكعبة بمكة والحرم النبوي بالمدينة المنورة.

وكان وجود مئات من الحراس المصريين والاسرائيليين حول السادات كأنما يذكر بأن ما حدث للملك عبدالله قبل ذلك بست وعشرين سنة يمكن ان يحدث له الآن، حيث اغتيل الملك عبدالله على يد شاب فلسطين بسبب اتصالاته السرية مع الزعماء الاسرائيليين وهو يهم بدخول المسجد الأقصى.

واستمرت صلاة العيد نحو عشرين دقيقة حملت للرئيس المصري ايضا مزيدا من النذير بالخطر الذي ينتظره حيث رفع الامام صوته مطالبا بالعدل للفلسطينيين اصحاب فلسطين والقدس الحقيقيين.

وغني عن البيان ان رفاق السادات في صلاة العيد كانوا مختارين بعناية من قبل رجال الأمن الذين كانوا اكثر عددا على أية حال.

وبعد مغادرة المسجد الاقصى سار السادات عبر الميدان الى قبة الصخرة المذهبة التي يقال ان النبي ابراهيم تهيأ لذبح ولده عندها وحيث أسرى الله «سبحانه وتعالى» بنبيه محمد اليها حيث صعد منها الى السماء. وعند مغادرته تفادى الحائط الغربي المقدس لدى اليهود، واتجه بالسيارة الى كنيسة القبر المقدس. وكان واضحا انه يخاطب بهذه اللمحة مشاعر اقباط مصر الذين يصل عددهم الى نحو سبعة ملايين نسمة.

وبينما كان يغادر الكنيست استقبله عدد من المتظاهرين الفلسطينيين يتهمونه بالخيانة، معبرين بذلك عن رد الفعل السائد في العالم العربي كله. وقد نجحت قوات الأمن الاسرائيلية في تشتيتهم، ولكن بعد ان اسمعوا السادات هتافهم «عد بكلابك الى مصر» وغير ذلك من الشعارات العدائية. غير ان هذا لم يمنع السادات من الانتقال الى «يادفاشيم»، النصب التذكاري لضحايا النازية من اليهود. وقد امتنع السادات عن ارتداء الطاقية اليهودية، ولكنه كتب في دفتر الزائرين وهو خارج هذه العبارة: «فليسدد الله خطانا من اجل السلام. ولنضع نهاية لمعاناة كل الجنس البشري».

بعد ذلك كان هناك غداء عمل على مائدة رئيس الوزراء مناحم بيجن استمر ٩٠ دقيقة، وشهده وزير الخارجية موشي دايان، ونائب رئيس الوزراء ايجال يادين. ثم توجه موكب السادات الى مبنى البرلمان حيث وضع اكليلا من الزهر على قبر الجندي

المجهول ثم دخل ليلقي خطابه.

* * *

في مكتب «ايه. بي. سي» بالقاهرة كان جهاز التلفزيون مفتوحا على تغطية زيارة السادات على الهواء ولكنه كان في الواقع مجرد ستارة خلفية لمسعانا اللاهث من اجل العثور على اسرة مصرية تقليدية لكي نصور معها رد فعل خطاب السادات في الكنيست.

وفي آخر لحظة ونحن على حافة اليأس اقترح علينا طارق ان نصور عائلته. وكان طارق شابا مصريا استخدمناه مؤقتا للمساعدة. وقبلنا العرض. وان هي الا دقائق حتى كنا على الجانب الآخر من النيل في شقة عالية المستوى بحي الزمالك الراقي، وتطل مباشرة على النيل.

اعضاء الأسرة هم يوسف كمال عبدالرحيم، عقيد سابق بالجيش والان صاحب شركة مقاولات، وزوجته، وابنته هدى، يشكلون معا نموذجا للاسرة الارستقراطية المصرية (استثنينا طارق بالطبع بحكم عمله معنا). كان جهاز التلفزيون في ركن بقاعة واسعة مرتبة الاثاث على نحو يتيح حرية الحركة للكاميرا لكي تتنقل عدساتها بالتبادل بين صورة السادات المنقولة على الهواء واعضاء الاسرة الذين يشاهدون ويسمعون. وقد ساعدنا كثيرا أن اعضاء الاسرة الذين يشاهدون ويسمعون يجيدون اللغة الانجليزية مما يجعلنا قادرين على التقاط ردود الفعل مباشرة وليس بعد ان تتأثر بمضي الوقت اثناء الترجمة.

وبعد ان تم اختبار الانوار واختبار زوايا الالتقاط وتثبيت اماكن المصابيح الكاشفة وكذلك مواقع افراد الاسرة جلسنا جميعا في حالة ترقب. وفي تمام الساعة الرابعة عصرا دخل الرئيس المصري قاعة الكنيست ليستقبل بعاصفة من التصفيق وقوفا (في مخالفة صريحة لتقاليد الكنيست التي تحظر التصفيق).

وكان من بين المصفقين وزير الدفاع عزرا وايزمان المصاب، ولكنه صمم على الحضور بمساعدة طائرة هليكوبتر وكرسي بعجلات وعكازين ليرى حلمه وقد تحقق. فها هو السادات بلحمه ودمه في سترة داكنة مقلمة يقف على منبر الكنيست دون ان يختلف بالمرة عن نفس السادات الذي كان يخطب من على منبر مجلس الشعب المصري منذ ١١ يوما فقط. وكالعادة كان يتصبب عرقا ربما بسبب توتر اللحظة التي يمر بها وربما اكثر بسبب الاضواء الباهرة التي تركزت عليه وطبيعة تكوينه الجسماني. ومع ذلك فقد بدا هادئا في الظاهر وواثقا من نفسه، وهو يبدأ خطابه الذي استمر ساعة كاملة.

بدأ السادات خطابه مفتتحا باسم الله العلي العظيم وباسم السلام فالتمس العذر لكل اولئك الذين فوجئوا او تعجبوا بشدة لقراره (لعله كان يقصد الذين هاجموه في

العالم العربي) واولئك الذين تصوروا انها مجرد مناورة سياسية او تكتيكية ليغطي بها نواياه لشن حرب جديدة (في اشارة الى بعض المسؤولين الاسرائيليين).
واستطرد معلنا ان اي حياة تفقد في حرب انما هي حياة انسانية سواء كانت لعربي او يهودي «ان المرأة التي تصبح ارملة هي مخلوق بشري كانت تطمح للعيش حياة عائلية سعيدة سواء كانت عربية او اسرائيلية... من اجل الاجيال القادمة من اجل ابتسامة على وجه كل طفل يولد على ارضنا».

من اجل هذا كما قال بلهجة مؤثرة فانه اقدم على ما يفعله الآن. وفي اللحظة التي كاد فيها ينوم خصومه مغناطيسيا ليستدر عطفهم بغير حدود انتقل للنقطة الحاسمة في خطابه قائلا انه وقد اتى سعيا وراء السلام «لم آت الى هنا لاعقد صلحا منفردا بين مصر واسرائيل، لم آت من اجل اتفاقية ثالثة لفك الاشتباك، وانما جئت لكي اكسر الحاجز النفسي حاجز الشك والغدر وسوء الفهم والنوايا السيئة» وهو الحاجز الذي ـ كما قال ـ يشكل ٧٠ بالمائة من المشكلة بأسرها.

ولكن يبرهن على انه يقوم بخطوة اولى بالغة الكرم في سبيل القضاء على الماضي المر ها هو يعترف بحق اسرائيل في الوجود قائلا بملء فيه «انتم تريدون العيش معنا في سلام في هذا الجزء من العالم وانا اقول لكم اننا نرحب بكم للعيش بيننا في أمن وسلام كاملين»، واضاف معترفا بان العرب قد رفضوا اسرائيل فيما مضى قائلا «نعم لقد رفضنا الاجتماع بكم في أي مكان. ولكني اعلنت اكثر من مرة ان اسرائيل قد اصبحت حقيقة واقعة، واننا سوف نقبل بكل الضمانات الدولية التي تتصورونها ونقبل كافة الضمانات التي تريدونها من الدولتين العظميين او من اي منهما او من الدول الخمس الكبار او من بعضها».

واخيرا قدم ما كان الاسرائيليون ينتظرونه الا وهو الشروط التي يمكن لاسرائيل من خلالها ان تعيش في أمن وعدل وسلام قائلا: «دعوني اقول لكم بدون ادنى تردد انني لم آت الى هنا تحت سقف هذه القاعة لاطلب منكم اجلاء قواتكم من الاراضي المحتلة. ان الانسحاب الكامل من الاراضي العربية المحتلة بعد ١٩٦٧ حق منطقي لا جدال فيه ولا يحتاج لاحد كي يتوسل من اجله» فالسلام الحقيقي كما قال السادات لا يمكن ان يقام على اساس احتلال اراضي الاخرين بما في ذلك القدس القديمة.

وفي هذه اللحظة بدا ان حلم وايزمان قد تحول الى كابوس، فكتب عبارة سريعة على ورقة امامه وسلمها الى بيجن الذي ناولها بدوره الى دايان بعد ان قرأها وأومأ برأسه وكانت العبارة تقول «يجب أن نستعد للحرب من الآن».

«ولكن الرئيس المصري لم يكن قد انتهى بعد من حديثه. ففيما يتصل بالقضية الفلسطينية التي قال عنها «انها جوهر المشكلة» استطرد قائلا «اقول لكم بكل اخلاص انه لا يمكن ان يكون هناك سلام بدون الفلسطينيين، وانه لخطأ فادح

يؤدي لعواقب لا يمكن التنبؤ بها ان يتعامى احد عن هذه القضية او يزيحها جانبا». وفي مجال دعوته لوطن قومي للشعب الفلسطيني وحقه في اقامة دولته ذكر السادات الاسرائيليين بأنه ليس من العدل منهم ان يطلبوا لانفسهم ما ينكرونه على غيرهم» واضاف انه «حتى الولايات المتحدة حليفكم الأول قد آثرت أن تواجه الحقيقة وتعترف بأن الشعب الفلسطيني له حقوقه المشروعة».

وفي ما يشبه المناشدة لآخر مرة دعا الرئيس المصري الاسرائيليين الى مواجهة الحقيقة بشجاعة «مثلما فعلنا» قائلا ان رحلته يمكن ان تكون نقطة تحول في تاريخ هذا الجزء من العالم ان لم يكن في تاريخ العالم بأسره. ثم ختم السادات كلمته العاطفية المغرقة في البلاغة في اكثر من موضع مرددا آية من القرآن، واخيرا بكلمتي «والسلام عليكم».

كان من الحاضرين وزير الخارجية الاسرائيلية الاسبق ابا ايبان. ولما كان يجيد اللغة العربية فأنه لم يكن بحاجة الى مترجم. وكان تعليقه ان الخطاب في حد ذاته «لم يأت بجديد... فقد كنت استطيع ان اكتبه بنفسي، ولكن من المؤكد ان الشرق الاوسط لن يعود ابدا مثلما كان».

ولم يصفق للخطاب مناحم بيجن، ولا الجنرال شارون، ولا رئيس الاركان موردخاي جور. اما وزير الدفاع وايزمان فكان احساسه ان السادات وضع اسرائيل في زاوية محصورة «امام العالم اجمع» وانه «فاجأنا بيوم كيبور آخر»، مشيرا بذلك الى حرب اكتوبر ١٩٧٣.

ونعود الى الاسرة المصرية التي كنا ونحن ـ طاقم تلفزيون ايه. بي. سي ـ في ضيافتها. حيث نجدهم بعد ان استمعوا بحماس لما قاله رئيس دولتهم، راحوا ينتظرون بقلق رد رئيس الوزراء الاسرائيلي.

والمعروف عن بيجن، انه مثل السادات، يميل الى الفصاحة والعبارات الرنانة. ولكنه ـ لأنه لم يكن قد اطلع مسبقا على خطاب السادات ـ ارتجل خطابا بالعبرية فكان دون مستواه ولم يستطع «سرقة الكاميرا» من نجم العرض الاول الذي كان من العسير ان يلحق به احد. وقد ادرك بيجن هذه الحقيقة منذ البداية، فأخذ يردد حديث المعاناة التي قاساها الشعب اليهودي على مدى سنين طويلة ثم خلص من ذلك الى انه يختلف مع السادات بشدة في ما يتصل بالشروط التي يعرضها للسلام، وخاصة ما يتعلق بوضع القدس.

غير انه امتدح السادات كثيرا مثنيا على شجاعته في عبور المسافة اللانهائية تقريبا بين القاهرة والقدس. ثم تحدث عن نوايا اسرائيل السلمية قائلا: «ان هذا يوم له اهميته الخاصة جدا في حياتنا. فلنواصل الحوار ونشد على ايدي بعضنا البعض»، فاسرائيل «لا تريد ان تتسلط او تثير القلاقل او تقسم». وفي محاولة اخيرة لمحاكاة

كرم السادات اعلن أن «بلادنا مفتوحة لكل المصريين بدون اية شروط، وكل ما نرجوه ان يكون عدد الزوار كبيرا».

وتطلع الزعيم الاسرائيلي الى المستقبل بتفاؤل، الى اليوم الذي يتم فيه تبادل السفراء بين مصر واسرائيل، ويناقش الطرفان خلافاتهما كبلدين متحضرين، ثم سارع بالتعبير عن رغبته في ان يزور القاهرة، داعيا قادة دول المواجهة الآخرين - سوريا والاردن ولبنان - الى ان يأتوا ويتحدثوا معنا».

- وباعتباره يهوديا شديد الولاء ليهوديته ختم كلمته على نفس طريقة السادات، داعيا المؤمنين الى ان يرفعوا اصواتهم ضارعين ان يؤتيهم الله القوة والحكمة لكي يتوصلوا الى سلام عادل».

اما الملاحظة التي لم تفت احدا فهي انه لم يذكر ابدا اسم الفلسطينيين على لسانه.

وهكذا طرح الطرفان موقفيهما على نحو يبدو منعدم المرونة. ولكن جوهر الامر كان انه لاول مرة في التاريخ ينتزع زعيم عربي زمام المبادرة ويبطل حجة اسرائيل. «فالآن اصبح هناك أحد للتحدث معه»، وهو الأمر الذي طالما شكت اسرائيل من عدم وجوده عندما يسألهم أحد عن مدى اخلاصهم لمسعى السلام.

واذا كان السادات يتوقع شيئا في مقابل مبادرته، فهو لم يكن يتوقع ان يتم ذلك خلال رحلته. وانما هو «جاء ليبلغ رسالة» وقد أبلغها. وكان الفضل في ذلك دون شك لفرط السخرية - لمناحيم بيجن، صقر الصقور في اسرائيل، والمقاتل العنيد المؤمن حتى النخاع باسرائيل الكبرى.

ومع ان المسؤولين المصريين لم تكن تخالجهم اية اوهام حول موقف بيجن الا انهم احسوا بمزيد من خيبة الامل لدى سماعهم خطابه. وكان هذا هو نفسه الانطباع لدى افراد الاسرة المصرية التي كنا لديهم لنسجل انطباعاتهم، فقد اثنوا كثيرا على رئيسهم واعطوه درجات عالية من التقدير لخطابه المؤثر بينما جاء خطاب بيجن ليلقي الماء على النار، ويطفىء حماسهم.

* * *

وفي ذلك المساء، ارسلنا الى برنامج الاخبار في تلفزيون اي بي سي، عن طريق القمر الصناعي، تقريرا يعبر عن تفاؤلنا الحذر. كان مطلوبا مني - كما هو العادة مع سائر مراسلي «ايه. بي. سي»، ان ارتب ثلاثة مشاهد مدة كل منهما ٣٥ ثانية بحيث تصور أقوى انطباعات مرئية وصوتية لدى من اتحدث اليهم، وبعد ذلك دورة من الاسئلة والاجابات بحيث يتاح للمحرر الموجود في نيويورك ان يسجل المادة المرسلة مني، ثم يعيد صياغة الاسئلة للاجابات الجاهزة التي ارسلتها.

ونتيجة بعض التعقيدات الفنية المتصلة بعملية الارسال، طلبت منا القيادة في نيويورك بالتلكس الا نهتف لهم من القاهرة، وانما ننتظر ان يطلبونا هم وبالفعل كانوا يتصلون بنا عدة مرات في اليوم.

وهكذا مع نهاية يوم ٢٠ نوفمبر كان راديو وتلفزيون نيويورك قد تلقيا ما يكفي من مساهمات مكتب القاهرة في عملية السلام، وكانوا سعداء بما بذلناه من جهود للتغطية.

اما وقد انتهى تبادل الكلمات التاريخية، فان الجزء الاكثر اهمية وامتاعا من الدراما قد انتقل الان الى الكواليس الخلفية في فندق الملك داود حيث كان المصريون والاسرائيليون يحاولون بصعوبة التعرف على بعضهم البعض على مائدة العشاء.

وكان الجو في المأدبة الرسمية التي اقيمت على شرف الرئيس المصري متوترا جافا ومراً، يكاد ان يكون مشوبا بفترات طويلة من الصمت بينما الطرفان يحاولان التماس شيء يتحدثون عنه في اول فرصة للقائهما منذ ثلاثين عاما. وعندما انتهت الاجراءات الرسمية المشدودة بحبال التوتر لافتتاح المأدبة قرر مصطفى خليل وبطرس غالي من الجانب المصري وعزرا وايزمان وايجال يادين من الجانب الاسرائيلي الجلوس معا بشكل غير رسمي على أمل تذويب الثلوج.

كان غالي، وهو قبطي اكاديمي يضع على عينيه نظارة سميكة، يعمل وزيرا للخارجية بالوكالة. وقد عينه السادات حديثا في هذا المنصب ليخلف وزيري خارجيته اللذين استقالا الواحد بعد الآخر نتيجة مبادرة السلام. اما مصطفى خليل، السياسي المخضرم المعروف بشعره الفضي فكان امين عام الحزب الحاكم في مصر، وفي نفس الوقت رئيس البنك العربي الدولي وواحدا من اقرب المقربين الى الرئيس السادات.

وكما يقول وايزمان في كتابه «معركة السلام» فان الحديث بين الاربعة كان وديا، وصريحا، ودار حول عدد من الموضوعات العامة مثل القنابل النووية والأمن والرغبة المشتركة في السلام.

وفي اليوم التالي دعا السادات عزرا وايزمان للقاء خاص في جناحه بالفندق في محاولة لاستطلاع وجهة نظر وزير الدفاع الاسرائيلي المعروف بأنه من غلاة الصقور حول فكرة الامن المتسلطة على الاسرائيليين. وتطرق الحديث الى وضع القدس. وبينما الاثنان يطلان من النافذة على المدينة القديمة الممتدة تحت انظارهما الح وايزمان على ان الساعة لا يمكن ان تدور الى الوراء، بينما الح السادات على ان الارض العربية مقدسة، وانه لو ظلت اسرائيل متمسكة بالارض العربية المحتلة فانه لن يستطيع ان يواجه احدا في مصر. كذلك اكد السادات انه قد انتهى من امر الحرب ولا يريد الان سوى السلام وانه لا يناور وانما هو اهل للثقة. وفي نهاية اللقاء كان وايزمان قد ادرك جيدا ان السادات قد اتخذ خطوة لا مجال معها للعودة او

التراجع، وانه يعرف ذلك. ولقد تأثر وايزمان كثيرا بهذه الحقيقة. ولكنه مع ذلك كان اميل الى التشاؤم.

وكان من المقرر ان يغادر السادات القدس في نفس المساء، ولكن ليس قبل ان يواجه مع بيجن رجال الصحافة. وبالفعل، ولأول مرة في حياة الرجلين جلسا في مؤتمر صحافي مشترك يبتسمان لعدسات التصوير لمجرد انهما لم يكن في وسعهما ان يفعلا غير ذلك وسواء تحقق السلام او لم يتحقق فالشيء الواضح انه لم يعد هناك سبيل للتراجع. وكما يقول وايزمان «لقد تأكدت من تصريحات الاثنين انه لن تكون هناك حرب اخرى، على الاقل بين مصر واسرائيل. ولن يحدث مزيد من اراقة الدماء». اما النتيجة المهمة الاخرى التي اسفرت عنها الزيارة فكانت التزام الطرفين كما جاء في البيان المشترك - بأن يستمر الحوار من اجل سلام شامل يجري اعداده في جنيف. وفي ما يتصل بالرئيس المصري انور السادات فقد قام هو بما هو مطلوب منه، والكرة الان في الملعب الاسرائيلي.

* * *

قبل ان يقوم السادات برحلته، تلقى من كارتر مكالمة هاتفية يقول فيها «ان عيون العالم اجمع مسلطة الان عليك». وهكذا فان السادات وهو يدرك ان واشنطن واميركا كلها الان تراه وتراقبه على شاشات التلفزيون، قال: «فلنأمل جميعا ان نستطيع الاحتفاظ بقوة الدفع في جنيف، وان يوفق الله رئيس الوزراء بيجن والكنيست لأن الحاجة ماسة الى اتخاذ قرارات صعبة وقاسية، وانا اعني انني اديت بالفعل نصيبي عندما قررت ان آتي الى هنا وسوف أظل اتطلع حقيقة الى ما سيتخذه رئيس الوزراء بيجن والكنيست من قرارات».

كان وزير الدفاع الاسرائيلي عزرا وايزمان هو الوزير الوحيد في حكومة بيجن الذي التقى على انفراد مع السادات. وبذلك اصبح مشاركا في الدراما الى حد لا يمكن معه ان يستغني عنه في مشهد الرحيل. وهكذا فقد وصلت به عجلات كرسيه الطبي حتى مدخل الفندق حيث كان الرئيس المصري والرئيس الاسرائيلي كاتزير ورئيس الوزراء مناحم بيجن يستعدون للانطلاق بموكبهم الى المطار. وما ان لمح السادات وايزمان وهو يحاول النهوض على عكازيه من كرسيه حتى اسرع نازلا من سيارته ليسأله الى اين هو ذاهب. اجاب وايزمان انه ذاهب معه الى المطار ليودعه. فقال السادات بلهجة الآمر: بل عد فورا الى المستشفى! فقال له وايزمان «الله معك».

وطبقا لرواية وايزمان فان السادات امسك به من كتفيه وانحنى عليه يقبله، هامسا في أذنه ان يطمئن، قائلا

- اتصالاتنا سوف تستمر عبر الرئيس الروماني تشاوشيسكو.

والمعروف ان تشاوشيسكو كان هو الصديق المشترك الذي التمس السادات مشورته حول نوايا بيجن السلامية وما اذا كانت صادقة. وكانت اجابته على هذا التساؤل هي التي حسمت تردده في القيام بمبادرته السلامية.

وهكذا، بعد ٤٤ ساعة من وصوله، غادر السادات اسرائيل عائدا الى القاهرة، معربا عن شكره للاسرائيليين، وطاقم التلفزيون الاميركي، وكانت لفتة لها مغزاها، ان عادت طائرته مصحوبة بحرس اسرائيلي قوامه ٤ طائرات من طراز كفير رافقته حتى الحدود المصرية، ومحملا بعدة هدايا من بينها الترجمة الذاتية لحياة بيجن، وصورة زيتية لحمامة، وثلاث جرار تحتوي على رماد بعض البطارقة القدامى، وهدية خاصة لحفيد له ولد اثناء آدائه الصلاة بالمسجد الاقصى وقد اهدتها اليه جولدا مائير «كهدية من جدة الى جد»، وكذلك عدة خطابات من اطفال المدارس يقولون فيها «حقق السلام حتى نستطيع ان نلعب مع اطفالكم».

واذا كان السادات قد خاب أمله في النتائج التي كان يتخيلها لمبادرته فان شيئا في سلوكه او تصريحاته لم يفضح ما كان بداخله. بالعكس. لقد اعلن انه «راض مائة بالمائة»، وقال وهو ينفث دخان غليونه في طريق عودته «يكفي ان تروا ما حدث خلال ٤٠ ساعة. هل خطر ببال أحدكم يوما ان يستقبل السادات استقبال الابطال في اسرائيل»؟

وكان هناك استقبال ابطال ايضا في بلده. فعندما هبطت طائرته في القاهرة كان طريق الـ ١٢ ميلا الذي يصل من المطار الى مقره بالجيزة يضج بسيمفونية صوتية مرئية متعددة الالوان شارك فيها عشرات الآلوف من المصريين بالهتاف والزغاريد والابواق والمزامير والطبول والنايات والحمامات الطائرة واغصان الزيتون واوراق الورد بينما السادات يطوح برأسه ويلوح بيده في جلال ملكي من سيارته المرسيدس السوداء المكشوفة، تتقدمها كوكبة من فرسان الدراجات البخارية وحرسه الخاص.

الفصل الثالث:

العرض مستمر على الطريق

كان الليل قد أزف عندما وصل «بطل السلام»! الى ميدان التحرير. وبعد فاصل من الصياح المتبادل بين رجال الأمن وطاقم التلفزيون المكون من حسن والمصور وانا استطعنا ان نجد لأنفسنا مكانا آمنا على جانب من احد الممرات العلوية للمشاة التي تحيط بالميدان. وبفضل قوات الأمن وتدابيرها المحكمة منع المارة من دخول الكباري العلوية تاركين لاطقم التلفزيون والمصورين والصحافيين فرصة كافية للمناورة والتقاط افضل المشاهد واللقطات من احسن الزوايا لتسجيل الاستقبال الحاشد.

وعندما أهل الموكب اخيرا قادما نحونا ببطء كانت اضواء مصابيح الدراجات النارية وانوارها الكاشفة هي وحدها التي تنبعث منها الأنوار منعكسة على لافتة كبيرة كتب عليها بالخط العريض «مرحبا بحبيب الملايين». اما عن الجماهير ذاتها ومعظمها جيء بهم مشحونين في الباصات من الارياف فكانوا يهتفون «بالروح بالدم.. نفديك يا سادات». وكان حماسهم في جزء منه تلقائيا، وفي جزء آخر مدبرا من جانب الادارة، وبمساعدة وسائل الاعلام. وباعتباري واحدة من العاملين في حقل الاعلام فقد استطعت ان أرى في تلك الساعة رجلا داكن الوجه في سترة داكنة اللون في سيارة داكنة السواد يلوح في الظلام بيده للآلاف المهللين المحتشدين في طريقه وهم يزأرون بالهتافات. واعجبتني الصورة الحية خصوصا عندما بثت بالتصوير البطيء.

غير ان مراسلي التلفزيون المكلفين بالتغطية من الشارع لم يكن في وسعهم ان

يستمتعوا بترف التفكير مليا في حبكة قصة السلام. فباعتباري عضوا في فرقة الفدائيين العاملين بشاشة الفيديو كان لدي موعد مع الارسال لا استطيع التخلف عنه، ومعركة مع حركة المرور. وقد كان الوقت مساء عندما وصل الرئيس المصري الواعي بدور الاعلام الى القدس حتى لا يصطدم بيوم السبت، عطلة اليهود التي تنتهي لحظة مغيب الشمس. وكان موعد عودته للقاهرة قد دبر بعناية حتى يصل قبل حلول الظلام مراعاة لظروف ابناء بلده من ناحية، وحتى يتاح اذاعة انباء وصوله على شاشات التلفزيون الاميركي في برنامج نشرات المساء. ولكن الاستقبال الحافل عطل السادات في الطريق من المطار لمقره، فلم يعد امامنا سوى تغطية ليلية للقصة، وعلينا الان ان نناضل حتى آخر نفس كي يمكن اذاعتها في نشرة السادسة من مساء يوم الاثنين بالولايات المتحدة.

اما عن استقبال السادات فلم يخرج اليه العشرة ملايين مصري من سكان القاهرة كما زعم البعض. ولا حتى خمسة ملايين كما قال السادات اكثر من مرة. ولكن الجمهور الموجود كان كافيا لاقامة جدار صلب جعل عودة طاقم التلفزيون لمكتبهم الرئيسي في الموعد المقرر للاتصال بالقمر الصناعي مسألة مستحيلة. ومرور السيارات في شوارع القاهرة - حتى في أهدأ الاوقات - مغامرة صعبة لا يحكمها رجال المرور ولا الاشارات الملونة. اما في اوقات الذروة فيصبح مسألة حياة او موت، بين الانسان والقدر. ولا حل الا ان يسلم المرء نفسه لله وحده. ولا جدوى هنا من القلق او الصراخ او التوسل او الشتم او التعقل. ومع ذلك فالمرء يصل الى غايته في النهاية. ولقد وصلنا بالفعل في ذلك المساء من يوم ٢١ نوفمبر سنة١٩٧٧ لأننا هنا كان لا بد ان نصل، ولأن هذا عملنا الذي نتقاضى عليه اجورنا في آخر كل شهر، ان نحصل على الخبر ونصوره ونعلق عليه ونبث به لاذاعته. وكل وسيلة تمكننا من ذلك مشروعة مقبولة عدا القتل او خرق القوانين.

وهكذا بعد ميل واحد قطعناه في ساعة كاملة حملتنا حركة المرور بالقاهرة الى مكتبنا. ولا تسل كيف وصلنا. غير انه من حسن الحظ ان الاعتماد لم يكن قاصرا على الصور الملتقطة للموكب في ميدان التحرير الذي كان غارقا في الظلام. كان هناك اطقم اخرى قدموا من الولايات المتحدة واوروبا، واتخذوا اماكنهم في مواقع متفرقة على طول الطريق وقد عادوا الآن الى المكتب ومعهم حصيلتهم من المشاهد، كما كانت هناك اطقم اخرى انطلق افرادها الى شوارع القاهرة قبل وصول السادات وجمعوا كما لا بأس به من المشاهد الكافية لتزيين تقريرنا الذي جرى كما يلي:

هذه هي دروين كايز من القاهرة:

بدأ اليوم بالنسبة لمعظم المصريين بنظرة فاحصة الى الصحف التي صدرت صفحاتها الاولى بعناوين بارزة عن كلمتي السادات وبيجن في الكنيست، الأمر الذي هيأ المناخ

منذ وقت مبكر للحظة عودة السادات الى وطنه. وأخذ التلفزيون المصري يذيع كل شيء على الهواء منذ ما بعد الظهر لكي يجعل المشاهدين يلاحقون الحدث حتى لحظة وصول السادات. ومع العصر كانت مئات السيارات المحملة بأطفال المدارس، ولافتات الترحيب واغصان الزيتون تتدفق استعدادا للحظة الكبرى. (فاصل - قطع على الاطفال وهم يهتفون «السادات.. السادات» لمدة ٣ او ٤ ثوان.

كذلك كان آلاف من قوات الأمن ورجال الشرطة يستعدون، وقبل ساعات من الموعد المقرر لوصول السادات بدأ الناس يتجمعون على طول الطريق المنتظر ان يمر به الموكب في قلب العاصمة. وكان من الصعب ان نجد شخصا واحدا لا يوافق السادات على مبادرته السلامية. ولقد أوجز طالب مصري بجامعة القاهرة التعبير عن مشاعر الاغلبية الساحقة للشعب المصري، سواء كانوا فقراء او اغنياء، متعلمين او غير متعلمين.. (قطع على لقاء مع رجل بالشارع لمدة ٢٣ ثانية).

وانتظرت الجماهير وصول السادات حتى بعد ان حل الظلام. وكان استقبالا حافلا بمعنى الكلمة. وكما قال لي احد المستقبلين: «لم نكن نحلم ابدا بأن يأتي يوم يذهب فيه رئيسنا الى القدس».

واستغرقت قصتي ٩٠ ثانية.

* * *

وهكذا خطفت الحلقة الاولى من المسلسل التلفزيوني بعنوان «السلام.. اجازة آخر الاسبوع في القدس، بطولة انور السادات»، انظار الملايين في العالم اجمع، وتمكنت بالذات من قلوب الاميركيين والمصريين، الجمهور الاساسي للنجم المصري الجديد. ولما كانت الشبكات التلفزيونية الاميركية «ايه. بي. سي» و«سي. بي. اس» و«ان. بي. سي» - وليس وزارة الخارجية ولا البيت الابيض - هي التي ساعدت على اعداد المسرح للدراما. فقد كان لزاما علينا ان نواصل العرض حتى النهاية، المجيدة او المأساوية. ففي اللحظة التي استأجرنا فيها طائرة خاصة، وما اكثر ما ركبت اطقم التلفزيون الاميركي طائرات خاصة مستأجرة منذ ذلك اليوم، كنا مثل السادات قد اتخذنا طريقا لا عودة منه. فلم يكن من المستطاع ان تخفت اضواء مسلسل «اجازة آخر الاسبوع في القدس» او يركن للنسيان مثل أي فيلم قديم من الدرجة الثانية من افلام هوليود، ليعود فيعرض في دور السينما الصيفية كواحد من ٣ افلام في العرض الواحد. وانما كان من الضروري ان يظل مادة تلفزيونية حية نابضة دائماً بالاثارة، وموضوعا للمنافسة بين شبكات التلفزيون.

ومن حسن الحظ، او ربما من سوئه - ان السادات نفسه كان في صدر شبابه يريد ان يصبح ممثلا محترفا. ولقد ظهر مرة على احد مسارح القاهرة وهو طالب، قبل سنوات من مشاركته في الاطاحة بالملك فاروق والاحتلال البريطاني ودخوله عالم الدراما والاثارة الحقيقية. وقال هو عن نفسه انه كممثل كان يفضل القيام بالادوار

الكوميدية. ولقد كان من الضروري ان يشاهد المرء المسرحية حتى النهاية قبل ان يحكم ما اذا كان آخر دور قام به السادات يدخل في باب الكوميديا او المأساة. ولعلي كنت اتوقع ان تقوده موهبته الفطرية في كل من الضربين الى نوع من الآداء المأساوي الكوميدي. والواقع انه لما كان من هواة مشاهدة افلام الغرب الاميركية، ورئيس تحرير سابق لصحيفة يومية فانه كان يتمتع بحاسة خاصة تجعله يدرك القصة الجيدة عندما يراها. والان ها هو يقوم بنفسه بالدور الاول في المسرح الدبلوماسي، او فلنستعمل تعبيره الشخصي المفضل «دبلوماسية الصدمة الكهربائية». ولما كان التلفزيون كأداة اعلامية هو الاسلوب المختار لنقل رسالته، فقد كان هناك الى جواره مئات الممثلين في القاهرة وتل ابيب، فضلا عن العاملين في مركز الانتاج الرئيسي في واشنطن ونيويورك. والحق ان السادات كان يملك كل مؤهلات النجم القيادي، كما كان الشعار الذي رفعه، «السلام»، شديد الجاذبية.

واعترف اننا، اهل التلفزيون، وجدناه شخصا لا يقاوم، تماما مثلما وجدنا هو. وقبل ان تمر السنة كان الاعجاب المتبادل قد تحول الى ضرب من الهوى الجارف وتبادل مناورات العشاق. ولكن فيلم اجازة آخر الاسبوع في القدس بكل ما يحمله من مشاعر رومانسية ومتعات محرمة لم يكن في نظر افراد الاسرة العربية الآخرين - اسرة السادات - سوى اجازة ضياع. فالسادات بذهابه للقدس واعترافه الضمني باسرائيل بدون اي ضمان لشيء في المقابل كان بالنسبة اليهم خائنا لهم وللقضية العربية التي تطالب بالجلاء عن كل الاراضي التي تحتلها اسرائيل واقامة وطن قومي او كيان مستقل للفلسطينيين المشردين.

من هنا فان ما حدث كان بمثابة صدمة، وكان رد الفعل عنيفا وغاضبا من جانب الاسرة العربية التي كان السادات بحكم رئاسته لأكبر واقوى البلدان العربية يعتبر - ولو من الناحية الاسمية - قائدا لها..

ومن هذا المنطلق اخذ الفلسطينيون في لبنان وسوريا يفجرون القنابل ويحرقون الاطارات وصور السادات في الشوارع ويعلقون على الجدران ملصقات تصور السادات وهو يرتدي قبعة العم سام فوق رأسه ويضع رقعة موشي دايان على عينه. وفي طرابلس احرق الليبيون علم الاتحاد المصري الليبي ومكتب العلاقات المصري، بالاضافة الى قطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر في اللحظة التي هبطت فيها طائرة السادات على ارض مطار بن جوريون. وفي دمشق ارتفعت دعوات المؤذنين من فوق مآذن المساجد تلعن السادات في الحل والترحال، واعلن يوم حداد رسمي في جميع انحاء سوريا ونكست الاعلام. وفي العراق اعرب العراقيون عن غضبهم في برامج الاذاعة التي تنبأت بأن ايام السادات قد اصبحت معدودة. وجرى نسف السفارات المصرية في اربع عواصم على يد جماعات عربية. وفي طرابلس بالذات سويت السفارة

المصرية بالارض.

اما بالنسبة لياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية والذي كان ضيفا على السادات منذ ايام قليلة فقد قطع ما بينه وبين السادات الى الابد فلم يتبادلا كلمة او ير احدهما الآخر منذ يوم الزيارة. ولم يبال السادات بغضب «صديقه العزيز عرفات» كما اعتاد ان يسميه، بل لم يرد اسمه او اسم منظمة التحرير على لسانه اثناء خطابه بالكنيست - وقيل ان هذا كان بناء على طلب من الاسرائيليين.

ومع ذلك فقد كان السادات مهتما جدا بردود الفعل لدى السعوديين الاكثر قوة ونفوذا في العالم العربي، وان كان لم يحاول ان يتصل بهم مقدما قبل الزيارة. وبدا واضحا ان السعودية لا تتوقع شيئا يذكر من وراء مبادرة السادات السلامية. وقد وصفتها علنا بأنها وضعت العالم العربي في وضع محفوف بالمخاطر. والظاهر ان السادات كان يتوقع من السعودية ان تؤيد مبادرته، وكان يفضل - من وجهة نظره ان تكون اكثر «شجاعة». ولكنه في نفس الوقت كان يقدر وضعها الحساس ازاء منظمة التحرير الفلسطينية والفلسطينيين والاماكن الاسلامية المقدسة وخاصة القدس العربية. اما بالنسبة للاردن. فلم يؤيد ولم يستنكر، وانما اكتفى الملك حسين باتخاذ موقف «فلننتظر حتى نرى».

والحق ان مخاوف الاسرة العربية كانت ناجمة عن توقعهم ان ينتهي الامر بالسادات الى ان يعقد صلحا منفردا مع بيجن، يبيع فيه سائر العرب والفلسطينيين في سياقه. وكان تخوفهم هذا مفهوما وله اسبابه، لانه على الرغم من قول السادات ان زيارته للقدس لم تكن سوى مجرد «تسخين» لعقد مؤتمر جنيف (وربما ساخنة اكثر مما يجب الى حد تفجير المؤتمر)، الا انه لم يكن يقل عن بيجن عزوفا عن الذهاب لجنيف واستئناف انعقاد هذا المؤتمر. فجنيف بالنسبة للسادات كانت تعني عراقيل اجرائية لا نهاية لها حول من يمثل الفلسطينيين في المحادثات. هذا فضلا عن وجود السوفيات في المؤتمر كطرف له رأيه في النتيجة. والسادات كان نافرا كل النفور من السوفيات. وقد استبعدهم تماما في محادثات فك الاشتباك الاولى في ١٩٧٣، ولم يكن يرغب بحال من الاحوال في اشراكهم في صياغة اية عملية سلام شامل في الشرق الاوسط. اما بالنسبة لرفاقه العرب، الذين انقسم رأيهم بين معسكري المتشددين والمعتدلين، فقد كان السادات مقتنعا ان خلافاتهم التي تغذيها سوريا والاتحاد السوفياتي قد تطيل عملية السلام الى ما لا نهاية. (كان بيجن ايضا يخشى ان يحاصر بواسطة المتشددين من العرب، وبتأييد من السوفيات في جنيف، الى حد قد يضطره الى الرضوخ لحل يفرض عليه، اي حل يضع في اعتباره قضية الفلسطينيين كقضية اكبر من مجرد قضية لاجئين).

السادات اذن لم يكن يريد ان ينتظر طويلا. كان ما يريده هو السلام الآن.

فمصر، وقد بلغت ديونها الاجنبية نحو ١٥ مليار دولار اصبحت في حاجة ماسة الى السلام الأن والا فلن يستطيع السادات ان يبقى في السلطة. ومع ان كبرياء السادات كان يمنعه من الاعتراف بهذه الحقيقة علنا، الا انه ومساعديه كانوا يعترفون سرا بأن حالة الفقر المدقع التي تفتك بمصر، والمليون فم جديد المطلوب اطعامهم سنويا - هذا هو الذي دفع بالسادات الى القدس. فمظاهرات الاحتجاج على زيادة اسعار المواد الغذائية في ١٨ و١٩ يناير من ذلك العام والتي سماها السادات «انتفاضة حرامية» تمت بتحريض وتدبير من السوفيات، كانت في الواقع انتفاضة شعبية قامت بها جماهير القاهرة والاسكندرية من اجل اهم قضية في حياتهم وهي طعامهم اليومي. وكان عود الثقاب الذي اشعل النار هو اعلان الحكومة عن اعتزامها الغاء الدعم على بعض السلع الغذائية والاساسية فهو الذي اثار المظاهرات واعمال الشغب التي قتل فيها عدة مئات من المصريين، والتي اثارت الرعب في قلب السادات خوفا على نظامه. وقد جاءته معونة عاجلة مشتركة من السعودية واميركا قوامها خمسة مليارات ونصف مليار دولار. ولكن الصدع كان اعمق غورا وكان يتطلب عملية جراحية عاجلة للاقتصاد المصري الذي ينفق مليارات الدولارات سنويا على الدعم السلعي.

* * *

كان الوقت يمر بسرعة. وتوصل السادات الى قناعة مفادها ان العرب لن يستطيعوا ابدا الحاق الهزيمة باسرائيل، وان نفقات الدفاع في حالة اللاحرب واللاسلم منذ ١٩٧٣ تلتهم سنويا نحو ٣٠ بالمائة من الميزانية المصرية.. وبناء على هذا المفهوم، لم يكن أمام السادات فرصة كبيرة للاختيار. وهكذا اقدم على مخاطرته السياسية الكبرى، ملتمسا بديلا سريعا عن مؤتمر جنيف.

كانت زيارته للقدس مقامرة بكل المقاييس. ففي اللحظة التي قام بها اصبحت رأسه مطلوبة، واصبح هدفا للاغتيال في العالم العربي بأسره وليس في مصر فقط. ولكنه - مثل سائر القادة العرب - اذا كان يحس انه مهدد دائما بالاغتيال فانه - كأي مسلم كان يؤمن بالقدر. واذا كان هناك احد يريد قتله «فلا الفلسطينيين» كما كان يقول، ولا القذافي يمكن ان يحرمه من ساعة واحدة من عمره.. لأن الأعمار «بيد الله وحده».

ومع ذلك فقد ضوعفت شبكة الحراسة المحيطة بالسادات بشكل ملحوظ منذ لحظة عودته من القدس. وفي نفس الوقت رصد الاميركيون ٢٥ مليون دولار لتأكيد حماية السادات ضد الاغتيال.

اما عن الولايات المتحدة فمع انها فوجئت بمبادرة السادات الجسورة الا انها لم تكن تستطيع الا تأييدها، خصوصا وان السادات كان دائما يردد ان واشنطن تملك

بين يديها ٩٩ بالمائة من اوراق اللعب في الشرق الاوسط.

ولكن الاميركيين من جانبهم لم يكونوا اميل الى الصلح المنفرد من سائر العالم العربي. وقد ازعجتهم كثيرا طريقة السادات في المزج بين العمل السياسي والنزعة الاستعراضية، وكانوا يعربون سرا عن ان هذه الطريقة كفيلة بافساد كل شيء واغراق الجميع اكثر فاكثر في مستنقع الشرق الاوسط.

وهكذا، فان فيلم «اجازة آخر الاسبوع في القدس» في الوقت الذي احدث فيه ضجة لا حد لها في مصر واسرائيل واميركا، وربما اضفى مزيدا من البريق على المستوى الرسمي، الا انه لم يكن في الواقع يعني ان السلام بات في متناول اليد. ولعله ببساطة لم يكن يعني اكثر مما عبرت عنه سيدة اسرائيل العجوز جولدا مائير بقولها «ان كلا من السادات وبيجن يستحقان جائزة الاوسكار» تقديرا منها لادائهما الهوليودي الممتاز.

والآن، والعالم كله تحت قدميه، وأطقم التلفزيون الاميركي واقفين ببابه، ما كان للفائز بجائزة اوسكار جولدا مائير ان يحتمل مطالبة منظمة التحرير الفلسطينية برأسه. ولذلك فسرعان ما تخلص من وجود المنظمة على الاقل في مصر. وكان هذا هو موضوع رسالتنا من القاهرة يوم ٢٢ نوفمبر. وان كان السادات نفسه لم يظهر في الصورة. ففضلا عن انه كان منهكا بعد رحلة السلام، فانه لم يكن مستعدا لابتذال صورة «بطل السلام» بالظهور بنفسه امام الكاميرات في مثل هذه المناسبة. ولما كانت حكومته لا زالت بدون وزير خارجية بعد استقالة اسماعيل فهمي ومن بعده محمود رياض، فقد ترك الأمر لوزير الخارجية بالوكالة، بطرس غالي، ليقوم بالدور الاول على الشاشة في مصر وفي الخارج.

وهكذا تدفق عدد كبير من ممثلي الصحافة والاذاعة والتلفزيون بالعالم في ذلك اليوم على مبنى وزارة الخارجية العتيق القائم في وسط القاهرة على مقربة من مكتب تلفزيون «اي. بي. سي» كما كانوا دائما - على مدار الاربع وعشرين ساعة ومرهقين في معظم الاحيان - مرابطين على الباب في انتظار اية فرصة لالتقاط مشهد جديد من المسلسل بعد زيارة القدس.

كان غالي، الهادىء الى حد البرود، بقامته الضئيلة ونظراته المركزة المميزة له كمثقف اكاديمي والتي تكملها عوينات سميكة الاطار شخصية مناقضة تماما من حيث الشكل للسادات الصاخب الى حد الصياح. ثم ان غالي - كناطق رسمي كان يجيد الفرنسية اكثر من الانجليزية، ولم يكن يرتاح كثيرا الى الوقوع في بؤرة الاضواء، كما ان القاءه كان أبعد ما يكون عن الفصاحة او اداء الممثل الموهوب او رجل التاريخ. باختصار، لم يكن «الدكتور بطرس» كما تعودنا ان نناديه وجها تلفزيونيا جيدا. والحق يقال انه شخصيا لم يكن يبالي كثيرا بأن يظهر كوجه

تليفزيوني جيد او سيء. ولذلك فلم يكن السادات يخشى ابدا من ان يصبح منافسا له سواء سياسيا او مسرحيا.

وهمس في اذني احد المصورين قائلا «من المؤلم اننا لا نستطيع ان نجد السادات في كل المناسبات». قلت له «انتظر فسوف استخرج من غالي شيئا افضل». ولكن ما حدث كان مخيبا لكل الآمال. ففي وسط كل هذا الحشد من رجال الاعلام والمراسلين خرج غالي مسرعا في الدهليز بين المكتبين، وكان كل ما قاله وهو يزن كل كلمة بمقدار «لا... تعليق»... قالها باللغة الانجليزية، ثم الفرنسية، ثم العربية، واختفى خلف الباب المغلق.

وكان العزاء الوحيد ان الشبكتين المنافستين، «سي. بي. اس»، و«ان. بي. سي» لم يحصلا على قصة أفضل. وكانت ضربة منظمة التحرير الفلسطينية قد وقعت في وقت متأخر من ذلك اليوم الأمر الذي اصبح هو النموذج المعتاد مع تطورات قصة السلام،. غير اننا، مع ثلاث لقطات للقاءات بطرس غالي مع سفراء الدول الاعضاء بالجامعة العربية في نفس المساء تمكنا من ارسال قصة من ٤٥ ثانية لتأخذ مكانها البارز في نشرة الانباء.

وهكذا، كما قال احد زملائنا المراسلين، «لعلنا نستطيع بين كل يوم وليلة ان نعطي ٤٥ ثانية من الارسال التلفزيوني».

غير ان افتقار بطرس غالي الى «الوجه التلفزيوني» لم يقلل من الاهمية السياسية لنبأ طرد منظمة التحرير من مصر، وكان هذا أهم بكثير من محاولات غالي اقناع السفراء العرب بأن مصر لم تبع القضية العربية.

ومع ذلك، فان ما فاتنا قوله خلال الـ ٤٥ ثانية هو المغزى الحقيقي للطمة السادات لمنظمة التحرير ولوجودها في القاهرة من زاوية موقف مصر من العلاقات التقليدية والمستقبلية من «الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني»، كما جاء في قرارات قمة الرباط عام ١٩٧٤، وما تعنيه في الواقع مبادرة السادات بالنسبة لقضية الشرق الاوسط ككل.

ولقد كنت اود لو طال وقت الارسال حتى اقول قصتي كاملة. فمعظم المراسلين يتمنون لو ان وقت البرنامج ـ انباء المساء ـ كله وهو ٢٢ دقيقة خصص لقصتهم دون غيرها، وذلك من فرط احساس الواحد منهم بأهمية خبره، او أهمية ذاته، خصوصا وان طبيعة العمل في التلفزيون امام الكاميرا تعني ان المراسل في مجال الصحافة الالكترونية يعيش في عمله فترة اطول كلما اتيح له ان يرى اكثر، ويبلغ انباء اوفى.

ولما كنت قد نشأت اصلا في التلفزيون الكندي الاقل شأنا ومكانة في المنافسة مع الشبكات الاميركية الثلاث العملاقة فقد كنت تواقة الى الظهور اكثر وقت على

الشاشة، بقصص اكثر جاذبية للمشاهدين حتى اثبت وجودي. وكنت ادرك ان وجود المراسل على الشاشة لا يكون مطلوبا او مرغوبا الا في خمس حالات:

أ - اذا كان - او كانت - لديها اضافة للنبأ المروي ولا تريد ان تقلل من وقعه بمجرد سرده على لسان المذيع مع الصورة.

ب - اذا لم يكن هناك صورة اصلا يمكن ان تعبر بشكل مرئي عن الحدث.

ج - اذا كان مقدم البرنامج يريد ان يؤكد او يسلط الاضواء على وجود المراسل او المراسلة في موقع الحدث خصوصا اذا كان الحدث من نوع الكوارث الطبيعية او الاغتيالات او الثورات او الحروب او ما اشبه.

د - اذا كانت شبكة التلفزيون قد انفقت كثيرا من المال والجهد والوقت من اجل وضع مراسلها في موقع الحدث وتريد ان تقول للمشاهدين «اننا هنا».

ه - واخيرا عندما يكون المراسل منفردا بالنبأ، فهو في هذه الحالة يستحق ان يكافأ بابرازه على الشاشة، فالمناسبة تتطلب ذلك لان الاختفاء وراء الكاميرا قد يعني عدم الثقة في صحة النبأ.

وهكذا فقد تذكرت جيدا الاثر الايجابي او السلبي الذي تتركه ظهور صورة المراسل على الشاشة وهو يذيع نبأه على الهواء عندما وجدت على مكتبي في صباح اليوم التالي لتغطية خبر منظمة التحرير برقية بالتلكس تقول:

«تحية لك يا كايز وشكرا على اول ظهور لك على الشاشة ونتطلع الى المزيد من اطيب التمنيات. ويستين».

* * *

اذن، فها انذا بعد خمسة ايام فقط من وصولي للقاهرة واربعة تقارير متتالية اتلقى اول اوسمة البطولة لعمل لم يكن من الناحية العملية اكثر من اداء دور عابر سبيل. فالتقارير الثلاثة الاولى عن زيارة السادات للقدس كانت موغلة في الدراما الى حد لم يسمح للمراسلة التي هي انا، بالظهور على الشاشة. ولكن قصة طرد المنظمة من مصر كانت ضعيفة نسبيا وبالتالي فقد اتاحت لي فرصة ظهور صورتي «البكر» في نشرة المساء.

ولقد كان من الطبيعي ان يسعدني ذلك الرضا «السامي» من جانب ويستين مسؤول برنامج «أخبار المساء». فالدي لا شك فيه ان ويستين عندما انفجرت قصة السلام على هذا النحو المثير في الشرق الاوسط قد ساورته بعض الشكوك فيما اذا كانت المراسلة التي اختارها من اسابيع قليلة لترأس مكتب القاهرة وهي انا ستكون قادرة على ملاحقة أكبر قصة شهدها الشرق الاوسط منذ عشرات السنين. ولكن بالرغم من اني وجدت نفسي في منافسة حادة مع مراسلين اكثر خبرة فقد كنت

ادرك انني في وضع من القي به فجأة في خضم البحر، فاما ان يغرق او يعوم، ولم اكن اجد وقتا للقلق حول ما اذا كنت اصلح لهذا العمل او لا اصلح له.

فالقصة التي اغطيها قد تلقت قوة دفع هائلة بحيث لم يعد المرء يستطيع الا ان يلاحقها وينجرف معها. ولقد فعلت ذلك، وساعدني فيه طاقم ممتاز بقيادة المخرج المسؤول بيت سيمونز وهو من اقدر العاملين في مجال تغطية الاحداث في مواقعها.

واذا كان ويستين قد اصبح لا يشك في قدراتي فان سيمونز كان على العكس. ولقد كان من بين المواهب التي يتميز بها سيمونز قدرته على استهلاك كميات لا حدود لها من شراب البيرة دون ان يفقد توازنه. واذكر انني في ذلك المساء دعوته الى تناول قدح من البيرة في بار فندق هيلتون وكان لا يزال صامدا بعد ان شرب الجولة الاولى من كؤوس استيلا، وهي من احسن المنتجات المصرية، ولكنه مع الجولة الثانية بدأ يفقد تحفظه فاخذ يردد بغير رحمة:

- لن تستطيعي المضي في هذه المهمة. انا لا ادري كيف فكر هؤلاء المجانين في اختيارك لهذا المكان. هنا ليس اميركا او اوروبا. ان العالم العربي مكان بالغ القسوة بالنسبة لاي رجل غربي متمرس فكيف خطر ببال هؤلاء القوم ان يرسلوا له امرأة؟

تركته بتكلم طالما يحس ببعض المتعة بعد اشتباك مرهق مع القمر الصناعي كاد يفقده عقله.

- ثم انك لا تحسنين الكتابة وشعرك داكن جدا بالنسبة للتلفزيون ربما يكون افضل لو صبغته بلون فاتح حتى نستطيع التمييز بين شعرك الاسود وسماء الليل المظلمة.

وفي هذه اللحظة وبينما انا اتوقع ان ينهي ملاحظاته القاسية طلب زجاجة اخرى من البيرة وكأنما قرر اخيرا ان يكون اكثر رأفة فاضاف:

- انا لا الومك وانما الوم اولئك العباقرة في نيويورك لايفادهم امرأة مستجدة مثلك لتغطية قصة تنذر بان تثير اكبر ضجة في العالم لعدة شهور مقبلة. ومن؟ امرأة من اعلى الرأس حتى اخمص القدم!

ثم عاد يؤكد انه ليس مجرد رجل متعصب لجنس الرجال قائلا:

- على الاقل انا لا اظن نفسي كذلك وانما انا اتحدث لمصلحتك. لا تمكثي هنا بالقاهرة. اطلبي منهم ان ينقلوك الى لندن او الى اي مكان آخر. ولكن بحق السماء افلتي بجلدك من هذا الجحيم المجنون.

- هل انتهيت؟

- اجل.. انتهيت.

- اذن فاسمعني، لانني الان سأبدأ في الكلام. هل تريد ان تعرف لماذا اوفدوني الى القاهرة؟ سأقول لك. ولكن عليك ان تطلب الان زجاجة اخرى او زجاجتين

لانك ستحتاج لذلك بالتأكيد.

وبدأت اتكلم وانا احس بداخلي يرتجف من فرط الغضب:

- اولا: لقد استخدمني ويستين بالتحديد لاني فعلا صحافية جيدة ولانني اعرف كيف اكتب قصة جيدة ولاني ايضا قارئة نهمة واستطيع ان اصوغ اي خبر كأحسن ما يكون.

وثانيا: لان قصة السلام عندما كانت لا تزال مجرد خاطر في ذهن السادات كان عملي ينحصر في مجرد كتابة تقارير وتحقيقات دورية عن الحياة في القاهرة بالاضافة الى اية انباء جديدة ساخنة اذا حدثت، وعندما تحدث، واذا كانت تستحق الارسال بالقمر الصناعي.

وثالثا: في مكتب كهذا ليس به مخرج دائم مخصص له، كان ويستين لا يحتاج فقط الى مراسل يكتفي بارسال الانباء وانما يريد مراسلا يعرف كيف يخرج النبأ ويصوغ منه قصة تلفزيونية. وهذا ما كنت افعله على مدى العشر سنوات الماضية. ولذلك فقد لجأ اليّ.

واما عن كوني امرأة في هذا العالم العربي الخشن الذي لا يكاد يعترف بوجود غير الرجال فاني اعتقد انك تعيش في وهم نسجته انت من خيالك. ومثلك في ذلك مثل معظم الناس في الغرب. ويبقى بعد ذلك انك تريد في هذا العمل شقراء يكاد شعرها يضيء في ظلمة الليل وفي هذه الحالة اولى بك ان تستخدم فرح فاوست.

قلت كل هذا بينما كان سيمونز ينتقل شيئا فشيئا الى حالة انعدام الوزن، ورغم ذلك فقد طلب زجاجة خامسة او سادسة دون ان يبدو عليه انه سمع كلمة واحدة مما اقول. غير اني اضفت كأنما احدث نفسي.

- فلنترك الحكم للمشاهدين هناك ليقولوا ما اذا كنت اصلح لهذا العمل او لا. اليس المشاهدون في النهاية هم الذين نعمل من اجلهم؟

وكانت هذه الجملة كافية لانفجار سلسلة من اللعنات فوق رؤوس المشاهدين.

- تقولين المشاهدين؟ انت تعيشين في حلم كبير يا سيدتي، في وهم اسمه المشاهدون. هل تتصورين حقا انك تعملين من اجل ارضاء هؤلاء؟ ها... ها... افيقي يا سيدتي... افيقي! انما انت وانا وكل الحثالة التي هنا نعمل لارضاء شخص واحد هو روني ارليدج رئيسك ورئيسي. اما المشاهدون فان يسعدوا او لا يسعدوا بما تقدمين فلا اهمية له بالمرة مهما فكرت فيهم، وارجو الا تنسي ذلك.

وبهذه الملاحظة الحادة انتهى حديثنا واغلق البار ابوابه وانا اعاني من القنوط، وسيمونز ايضا يعاني من كثرة ما شرب من البيرة وحدة ما سمع مني...

وافترقنا عند المصعد هو ليستعد لليوم الجديد، وانا لافكر لحظة ما اذا كان افضل لي ان انتحر بالقفز من شرفتي الى احضان النيل.

وعلى مدى الاسبوعين التاليين تلقيت هذه البرقيات على التوالي.

انت تفعلين اشياء عظيمة.. استمري في نفس المستوى - مع اطيب التمنيات.

٦ ديسمبر - توقيع ويستين

كايز.. لا زلت تواصلين عملا رائعا - وشكرا جزيلا.

٨ ديسمبر - توقيع : ويستين

ثم هذه البرقية:

عزيزتي دورين:

اني سعيد جدا بما تفعلين وسعيد اكثر بوجودك في مكانك، حافظي على هذا المستوى الرفيع. مع اطيب تحياتي وتمنياتي الشخصية.

٩ ديسمبر - توقيع: روني ارليدج.

واحتفلنا.. سيمونز وانا.

* * *

ومع عودة السادات للقاهرة لم يعد مكتبنا في شارع رمسيس تلك الواحة المعهودة من الهدوء والنظام. وانما اصبح صورة مصغرة من المدينة الصاخبة التي تكاد تنفجر من فرط الزحام. وكان واضحا اننا اذا كنا نريد ان نواصل تغطية قصة السلام وايواء اكثر من عشرين شخصا يعملون وراء الاخبار فاننا نحتاج الى مكان اكبر من الحجرات الثلاث، واجهزة اكثر فاعلية من هاتف أحمر يكاد لا يفيق من غيبوبة مستمرة، وجهاز تيكر واحد (رويتر) يتوقف اكثر مما يعمل، وجهاز تيلكس وحيد مفتوح دائما على لندن او نيويورك.

وفي اليوم التالي مباشرة لارسال رسالتي الاخيرة تلقى سيمونز تفويضا على بياض لاصلاح الموقف. وفي الحال هجرنا مكتبنا المتواضع في شارع رمسيس الى جناح فاخر في فندق الميريديان.

والان ها نحن نطل على كورنيش النيل على مرمى حجر من قصر الرئاسة وفي قلب القاهرة وبالقرب من وزارة الخارجية وغير بعيدين عن مبنى تلفزيون القاهرة وسائر الوزارات والمصالح الحكومية واكبر فنادق القاهرة وايضا عنق الزجاجة في مرور القاهرة ومكتبنا القديم في شارع رمسيس.

كان المنظر الذي تطل عليه شرفتنا يضم قصر الرئاسة عبر النيل في الجيزة.

ولما كان فندقنا مقاما على طرف جزيرة الروضة في قلب النيل فقد حرص المهندس الذي وضع تصميماته على ان تكون جميع الحجرات مطلة على النيل، ومن خلفه بانورما رائعة للمدينة الضخمة.

وفي الشهور الاولى عقب رحلة السادات كنا نرسل يوميا رسالتين الى نيويورك بالقمر الصناعي المحجوز بالاقتسام بين الشبكات الاميركية الثلاث في مقابل ٣٠٠٠

دولار. وكانت الرسالة الاولى لبرنامج «صباح الخير يا اميركا» والثانية للنشرة المسائية.

ولما كان الطائر الليلي - هكذا سمينا القمر الصناعي - يمر بسماء القاهرة في الساعة الواحدة صباحا بتوقيت العاصمة المصرية، ولما كان من المفروض ان تعطي تقاريرنا آخر المعلومات، فان كثيرا من اللقطات التي كنا نصورها كانت تتم في اثناء الليل، حيث تبدو القاهرة وكأنها واحة من الاضواء في صحراء الظلام، وحيث ابدو انا وكأني فتاة بدوية في هذه الصحراء.

ورغم صعوبة الاتصال التليفوني في داخل القاهرة الا ان جهود زميلي سيمونز سهلت عملية الاتصال بنيويورك من جناحنا بالفندق فكانت تتم في دقائق معدودة. واصبحت مهمتنا اسهل، كما اصبحت علاقتنا، سيمونز وانا قائمة على تقدير متبادل اكبر.

* * *

ويبدو ان السادات ادرك في هذا الوقت ان أهل الاعلام الدولي في حاجة الان الى فترة لالتقاط الانفاس قبل ان يستأنف دوره معهم او يستأنفوا دورهم معه، فآثر ان «يهدىء اللعب» لبعض الوقت، وهو منكب على تدبير خطوته التالية خلف الجدران العالية لمقره بالجيزة الذي يتاخم - لفرط السخرية - مقر السفارة السوفياتية.

واما وقد انتهى بطرس غالي من معالجة موضوع منظمة التحرير فقد كان عليه الان ان يتحسس مواقف سائر العرب، على ضوء مبادرة السادات التي كان يقول انها مهدت الطريق اكثر لانعقاد مؤتمر جنيف، مع انه كان يدرك تماما ان مؤتمر جنيف لم يعد في الحسبان، وانه - وفقا للافكار التي عبر عنها في القدس قد نفض يديه منه الى الابد.

ولكن ردود الفعل العربية جعلته يدرك ان «القاهرة» لن تكون اكثر جاذبية من جنيف. ولذلك فان الامر يتطلب «صدمة كهربائية» اخرى.. وهكذا بعد يومين كان تلفزيون «اي. بي. سي» يذيع لي الرسالة التالية:

بعد اقل من اسبوع منذ قام بزيارته التاريخية لاسرائيل، عاد اليوم (٢٦ نوفمبر) - الى مجلس الشعب ليتخذ خطوة اخرى في طريق السلام.

وقد اذيع خطاب السادات - وهو الاول منذ اعلن عن استعداده للذهاب الى اسرائيل - على الهواء مباشرة من مجلس الشعب. واعلن فيه كما كان متوقعا انه سوف يواصل مسعاه من اجل تسوية في الشرق الاوسط. ومن ثم فهو يدعو كافة اطراف النزاع لكي يناقشوا معا قضية السلام هنا في القاهرة في موعد حدده يوم السبت المقبل - اذا امكن، في ما يمكن ان يعتبر بديلا عن محادثات جنيف. وما يريده السادات هو ان يبدأ هذا النقاش الدولي بأسرع ما يمكن وان يعطي ثمرته ايضا بأسرع

ما يمكن. وقد هاجم كل ناقديه وخاصة سوريا. ومع ذلك فهو يود ان يرى في القاهرة السوريين واسرائيل والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. ولكنه اوضح بغير غموض ان المحادثات ستبدأ وتستمر سواء بوجود الجميع او بغير وجودهم.

وقد رفضت سوريا الدعوة في الحال. اما عن تمثيل الفلسطينيين في المحادثات فقد اغلق الرئيس السادات الباب في وجه منظمة التحرير الفلسطينية ولكنه ابقاه مفتوحا لممثلين عن الضفة الغربية، الامر الذي لا شك سيسعد الاسرائيليين.

وما ان انتهى السادات من خطابه حتى توجه من فوره الى الاسماعيلية حيث احتشد بضعة الاف من مؤيديه لتحيته. ومن المتوقع ان يبقى السادات في الاسماعيلية معظم الاسبوع المقبل، قبل ان يعود للقاهرة في الوقت الذي حدده لاجتماعات السلام التي يقترحها.

كان رد الفعل لدى السادات، ازاء موقف العرب الرافض لمبادرته ما معناه «اذهبوا كلكم الى الجحيم». وبينما كنت أغادر مجلس الشعب مع طاقم التصوير أخذت اتساءل بيني وبين نفسي، من يمكن أن يستجيب لدعوة السادات (الى محادثات القاهرة) بعد أن وجه كل هذه الاهانات الى نصف مدعوية. غير اني ما لبثت ان ادركت ان هذا ليس هو المهم، على الأقل بالنسبة للسادات. وانما المهم انه عاد يحتل مكان الصدارة في نشرات الأنباء، يؤدي دور السلام، ويخطف الأضواء في وسط المسرح، محتفظاً بقوة الدفع، أو «المومنتوم»، تلك الكلمة الانجليزية التي كان يحلو له أن يرددها. ولكن محطة الأقمار الصناعية في قصر القبة لم تكن لسوء الحظ قادرة على ملاحقة «مومنتوم» السادات، ولا سرعة عملنا.

غير أن مبادرة السادات اذا كانت تدخل في باب المسرح التجريدي فان تغطيتنا التلفزيونية لها كانت من نوع الفودفيل الكلاسيكي، واحياء للمسرح الأميركي الكوميدي في عصره الذهبي، أيام أخوان ماركس وحواة الألعاب السحرية وما أشبه. أما نحن، الذين أخذنا نؤدي ليل نهار أدوارنا في مسرحية السلام في القصر - وهي أشهر مسرحيات الفودفيل في الثلاثينات، فقد كنا أشبه بمن يطيرون على متن بساط الريح. ولم تتغير أبداً طقوس العرض الجانبي الذي كنا نؤديه. ففي كل مرة كانت الرحلة من مكتبنا في وسط المدينة الى قصر القبة في شمال شرق القاهرة تقطع الأنفاس. ولقد كان قصر القبة واحداً من القصور الملكية الفاخرة التي لم يتح للكثيرين من أهل القاهرة أن يروه من الداخل لا في عهد الملك فاروق، ولا في عهد ناصر أو السادات. وهو قصر فخم بكل معنى الكلمة، يصلح تماماً لأن يكون متحفاً. ولكنه يستخدم الآن كقصر ضيافة لرؤساء الدول العربية حين زيارتهم لمصر.

أما لماذا حول أحد أجنحته الجانبية لكي يكون محطة للأقمار الصناعية تكريماً للرئيس الأميركي الأسبق نيكسون أثناء زيارته لمصر فهو سر لم يتح لنا أن نعرفه،

تماماً مثلما لم يتح معرفته للحراس المسلحين الذين يقفون على بابه.

وكنا في كل مرة نصل الى محطة قصر القبة لارسال تقاريرنا المصورة بالقمر الصناعي، نواجه بنفس كلمة «ممنوع» على أسنة حراب بنادق الحراس. وبعد التدقيق والتفتيش ومراجعة الأسماء والأمر بالابتعاد كأن أحد لا يعرفنا بعد ثلاثة أشهر من التردد يومياً تقريباً على نفس المكان، يسمح لنا أخيراً بالدخول، حيث نتنافس مع أطقم الشبكات التلفزيونية الأخرى، أينا يستطيع أن يسبغ على القصة الواحدة مزيداً من البريق والتزويق.

ولم يكن الاتصال يتم بسهولة. وكانت أعصابنا كثيراً ما تفلت من فرط الصياح في الهاتف المباشر لنيويورك أو اللعنة بسبب انقطاع الخط. ولكن الأمور تحسنت بعد عدة أشهر، استعداداً لتغطية أحداث أكثر اثارة. وبالتعاون مع هيئة الاتصالات اللاسلكية المصرية أمكن أخيراً توفير نظام أفضل للاتصال، نستطيع من خلاله التحدث بالميكروفون مباشرة الى كل من نيويورك ولندن وبالعكس على مدى الأربع وعشرين ساعة.

الفصل الرابع:

عيد الميلاد في الاسماعيلية

شهد شهر ديسمبر ١٩٧٧، مزيداً من تفاقم أزمة المرور بالقاهرة بسبب قدوم العديد من أصدقاء مصر الجدد، ورحيل عدد أكبر من الأصدقاء القدامى، ومع هؤلاء وأولئك كل الذين يحاولون معرفة وتغطية حركة الذاهبين والقادمين ومن الذي غادر ومن الذي لا يزال متشبثاً بالبقاء.

وفي طرابلس، عقدت منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا والعراق والجزائر واليمن الجنوبية وليبيا، مؤتمر قمة أطلق عليه مؤتمر «جبهة الصمود والتصدي». وكان أول ما فعله المؤتمر ان جمدت دوله العلاقات الدبلوماسية مع مصر. أما السادات، فقد أطلق على المؤتمر اسم «مؤتمر الصبية»، وبادر بطرد البعثات الدبلوماسية للدول الخمس من مصر بعد أن طرد ممثلي منظمة التحرير من قبل. وهكذا، غادر نحو ٣٠٠ دبلوماسي عربي العاصمة المصرية. وبينما كنا نغطي مغادرة الدبلوماسيين الجزائريين، دخلت في مشاجرة مع بعض رجال الأمن الجزائريين الذين تصدوا لنا وصمدنا لهم، وسيق بنا جميعاً الى مركز الشرطة الذي يواجه قصر السادات مباشرة في الجيزة، وهناك اعتذروا لنا، بعد أن حدث اتصال مع قصر الرئاسة. وكان تفسيرهم أنهم مستفزون وغاضبون الى حد ما بسبب ترحيلهم السريع. فهل نستطيع نحن أن نكون أكثر تفهماً وصبراً في المرة المقبلة؟ فأكدنا لهم اننا سنكون عند حسن ظنهم لو حدث وطرد الدبلوماسيون الجزائريون مرة أخرى!

وفي أعقاب العرب، جاء دور السوفيات، وسائر دول الكتلة الشرقية الذين لم يكن رأيهم في مبادرة السادات أفضل من رأي المتشددين العرب.

ثم أصدر السادات قراراً باغلاق جميع المراكز الثقافية السوفياتية في مصر، وكذا القنصليات السوفياتية في الاسكندرية وأسوان وبورسعيد، وفعل نفس الشيء مع بلغاريا والمانيا الشرقية وبولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا. واذا كان هذا القرار يكاد يقترب من قطع العلاقات الدبلوماسية بالكامل مع موسكو، فانه كان يعني في ذات الوقت أن السادات يريد أن يقول للسوفيات أنهم لم يعد لهم مكان في مصر، وأن القاهرة المتعطشة الى السلام قد اتجهت بكليتها الى المعسكر الغربي.

ومن دمشق، طار الملك حسين، ملك الأردن، الى القاهرة، في محاولة أخيرة لرأب الصدع. ولم يكد يغادر حتى وصل وزير الخارجية الأميركية سايروس فانس، في مهمة وساطة مماثلة. كانت هذه هي الرحلة الثالثة لفانس في الشرق الأوسط خلال عشرة أشهر، وقال خلالها للسادات وللعالم أجمع: ان الولايات المتحدة تؤيد مبادرة السلام وتريد أن تفعل كل ما تستطيع من أجل الاحتفاظ بقوة الدفع «المومنتوم»، وسيقوم هو بدوره متنقلاً كالمكوك بين الرياض وتل أبيب وسائر عواصم الشرق الأوسط.

وقبل ساعات من وصول ألف من هؤلاء الضيوف الكبار كان ألوف من المصريين المتحمسين يتدفقون من جميع أنحاء البلاد. ورغم أنه كان واضحاً أن هذه المسيرات الشعبية انما هي من تدبير ورسم الحكومة الا أنها لم تكن تخلو من حماس، وكانت تعبر عن تأييد ملموس لمبادرة السادات.

وكانت هذه المظاهرات المكثفة حول قصر عابدين، تجري وفق ما يأمر به السادات وما يحتاجه في نفس الوقت بعد أسبوع كامل من الشجار مع سائر العرب وكذا مع السوفيات. وحينما كان موكبه «الملكي» يشق طريقه عبر شوارع القاهرة، كانت الجماهير تزأر بالهتاف على الجانبين، وكان هذا الى جوار دق الطبول ونفير الأبواق وعزف النشيد الوطني ما يحتاجه السادات بالفعل لاقناع نفسه والناس أنه عملاق، بينما الآخرون منذ ما برح يطلق عليهم من الآن فصاعداً مجرد «أقزام».

وعندما يصل الى قصر عابدين، يتوقف لحظات مستمتعاً بهتاف الجمهور قبل أن يبدأ خطابه المفوه، ورغم ذلك فقد كان في تلك الفترة يبدو وكأنما فقد توازنه ازاء الهجوم المر الذي يتعرض له منذ توجهه الى القدس. وعندما يرد ذكر العرب المتشددين يؤكد لمستمعيه «ان الشعب المصري سوف يواصل حمل متاعب الأقزام فوق عاتقه». وأما بالنسبة للصديق الجديد، اسرائيل، فهو لا يتأخر عن توجيه تحذير قائلاً: «السلام نعم، ولكن ليس بأي ثمن».

كان هذا هو السادات المعهود، الممثل البارع. وكان الشعب فيما يبدو يحب

طريقته، بما فيها من شتائم وما الى ذلك. ولكن جمهور السادات الحقيقي الذي كان يمثل له لم يكن الحشد الكبير من الناس الطيبين الذين يخطب فيهم. وانما كانت عباراته الرنانة موجهة أساساً الى الملك الأردني، والى وزير الخارجية الأميركية اللذين كانا حينذاك في طريقهما الى القاهرة، والى جمهور التلفزيون الأميركي بنوع خاص الذي كان سيشاهد ويسمع خطابه - أو عرضه المسرحي - في نشرة ذلك المساء.

وكانت عملية ذكية ولا ريب أن يعد هذا الحشد الكبير من الجمهور قبل ساعات من وصول الضيفين الكبيرين، فقد كان بذلك يحرر بنفسه المادة التي سترسل بالقمر الصناعي في ذلك المساء، لتكون عبارة عن عرض ممتاز بالصوت والصورة يجمع بين الجماهير الهاتفة والخطيب المفوه واللقاءات الرسمية مع الملك الأردني الذي كان السادات يأمل في ضمه لعملية السلام، ثم تعبير «لا تعليق» من جانب الملك حسين عقب الاجتماع، وهمسات المسؤولين المصريين في الكواليس ان الأردن يرجو أن يكون في وضع يسمح له بالانضمام الى عملية السلام، ولكن بعد مؤتمر القاهرة.

ثم يجيء وصول وزير الخارجية الأميركية سايروس فانس، في ساعة متأخرة من الليل، ليتوج كل هذا العرض المثير.

وهكذا كان العرض يعد، ويخرج، ويعرض. والذي لا شك فيه ان السادات، لو صدق وعده بالتنازل عن منصبه اذا فشلت مبادرته كان سيجد بسرعة عملاً كمخرج لنشرات الأنباء المسائية في التلفزيون الأميركي فقد كان هذا ما يفعله بالتحديد، وبنجاح عظيم مع وسائل الاعلام المصرية على مدى سنوات.

* * *

ولكن السادات كان يدرك أنه - لكي يقيم هرم السلام (واشنطن - القاهرة - تل أبيب) - يتعين عليه أن يستغل ويسخر التلفزيون الاسرائيلي كذلك. ولم يجد صعوبة في ذلك. فبعد أسبوعين فقط من عودته من اسرائيل، وصل الى القاهرة عن طريق العاصمة اليونانية أثينا طاقم تلفزيوني اسرائيلي مكون من مخرج ومصور ومراسل، وكانت مفاجأة للاسرائيليين والمصريين على حد سواء. وان كانت الصعوبات التي واجهتهم في مطار القاهرة أقل بمراحل من تلك التي عانوها في اسرائيل للحصول على اذن بالذهاب. وأخيراً سمح لهم على أن يكون ذلك على مسؤوليتهم البحتة، وانهم اذا صادفتهم أية متاعب، أو اذا قتلوا أو تعرضوا لأي سوء فان الهيئة الاسرائيلية للاذاعة والتلفزيون لن تكون مسؤولة عنهم.

وهكذا غادر الطاقم الاسرائيلي تل أبيب بحجة التوجه الى أثينا. ولكنه بعد

ساعات قليلة كان في القاهرة. ويصعب على المرء أن يقدر أي الطرفين كان أكثر ذهولاً. اليكس جيلادي وايهود يعاري الاسرائيليان أو أقرانهما من مصوري التلفزيون المصرين الذين فوجئوا بهما، ونحن نرى المخرج الاسرائيلي جيلادي في قلب شارع عدلي بالقاهرة يصور لقطات لم يكن يحلم في حياته بتصويرها أمام الكنيس اليهودي القائم في ذلك الشارع، فكان بذلك الراوية الأول والنجم الأول أيضاً لذلك الحدث التاريخي... وهو أول اسرائيلي يضيء شمعة في معبد «هانوكاح» اليهودي الذي كان يحتفل به ذلك المساء نحو ١٧٠ يهودياً من المقيمين بالقاهرة، كما كان في نفس الوقت أول مراسل تلفزيوني اسرائيلي يسجل كل هذا على شريط، بمساعدة مهندسي الصوت والمصورين المصريين. وكانت مناسبة مثيرة، حافلة بالدموع، فقد كان المصلون اليهود - البقية القليلة الباقية من جالية يهودية كبيرة كانت ذات يوم تحتل مكاناً مرموقاً في سوق القاهرة ومجتمعها - يأملون، بفضل مبادرة السادات، ووجود المراسل الاسرائيلي بينهم في أن يستطيعوا في يوم قريب الحجيج الى القدس، الأمر الذي كان حتى ذلك الحين حلماً مستحيلاً.

واذا كان من حق جيلادي ويعاري في ازن يعتبرا نفسيهما ازول صحافيين اسرائيليين يرسلان بتقاريرهما المصورة من القاهرةن فان من حق الصحافيتين تمارا جولانن وتوليا زيفين ازن تنسبا لنفسيهما ازنهما ازول امرازتين في الصحافة الاسرائيلية تقومان بنفس العمل، لحساب جريدة «معاريف» التي تعملان بها.

كانت تمارا وتوليا ضمن حشد ضم نحو ٤٠٠ صحافي من مختلف أنحاء العالم، تدفقوا على القاهرة لتغطية زيارة الوفد الاسرائيلي لمحادثات السلام.

واذا كانت الظروف لم تتح لي أن أرى توليا زيفي منذ ذلك اليوم الا أني كثيراً ما التقيت مع ايهود يعاري وتمارا جولان على مدى الأربع سنوات التالية. كما حدث كثيراً أن التقى بهما السادات وغيره من المسؤولين المصريين.

ففي تلك الأيام الأولى من مبادرة السلام، استطاع اري وتمارا جولان أن يكسبا حظوة سريعة لدى السادات وكبار أعوانه حتى لم يكن يمر يوم دون أن يتم اتصال بينهما وبين مصطفى خليل أو بطرس غالي أو وزير الدفاع عبدالغني الجمسي سواء بالهاتف أو باللقاء الشخصي بالمكتب أو المنزل.

وكانت عملية مربحة للطرفين، الصحافية الأريبة بثوبها الأبيض الذي لا يتغير (يبدو أن كل الثياب في دولابها كانت بيضاء)، وزميلها النشيط يحصلان باستمرار على أنباء للصفحات الأولى، والمسؤولون المصريون يستطيعون عن طريقهما الوصول الى الرأي العام الاسرائيلي مباشرة من وراء ظهر رئيس الوزراء ورجال حكومته.

ومع كل الضجة الاعلامية التي سبقت محادثات القاهرة، وأعدت لها فانها في الواقع لم تكن أكثر من مسرحية هزلية من النوع الرخيص، ولم يكن فيها ما يمتع على الاطلاق. فالأردن وسوريا ومنظمة التحرير ولبنان، لم يحضر منهم أحد. والذين حضروا، مصر واسرائيل والولايات المتحدة، والأمم المتحدة، كان واضحاً عليهم أنهم كانوا يتمنون لو أنهم لم يحضروا بالمرة.

ولكن السادات وحده كان مصمماً على ألا يفقد وجهه، ملحاً على ضرورة استمرار المومنتوم (قوة الدفع) ولو بمجرد استمرار عملية العلاقات العامة، تاركاً مسألة بيع السلام لوزير خارجيته، ليتوجه هو الى الاسماعيلية بصحبة عزرا وايزمان ليتحدثا معا على مستوى عال.

وهكذا، بينما كانت عملية السلام تناقش في احدى الاستراحات الفاخرة على شاطىء القناة من ناحية، وبين الرئيس الأميركي وضيفه مناحيم بيجن في واشنطن من ناحية أخرى، كان خمسة أشخاص على مستوى السفراء يجلسون الى مائدة مستديرة في فندق «مينا هاوس» بالجيزة، يحدقون في وجوه بعضهم البعض، وربما يبتسمون لعدسات كاميرات التلفزيون، ولم يكن هناك حديث يقال. وبعد ٥ دقائق من التصوير في الفندق المطل على الأهرام، عدنا جميعاً الى الكواليس نشكو الاحباط ونتحسر على مئات الألوف من الدولارات وعشرات الساعات من الانتقال المرهق بشوارع القاهرة والجيزة دون الحصول على مقابل، اللهم الا بعض صور هزيلة لعل أهمها أهرامات الجيزة وأبو الهول، ودون أن يكون هناك أثر لموضوع «المومنتوم» لا أمام الكواليس أو خلفها.

ولعل أفضل ما يمكن أن يوصف به اجتماع منتصف ديسمبر، هو أنه كان نذير شؤم. فقد أراد السادات أن يترك بطاقات الوفود التي لم تشهد الاجتماع في مكانها على مائدة المفاوضات أمام الأماكن الخالية كأنما يريد أن يقول ان أماكنهم ستظل دائماً محجوزة لهم حتى ينضموا الى عملية السلام. ولكن الذي حدث هو أن رئيس الوفد الاسرائيلي الياهو بن اليسار ما أن رأى بطاقة «منظمة التحرير الفلسطينية» أمام المقاعد الخالية التي كانت مخصصة لجلوس الجانب الفلسطيني حتى هدد بالعودة فوراً الى اسرائيل مالم ترفع هذه البطاقة، وبعد مناقشة طويلة عرض المصريون حلاً وسطاً، هو أن يوضح اسم «فلسطين» بدلاً من منظمة التحرير، ولكن الاسرائيليين رفضوا الحل الوسط. وهنا تقدم السادات بحل «ساداتي» هو ألا تكون هناك بطاقات بالمرة أمام كراسي الوفود. ولكن الاسرائيليين لم يكتفوا بذلك، وانما لاحظوا أن بين الاعلام التسعة المعلقة على واجهة الفندق علماً معيناً لم تعجبهم ألوانه، وطالبوا بازالته.

وأنزل علم منظمة التحرير من فوق سواري فندق «مينا هاوس»، وأنزلت معه

أعلام الوفود التي لم تحضر الاجتماع.

وهكذا كانت مسرحية السلام في ظلال الأهرام مجرد خدعة تمثيلية ألفها السادات وأخرجتها وسائل الاعلام لمجرد سد الفجوة المسرحية بين «اجازة آخر الأسبوع في القدس» و«عيد الميلاد في الاسماعيلية». وبات واضحاً أن وسائل الاعلام الدولي كانت مأخوذة بظاهرة «المومنتوم» لعملية السلام لدرجة ان المبالغات الهزلية لم ينتبه اليها أحد، فضاعت مع فرط الانفعال.

* * *

ربما كان من حسن حظي أن بقيت في القاهرة، فلم أشهد سقوط تمثيلية «عيد الميلاد في الاسماعيلية»، حيث فشل بيجن في اخراج حلقة في المسلسل في مستوى «اجازة آخر الأسبوع في القدس» التي سبقه اليها السادات.

فالمصريون الذين أحسوا بالاحباط بسبب غياب العرب عن مؤتمر السلام، وبالاستفزاز نتيجة غطرسة الوفد الاسرائيلي لحادثات القاهرة، لم يكونوا على استعداد، أو لم يبال أحد باعدادهم لكي يستقبلوا بيجن استقبال الأبطال عند وصوله للقاهرة لأول مرة. كذلك فان السادات الذي تلقى من الأميركيين نسخة من خطة بيجن المضادة لمبادرته السلامية أدرك أن رئيس الوزراء الاسرائيلي ليس أهلاً للقيام بدور البطل، ولذلك فلن تكون هناك أبهة الاحتفالات التي كان يرجوها بيجن ويجدها في منتهى الأهمية بالنسبة له. وبالفعل، لم تكن هناك ابتسامات، ولا أحضان، ولا قبلات، ولا فرق موسيقية، ولا أبواق، ولا أعلام اسرائيلية، ولا ضجة، ولا هتافات مثلما حدث أثناء زيارة السادات لاسرائيل، بل لم يكن السادات نفسه في الاستقبال عندما وصل بيجن الى مطار «أبو صوير» في يوم عيد الميلاد سنة ١٩٧٧. فلم يكن هناك سوى حسني مبارك، نائب الرئيس، يكاد يغتصب شبه ابتسامة لبيجن وهو يلقاه لأول مرة.

ولا شك ان الاسرائيليين أحسوا بالجو غير السار وهم يتوجهون نحو استراحة السادات حاملين معهم العديد من الهدايا، وبعضها خاص جداً للسادات بمناسبة عيد ميلاده التاسع والخمسين، فقد كان هو وحده الموجود في كل مكان، تطل عليهم صورته من فوق كل جدار وفوقها «شعارات» السادات بطل السلام»... بينما لا توجد صورة واحدة لبيجن، ولا حتى كلمة ترحيب.

ورغم الاستقبال البارد، ما أن وصل بيجن الى استراحة الرئاسة، حتى وجد السادات يهل عليه بابتسامة واسعة وأحضان مفتوحة بكل سماحة الأب الكبير المستعد لمغفرة كل ماأثبته الابن من عقوق!!!

وبدأت المحادثات، ولكن لم يلبث أن تبين أن أحداً من الاثنين لم يبدل شيئاً من مواقفه. فبدعوى السعي للسلام، قدم بيجن مشروعاً من ٢٦ نقطة بمقتضاها يتم

انسحاب اسرائيل من معظم أراضي سيناء، ولكن على أن تبقى المستوطنات الاسرائيلية المقامة في المنطقة الممتدة من رفح حتى العريش، والقائمة فيما بين ايلات وشرم الشيخ. وبدعوى الأمن الاسرائيلي يتعين أن تبقى المستوطنات الاسرائيلية تحت حماية القوات الاسرائيلية. وباسم «العدل»، اقترح بيجن نوعاً من الحكم الذاتي للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، ونوعاً من الادارة المحلية يعطي الفلسطينيين الحق في جمع قماماتهم وتنظيف شبكات المجاري ورعاية شؤونهم المنزلية، ولكن دون أن يكون لهم أية سلطات تشريعية أو تنفيذية أو قضائية، ولا أي نوع من السيطرة على الأرض التي يعيشون عليها. فهم يعنون بشؤونهم فقط. أما اسرائيل، فهي التي تعنى بالضفة والقطاع. وكان معنى هذا باختصار أن بيجن يقترح الضم العملي للأراضي المحتلة منذ ١٩٦٧، الأراضي التي يعتبرها ـ بحكم التوراة ـ جزءاً من اسرائيل الكبرى. أراضي «يهودا والسامرة»، وفي مقابل هذا توقع مصر واسرائيل اتفاقية سلام يمكن اعادة النظر فيها في سنة ٢٠٠١.

* * *

سأل بيجن أنور السادات عند لقائهما بالاسماعيلية:

ـ هل تريد دولة فلسطينية يرأسها عرفات؟

أجاب السادات:

ـ أنا لا أتحدث عن عرفات. ان المسألة هي حق تقرير المصير بالنسبة للفلسطينيين. ان من مصلحتكم أن أظل زعيماً للعالم العربي. وأنا أستطيع أن أجهز على عرفات في خلال أسبوعين. ولكن يجب أن يكون لدي شيء في يدي، والا فسوف يرجمونني بالحجارة.

غير أن السادات كان يدرك أيضاً انه اذا لم يرجم بالحجارة لأنه باع الفلسطينيين، فان الشعب المصري سوف يفعل ذلك ما لم يسترد سيناء. ولذلك فقد أضاف:

ـ لو قلت لشعبي أن بيجن يريد أن يبقي على مستوطناته في سيناء وأن الجيش الاسرائيلي سيتولى حماية هذه المستوطنات فسوف يرجمني الجميع بالطوب .

كان أقصى وآخر ما يرجوه السادات من قمته الثانية مع بيجن هو «اعلان مبادىء» يتضمن المسألة الفلسطينية ويرضي العرب، ولكنه لم يحصل عليه. وكان كل ما استطاع أن «ينتزعه» من بيجن هو مجرد اتفاق على تشكيل لجنتين: احداهما سياسية وأخرى عسكرية، الأولى يرأسها بالتناوب وزيرا الخارجية المصري والاسرائيلي، وتجتمع في القدس، والأخرى يرأسها وزيرا الدفاع وتجتمع في القاهرة.

وعند عصر يوم ٢٥ ديسمبر كانت المحادثات قد وصلت الى طريق مسدود،

ولكن السادات غطى ببراعة على هذا الفشل أمام الصحافيين المحتشدين بالباب، فبدون سابق انذار قفز الى سيارة كاديلاك سوداء، وجلس على مقعد القيادة منادياً على بيجن ودايان ووايزمان ليصحبوه في جولة ودية بمدينة الاسماعيلية. وبقدر ما كانت هذه الحركة كابوساً مرعباً لرجال الأمن المصريين والاسرائيليين بقدر ما أتاحت الفرصة للمصورين كي يحصلوا على لقطات فريدة، وللقادة الاسرائيليين ان يشاهدوا قناة السويس من الجانب الآخر، وأن يطوفوا بالمدينة التي سبق أن دمروها تدميراً.

وفي الطريق - حسب رواية وايزمان في كتابه «المعركة من أجل السلام» - قال السادات بلهجة الفخر أكثر منه بلهجة الاحساس بالمرارة «ان مليون لاجىء كانوا قد هجروا للدلتا بسبب حرب الاستنزاف عادوا الآن الى مدن القناة. وكانت الاسماعيلية كومة من الأنقاض ولكننا أعدنا بناءها، وعادت الحياة الى مجاريها الطبيعية».

وهكذا، في عيد ميلاده التاسع والخمسين لم يحصل السادات على العيدية التي كان يتمناها، ألا وهي القرارات الحاسمة الصارمة «التي كان يتوقع أن يهديها اليه بيجن».

اما أن الاسرائيليين قد تخلفوا ليلة أخرى بعد الموعد المقرر سلفاً لمغادرتهم فان ذلك لم يكن «علامة حسنة» كما اعتقد الصحافيون، وانما كان آخر محاولة من السادات لانقاذ المؤتمر.

وشهد عصر يوم ٢٦ ديسمبر أطقم التلفزيون الأميركي الثلاثة الذين كانوا يقتسمون عربة واحدة وهم يختبرون كابلاً جديداً تم اعداده على جناح السرعة بالتعاون مع التلفزيون المصري وهيئة الاتصالات اللاسلكية لكي يتاح بث الأنباء العظيمة المتوقعة من الاسماعيلية مباشرة عن طريق القمر الصناعي. ولكن التجربة لم تكن أكثر نجاحاً من قمة السادات وبيجن، أو المؤتمر الصحافي الذي حاول الطرفان فيه تغطية فشلهما باطلاق بعض الفكاهات. ومع ذلك، فان السادات أجاب على أحد الأسئلة متنبئاً بكل ثقة باتفاقية سلام مع اسرائيل في غضون شهرين!

* * *

وبينما كان سيرك الاعلام، وممثلو الأدوار الأولى يشقون طريقهم عائدين للقاهرة وتل أبيب، في جو يخيم عليه القنوط، سرب السكرتير الخاص للرئيس السادات خبراً خص به تلفزيون «ايه. بي. سي» حول مشروعات الرئيس في ذلك المساء، وكان خلاصتها أنه سيشهد حفل زواج بالغ البذخ في ضاحية الجيزة حيث يقيم.

كان حفل الزواج مناسبة فريدة من نوعها، رغم أنها أثارت بعض الذكريات المؤلمة. فقد كان حفلاً مزدوجاً لشقيقين قررا الزواج في احتفال واحد، أما والدهما،

فهو المرحوم المشير عبدالحكيم عامر، الذي انتحر بالسم في أعقاب حرب ١٩٦٧. وبالرغم من أن السادات كان مرهقاً بعد اليوم العاصف في الاسماعيلية، ومتاعب رحلة العودة، الا أنه رأى من واجبه الأبوي بالنسبة لابني زميله الراحل أن يشرفهما بحضور حفل زواجهما.

ولما كنت مصممة على أن أتعرف على مدى استياء السادات مما جرى في الاسماعيلية، فقد أخذت طريقي - ومعي طاقمي - الى السرادق الملون الذي أقيم فيه الاحتفال - حيث كان هناك نحو ألف شخص على الأقل يمثلون الطبقة العليا في المجتمع المصري.

وعلى الباب، كانت معركة لا بد منها مع رجال الأمن، فأسماؤنا ليست في قائمة المدعوين، ولكني أصررت بأدب على أن هناك خطأ ما، وهم من جانبهم أصروا على منعنا من الدخول، واجتمعت كلمة الجميع، ضباط الشرطة والحرس الجمهوري و١٢ من الحرس الخاص للرئيس المصري على «ممنوع». ثم تجاهلونا تماماً على أمل أن يستبد بنا الملل واليأس فنرحل بلا مشاكل، ولكنهم لم يكن لديهم فكرة عن مدى اصرار الصحافيين الأميركيين. وعبثاً حاولت أن أقنعهم أننا «ناس مهمون جداً». ولكن المقياس الوحيد للأهمية عند هؤلاء القوم هو كمية الجواهر واللآلىء التي تحملها المرأة على ذراعها وصدرها وحول عنقها، ولم أكن بالطبع أحمل شيئاً من ذلك.

وبعد ساعة كاملة، أيقن أهل الأمن اننا جئنا لنبقى، وعزز هذا حديثي مع بعض من أعرفهم من الضيوف وهم على أهبة الدخول، ومع ذلك فقد أصروا على «ممنوع».

وهنا وجدت انني يجب أن أنتقل الى خطوة أخرى، فأخذت أصيح بأعلى صوتي، مهددة بأن كل من يمنعني سوف يدفع غالياً ثمن قصر نظره، وانهم من فرط جهلهم لا يدركون ان الرجل المكلفون بحمايته يريد أن يتحدث الى تلفزيون «ايه. بي. سي»، وأن لديه شيئاً هاماً يريد أن ننقله عنه للشعب الأميركي.

ولكنهم استمروا في تجاهلهم، ولم يبد عليهم أنهم تأثروا كثيراً بالتهديد. ولعلني فكرت لحظتها أن أجمع طاقمي وأعود مجرجرة أذيال الفشل، ولكنني قررت أن أقوم بمحاولة أخيرة، ولم تكن كلها ضرباً من التمثيل، فالواقع اني كنت في أشد حالات الغيظ والغضب. وهكذا أخذت أصرخ بأعلى صوتي، بالعربية والانجليزية، انني لدي أشياء كثيرة أفضل وأمتع ألف مرة لأفعلها ليلة عيد الميلاد بدلاً من المجيء هنا. وهتفت بأكبر رتبة وجدتها أمامي «اننا مدعوون بالتأكيد الى هذا الحفل والا كيف تظننا عرفنا بموعده ومكانه؟»، والآن، ها أنتم تعاملوننا كبعض الحثالة... وتطردوننا هكذا بكل بساطة... اذا لم نكن مدعوين فماذا تظنوننا؟ ارهابيين؟

وبدا ان الغضبة قد أفلحت، وفي اللحظة التي قرر فيها رجال الأمن بالباب استطلاع رأي من بالداخل أهل على مدخل السرادق رئيس الحرس الخاص للسادات، وكان يعرفني، وهكذا انتهت المشاجرة بكلمة «معلهش» المصرية المشهورة، ومرحباً، وأهلاً وسهلاً، آسفون جداً، مجرد غلطة سخيفة...

وسمح لي بالدخول، ولكن المقعد الذي اختاروه لي كان على الباب، ومع ذلك فلم أكن مستعدة بحال من الأحوال لأن أترك الفرصة تفلت من يدي.

كان السادات باعتباره ضيف الشرف، يتصدر الصف الأمامي، وغليونه في فمه، وعلى طاولته كأس من العصير، وأمامه أفضل العازفين والمطربين في مصر. والعروسان، وعروستاهما، كل زوجين على أحد جانبي المسرح. وأخذ طاقم المصورين يلتقطون المشاهد هنا وهناك كأنما نحن هنا فقط لهذا الغرض، بينما أنا أتدبر خطوتي التالية والاحتفال في ذروته. ولم يكن من اللائق أيضاً أن أقطع الطريق على السادات وهو خارج. فليس هذا هو الزمان أو المكان المناسب لنسور الصحافة كي تنقض على الفريسة. وانما الأفضل أن أتقدم اليه أولاً فأعرفه بنفسي وأطلب منه السماح لي ببضع دقائق من وقته بعد انتهاء الحفل. وكان دون شك قد سمع ورأى مني الكثير على مدى الشهر السابق. ولما كنت أزمع البقاء فترة طويلة نسبياً في القاهرة فقد وجدت من المناسب أن «أقدم أوراق اعتمادي في تلك الليلة... والآن بالذات».

ولكن لسوء الحظ، ظهرت على المسرح في تلك اللحظة الراقصة المصرية المعروفة، نجوى فؤاد، فاستحوذت على كل انتباه السادات. ولما كنت عاجزة تماماً عن المنافسة فقد فضلت الانتظار حتى تنتهي من هزتها الأخيرة. وكانت لحظة صعبة، ولكن لم يكن أمامي الا أن أواصل أو أنصرف الى الأبد.

تقدمت بشجاعة حتى وقفت في مواجهة السادات، وقبل أن تتاح لي فرصة التراجع، أو يتاح لأحد أن يقاطعني... أسرعت أقول:

- مساء الخير يا سيدي الرئيس، أرجو أن تغفر لي اذا كنت قد أزعجتك، أنا دورين كايز، الرئيسة الجديدة لمكتب تلفزيون «ايه. بي. سي» بالقاهرة.

واصل السادات ابتسامته، نافخاً بضع حلقات من دخان غليونه وهو يومىء برأسه بتحية «ملكية»، شجعتني على أن أواصل حديثي بالعربية قائلة انني عربية انحدر من أصل لبناني، ولما كنت أدرك أن المصريين عموماً غير معتادين على اللهجة اللبنانية، خصوصاً اذا كانت مشوبة بلكنة كندية، فقد عدت مسرعة الى الحديث بالانجليزية على الأقل قبل أن ينسى الجنسية التي أنتمي اليها الآن، والجهة التي أعمل لها.

- هل تسمح يا سيدي بالاجابة على بعض الأسئلة اثناء مغادرتك للحفل؟

أوما برأسه مرة أخرى وقد ازدادت ابتسامته اتساعاً، وتلاحقت أنفاس غليونه الذي بدأت في تلك اللحظة أفكر في أن أطلق عليه اسم غليون السلام، ثم أوما برأسه موافقاً

- لم لا ؟ أجل... بكل تأكيد.

قال ذلك وهو لا يزال يبتسم، ويرمش بعينيه الاثنتين بتلك الحركة الغريبة التي أصبحت «ماركة مسجلة» لصورته كلما ظهر على شاشة التلفزيون الأميركي.

- شكراً يا سيدي الرئيس... على تلطفك!

كنت في منتهى الفرح لهذا الرد الايجابي منه الى حد جعلني وأنا أستأذن منصرفة كانما استأذن أيضاً من عقلي. وهذا هو التفسير الوحيد لما حدث مني في تلك اللحظة. حيث مددت يدي فربت على ركبته بحركة لا شعورية تعبيراً عن امتناني، ومهما كانت هذه الحركة بريئة فانها في العالم العربي من المحرمات والعلامات الدالة على قلة الأدب. واذا كان محظوراً على النساء ان يربتن على ركب الرجال... فما البال اذا كان الرجل المربوت على ركبته رئيس دولة!

غير أن وجه السادات لم يظهر عليه ما يدل على أنه صدم... أو حتى أحس بيدي على ركبته. ولا زلت حتى الآن لا أدري ما اذا كان تعمد أن يتجاهل أو أن فكره كان مشغولاً بما حدث بينه وبين بيجن في الصباح، فلم يحس بحركتي بالمرة. غير أن المهم هو انني قد حصلت على وعد بالحديث، ومعنى ذلك انني حققت سبقاً ملحوظاً على شبكات التلفزيون المنافسة.

وهكذا، بعد منتصف الليل بوقت غير قليل، وقف السادات يجيب على اسئلتي، معترفاً في البداية بأنه فعلاً قد صدم بمشروع بيجن الذي جاء مخيباً للآمال، ولكنه عاد فأضاف بسرعة أنه لم يكن بالطبع يتوقع أن يتحقق السلام بين يوم وليلة، وانما على المرء أن يتحلى بالصبر.

وكانت هذه أول مرة يتحدث فيها السادت عن ضرورة الصبر في سلسلة طويلة تكررت فيها نفس الجملة على مدى أربع سنوات. كما كانت أيضاً أول اشارة واضحة الدلالة على انه مهما كانت العقبات، ومهما كانت النتائج ومهما كان الثمن، فان السادات لن يتخلى عن «المبادرة» التي بدأها منذ خمسة أسابيع بزيارة القدس بأي حال من الأحوال، ومهما سببت من أهوال.

أما غنيمتي التي فزت بها في هذه الليلة، فقد اكسبتني دقيقة ونصف على الهواء في تلفزيون «ايه. بي. سي» ودرجة أخرى في سلم البطولة.

الفصل الخامس

عندما تتهاوى بيوت الورق

في صباح يوم ٢٩ ديسمبر، جاءتنا برقية سريعة وفي أثرها مكالمة هاتفية من نيويورك تنبهنا الى تصريح أذيع للرئيس كارتر في الليلة السابقة يقول فيه انه ليس متحمساً لاقامة دولة فلسطينية. ونسب اليه أيضاً قوله ان في رأيه «ان السلام الدائم في الشرق الأوسط سيكون أمراً ميسوراً على نحو أفضل في حالة عدم وجود دولة راديكالية جديدة في الشرق الأوسط».

وبدا واضحاً من الفقرات التي وصلت من تصريحات كارتر أنه يثني على مرونة بيجن ويعتبر مشروعه الخاص بالحكم الذاتي للفلسطينيين «خطوة كبرى الى الأمام». وعن الرئيس السادات قال كارتر: «انه حتى الآن لا زال مصراً على أن ما يسمى بالكيان الفلسطيني يجب أن يكون على شكل بلد مستقل».

وعلى أساس هذه التصريحات، اضطررت الى ارجاء قصة عسكرية كنت أعد لها من ثلاثة أشهر. ففي ذلك الصباح بالذات، ولأول مرة بقدر ما تعي الذاكرة، كانت وزارة الدفاع المصرية قد أتاحت لي فرصة الانفراد بزيارة احدى القواعد العسكرية، وأهم من ذلك فرصة اللقاء بوزير الدفاع عبدالغني الجمسي واقامة صلات بالعسكريين المصريين يمكن أن تفيد كثيراً فيما بعد. ونجم عن هذا الارجاء تدهور واضح في العلاقات مع العسكريين المصريين ومع الجمسي بالذات الذي لم يكن أصلاً يحب الحديث الى الصحافيين. وقد كلفنا ذلك عدة أشهر قبل أن تعود العلاقات مع العسكريين الى وضعها المطلوب.

حملت معي تصريحات كارتر وتوجهت رغم أنفي الى مقر السادات بالجيزة لأجد منافسي العتيد جون شيهان مراسل تلفزيون «سي. بي. سي» وطاقمه قد سبقوني الى هناك. ولم يبد عليه أنه سعد كثيراً بمرآي. واشتبكنا في حديث قصير خشية أن يفسد أحدنا مهمة الآخر. وعلى مدى ساعة كاملة من انتظار الاذن بالدخول، لم يظهر بالمكان أي مندوب آخر للصحافة أو الاذاعة أو التلفزيون، ربما لأنه لم يعد هناك من يهتم كثيراً بمتابعة السادات وهو يستقبل آخر الوافدين من الضيوف الأميركيين المحملين دائماً بالهدايا والجوائز والحلي وأكاليل الورد وشعارات الولايات.

لعلني لا أذكر في ذلك اليوم أحد سوانا جاء ليحج الى السادات اللهم الا أحد المبشرين البروتستانت من ولاية كنساس جاء من آخر الدنيا ليطبع على شفتي السادات قبلتين تعبيراً عن اعجابه الشديد. وتحت حجة تسجيل هذا الحدث «التاريخي» أتيح لنا الدخول الى صالونات قصر الجيزة التي كانت المكان المعتاد لمثل هذه المناسبات.

وقد التقطنا بالفعل عدة مشاهد للسادات وضيفه وهما يتخذان الوضع المناسب ـ بناء على طلبنا ـ لاخراج المشهد في أحسن صورة. واستأذن الضيف خارجاً. وقبل أن يطلب منا الحراس الانصراف بدورنا أسرعنا نلتمس من الرئيس أن يسمح لنا بسؤال أو سؤالين. فلم يمانع. ودفعنا بميكروفوناتنا أمامه، وسبقني جون شيهان الى السؤال. ولكن كان واضحاً أنه لم يسمع بعد بتصريحات كارتر في الليلة السابقة، وانما جاء آملاً في الفوز بحديث خاص مع الرئيس حول موضوع السلام بشكل عام. وصبرت أنا بأدب جم حتى حانت لي فرصة التدخل فسألت:

ـ سيدي الرئيس، هل يمكنكم الرد على تصريحات الرئيس كارتر في مؤتمره الصحافي ليلة أمس والتي قال فيها أنه لا يؤيد مطالبتكم بدولة فلسطينية مستقلة؟

ـ ألم يؤيدني؟ حسن. ربما يفضل أن يتخذ موقفاً حيادياً. ولكن هذا هو رأيي. وأنا لم أقل أبداً أن كارتر قد وافقني عليه. هذا في الواقع لم يحدث. ولكن هذا رأيي حتى هذه الساعة.

وكان واضحاً أن السفارة المصرية في واشنطن، لم تر في تصريحات كارتر ما يستحق أن تبرق به للقاهرة. أو لعلها أبرقت ولم يجد السادات وقتاً للاطلاع على برقيتها. ولذلك فقد واصلت أسئلتي وأنا أبلغ الرئيس المصري في الوقت نفسه بما قاله كارتر.

ـ سيدي الرئيس، لقد أبدى كارتر أيضاً ما يفيد أنه يؤيد مشروع رئيس الوزراء الاسرائيلي بيجن للسلام، وخاصة ما جاء فيه بشأن الحكم الذاتي المحدود (للفلسطينيين). فهل يعتبر هذا القول مفاجأة لكم؟

- بالتأكيد ... أنا لا أعتقد أن أحداً يمكن أن يعارض عبارة حق تقرير المصير . ان هذه عبارة لا يعارضها أحد . ولا أعرف لماذا يفعل كارتر ذلك . ولكنه من غير شك له كل الحق في أن يكون له رأيه ، مثلما لي رأيي ، وللاسرائيليين رأي آخر . ولكن دعونا نأمل أن نستطيع التوصل الى حل في الأمد القريب .

- لعلها مسألة خلاف لفظي ... وطن قومي أو دولة مستقلة ؟

- ... عندما التقيت مع شعبي أمس ، عن طريق التلفزيون ، كان في استطاعتي أن أقول انه قد تحققت خطوة للأمام بعد زيارتي للقدس والمحادثات في الاسماعيلية في مجال المسألة الفلسطينية . ونحن الآن نختلف أو نتشاجر مع بعضنا البعض في اسرائيل وفي مصر لأنهم يتحدثون عن نوع من الحكم الذاتي أو تقرير المصير . وهذا في حد ذاته تقدم كبير ، بل قفزة كبيرة للأمام لأنه منذ أربعين يوماً فقط قبل زيارتي للقدس لم يكن أحد يعرف ما هو مصير الفلسطينيين . بل كان مناحيم بيجن وحكومته والمعارضة ، كلهم كانوا يقولون ان هذه أرض اسرائيلية وقد حرروها أخيراً . فلو حدث بعد ٤٠ يوماً أن تحققت هذه القفزة وأصبح النقاش يدور حول أي نوع من الحكم الذاتي أو تقرير المصير فاني أعتبر هذا تقدماً كبيراً ، بل طفرة كيرة ومشجعة جداً بالنسبة للمستقبل .

- ألست مستاء اذن من تصريحات الرئيس كارتر ؟

- بالتأكيد أنا مستاء ، فقد كنت أرجو أن نكرس كل جهودنا لوضع حد للآلام التي تسببها هذه المشكلة في الشرق الأوسط ، وتوفير غد مشرق للجيل المقبل . وهذا ما يتعين على الجانبين معاً أن يفعلاه لأننا يجب أن نعيد فتح المناقشة في الموضوع من البداية .

- قلت من قبل أن السلام سوف يتحقق في غضون شهرين . وأن اتفاقية صلح يمكن أن يتم توقيعها في بحر شهرين . فهل نعتقد الآن أن الأمر قد يطول أكثر من ذلك .

- ربما تعطل ذلك قليلاً ، ولكني أستطيع أن أقول ان عام ١٩٧٨ ، سيكون عام الحسم ، وليس في هذا أية مبالغة .

سأل جون شيهان الرئيس المصري ما اذا كانت تصريحات الرئيس كارتر سوف تجعل مهمة التفاوض اكثر صعوبة ، فأجاب السادات :

- حسن ، هذا مؤكد ، انها سوف تجعل الأمر اكثر صعوبة بالنسبة لي ، ولا شك لأن كارتر نفسه صديق عزيز لي ، وأنا واثق به ثقة كاملة ، ولكنه فعلاً يجعل مهمتي صعبة جداً ... فعلاً .

ثم استدرك قائلاً :

- ولكننا لن نلقي بكل شيء في البحر ، ونقول اننا ذاهبون للحرب ... كلا ...

هنا سألته، أو لعل شيهان هو الذي سأل:

- ما هو أكثر ما ضايقك في تصريحات الرئيس كارتر؟

أجاب السادات: ان ما فاجأه كان تصريحات كارتر حول المسألة الفلسطينية «لأنها لب المشكلة بأسرها وجوهرها... لقد فوجئت بهذه التصريحات، وبالفعل احرجتني».

شكرنا الرئيس المصري وعدنا أدراجنا، كل الى مكتبه بما في جعبتنا. وفرح القسم الخارجي (في تلفزيون «ايه. بي. سي»)، بما أرسلته، واثنى علينا مخرجو نشرات الأنباء المصورة، وأسرع الينا مراسلو وكالات الأنباء بالقاهرة يدقون أبوابنا حتى يلحقوا ببث الحديث على التيكر قبل أن يسألهم رؤساؤهم عنه عندما يرونه على شاشة التلفزيون في المساء... وطلب مكتب «الاسوشيتدبرس» نسخة كاملة من الحديث فلم نبخل عليهم بها، بشرط أن ينسبوا الفضل الى مراسلة تلفزيون «ايه. بي. سي» ولا يذيعونه قبل الواحدة صباحاً (بالتوقيت المحلي) والسادسة مساء (بتوقيت نيويورك). أي موعد اذاعة نشرتنا المسائية.

وفي تلك الأيام، كان العرض يبدأ بمقدمة تنقسم فيها الشاشة الى أربعة أقسام بحيث يبدو في كل قسم مراسل أو مراسلة الشبكة وهو يلتقط النبأ أو يجري الحديث في مكان مختلف من العالم، وذلك لمدة خمس ثوان، ثم يعطي كل مراسل ٢٠ ثانية وحده على الشاشة ليقول عناوين رسالته، وفي ذلك المساء، ٢٩ ديسمبر ١٩٧٧، زودت أنباء المساء بثلاثة عناوين تختار بينها، ولكنها أذيعت جميعاً في مقدمة التقرير الذي بعثت به من محطة الأقمار الصناعية بقصر القبة كما جرت العادة.

وكانت العناوين تقول:

١ - السادات يقول ان موقف كارتر حول دولة فلسطينية مستقلة سيجعل مهمته أكثر صعوبة - دورين كايز من القاهرة.

٢ - السادات مفاجأ ومستاء من ملاحظات كارتر حول دولة فلسطينية مستقلة - دورين كايز من القاهرة.

٣ - السادات يقول ان ملاحظات كارتر حول دولة فلسطينية مستقلة قد تعرقل توقيع اتفاقية سلام - دورين كايز من القاهرة.

وجاءت روايتي بعد هذه العناوين... وكانت أول عمل تجاري انجزه، فقد بيعت القصة لعدة جهات... وفي نفس المساء اذاع راديو «ايه. بي. سي» القصة على نحو أكثر استفاضة، ونقلتها «الأسوشيتدبرس» و«النيويورك تايمز» التي صدرت صفحتها الأولى بالعناوين الآتية:

السادات محرج بسبب معارضة كارتر لقيام دولة فلسطينية.

السلام معرض للتعطيل.

الرئيس المصري يعلن ان الملاحظات الأميركية تجعل مهمتي صعبة جداً.

وفي صباح اليوم التالي، تلقيت برقية شكر عاجلة من ويستين وأخرى من رئيس الشبكة روني ارليدج، مصحوبة بتهنئة رقيقة بالعام الجديد.

واعترف انني كنت سعيدة بهذه البرقيات، فلقد كانت مرضية جداً لمعنوياتي، ولاحساسي بذاتي، ونهاية بهيجة لعام ١٩٧٧، بعد ستة أسابيع فقط من تسلمي مهام منصبي بالقاهرة. ولكن هذا في الواقع كان مثلاً حياً للصحافة التلفزيونية اليومية في أسوأ سطحيتها، مثلا كنت أتمنى لو لم يحدث، وأرجو مخلصة الا أكرره. ذلك ان الابعاد التي أعلنت للجمهور عن هذه القصة شوهت الحقيقة في مسألة تتطلب أقصى ما يمكن من المعالجة الدبلوماسية. فقد كان من المستحيل تناول موضوع سياسي ـ خصوصاً اذا كان شديد الحساسية والتعقيد كما هو الحال في كل ما يتصل بالشرق الأوسط ـ بهذه الخفة دون أن ينجم عن ذلك أوخم العواقب... واذا كانت الدبلوماسية التلفزيونية ليست دائماً سيئة بالضرورة، الا أنها في هذه الحالة بالذات، كانت غير مطلوبة بالمرة، بل كانت طائشة، وبالغة الضرر.

فالواقع ان الرئيس كارتر لم يدل بأي شيء جديد. فما قاله من قبل كان انه يؤيد وجود وطن قومي للفلسطينيين، ولكن لا هو ولا أحداً في ادارته أعرب في يوم من الأيام علناً عن تأييده لاقامة دولة فلسطينية.

أما السادات، من ناحيته، فقد كان يطالب بالدولة الفلسطينية لمجرد تهدئة العرب المتشددين والفلسطينيين ومنظمة التحرير. ولكن كان مفهوماً لدى الكثيرين ان السادات وسائر الزعماء العرب المعتدلين لا يحبذون قيام دولة راديكالية مستقلة في الشرق الأوسط، تماماً مثل الرئيس كارتر، وخصوصاً السادات نفسه بعد أن هوجم وأدين من قبل منظمة التحرير الفلسطينية (وان كان ثبت بعد ذلك ان هذه النقطة كانت محل جدل).

وهكذا، فان السادات في الفترة ما بين اجازة آخر الأسبوع بالقدس في نوفمبر، والحديث التلفزيوني الذي أجري معه في ديسمبر تحول علناً من الدولة الفلسطينية، الى الوطن القومي الفلسطيني، ثم الى حق تقرير المصير للفلسطينيين... وكان كل شيء يتوقف على حالته المزاجية، وأيضاً على نوعية الجمهور الذي يتوجه اليه بالحديث. أما بالنسبة للاسرائيليين، فقد كان «الوطن القومي» للفلسطينيين و«الكيان» الفلسطيني، وحق تقرير المصير للفلسطينيين كلها تعبيرات ملطفة لا تعني في النهاية سوى دولة فلسطينية مستقلة، وهو الأمر المرفوض تماماً منهم، كما كان السادات نفسه يدرك جيداً.

اذن، فما دام جيمي كارتر والسادات يفكران على نفس النهج، فماذا كان لزوم كل هذه الضجة الاعلامية؟

وكانت الـ «واشنطن بوست» هي التي وضعت المسألة في اطارها الحقيقي عندما

كتبت في صفحتها الأولى بتاريخ ٣١ ديسمبر تقول :

كتب المحرر السياسي موراي ماردر .

• ان الضجة الناجمة عن رد الفعل الجريح لدى الرئيس المصري أنور السادات ، تجاه تعليقات الرئيس كارتر بالتلفزيون حول المسألة الفلسطينية ، انما هي مثل من أمثلة استقطاب دبلوماسية وسائل الاعلام عندما تصطدم مع الظلال الناعمة والمداخلات الرقيقة التي تعرفها الدبلوماسية المحترفة .

فهذه الواقعة التي قد تستدعي زيارة الرئيس كارتر لمصر من اجل تهدئة المشاعر الغاضبة يمكن أن تعتبر مثالاً تاريخياً لما تفعله دبلوماسية وسائل الاعلام المتسرعة أكثر مما يجب ، والمبسطة اكثر من اللازم .

فظاهر الأمر يقول ان كارتر قد أذى مشاعر السادات وأكثر القادة العرب بملاحظاته المرتجلة حول « دولة فلسطينية » اثناء حديثه التلفزيوني .

ولكن الواقع انه لا يوجد في كل ما قاله كارتر معبراً عن عدم تحبيذ الادارة الأميركية لاقامة دولة فلسطينية شيء يمثل أي تغيير في الموقف الأميركي الرسمي .

والمشكلة انما هي في الصراحة والتوقيت الذي أعرب فيه كارتر عن رأي الادارة الأميركية بصوت عال ، ثم التفسير الجاف أكثر مما يجب لما قاله كارتر ، الذي نقلته وسائل الاعلام ، وأخيراً الحاح الصحافة على السادات ليعبر بسرعة عن رد فعله .

فالرئيس كارتر في حديثه التلفزيوني يوم الأربعاء مع أربعة مراسلين ، كان يحاول أن يشق طريقه بحذر في الرمال الدبلوماسية الناعمة . ولكن هذا الطريق يكون دائماً محفوفاً بالخطر عندما يضطر المسؤول الى الارتجال . خصوصاً في هذه المرحلة الحرجة للغاية في المفاوضات المصرية - الاسرائيلية ، وفي أعقاب تقلص التوقعات المبالغ فيها التي كانت معلقة على محادثات السادات وبيجن بالاسماعيلية يوم عيد الميلاد .

ولقد كان واضحاً للعارفين بالتعقيدات الدبلوماسية ان كارتر وهو يجيب على الأسئلة كان يريد أن يمتدح كلاً من السادات وبيجن على مبادراتهما الدبلوماسية ، ويريد بنوع خاص أن يدفع بالاثنين لمواصلة المرونة .

وفي عملية الأخذ والرد اثناء الحديث الذي جاء في اعقاب اعلان مشروع بيجن في نفس اليوم ، امتدح كارتر بيجن لما أبداه من مرونة . ويؤكد رجال الادارة ان هدف كارتر من ذلك كان تشجيع رئيس الوزراء الاسرائيلي على المزيد من المرونة ، وليس الاعلان عن تبني الولايات المتحدة للاقتراح الاسرائيلي .

ولكن هذا لم يكن المنهج الذي فسرت به الصحافة تصريحات الرئيس وهي تبرق بها الى جميع أنحاء العالم ، فالذي كان منسوباً الى كارتر هو انحاز الـى ، أو بمعنى أصح ، أيد مقترحات بيجن وعارض دعوة السادات الى اقامة دولة فلسطينية

مستقلة .

وفي القاهرة ، راح المراسلون يلتمسون تعقيباً فورياً من السادات الذي طالما اعتبر احاديثه التلفزيونية جزءاً من دبلوماسيته التي يسميها «الصدمات الكهربائية» .

وبعد أن أورد الكاتب ما جاء في الحديث الذي أجراه مع السادات مندوبا «ايه . بي . سي . و«سي . بي . سي» ختم مقاله بقوله :

«وهكذا ، فان دبلوماسية وسائل الاعلام تكاد تتم دورتها كاملة. فلقد استخدمها السادات وبيجن على نحو درامي ليجتمعا ، والآن ، ها هي بكل قوتها تلعب دورها من أجل الفراق» .

ولقد علمت فيما بعد ان موراي ماردر ، وهو يعد مقاله اتصل بالمسؤولين في شبكة «ايه. بي. سي» في نيويورك ، فكان من جملة الأوصاف التي وصفني بها أحدهم - وهو ويستين كما علمت مؤخراً - «ان دورين كايز نمر حقيقي» .

ولعلي كان من حقي ان أحس بالزهو ، ولكن لم أجد وقتاً لذلك ، فسرعان ما كان الممثل الموهوب ، والنمر الحقيقي ، كلاهما مشغولين بالحلقة الجديدة في عرضها التلفزيوني ، ألا وهو وصول كارتر ، لمسح ما لوثته دبلوماسية التلفزيون .

كان الرئيس كارتر قد أعد عدته لقضاء ليلة رأس السنة بصحبة صديق آخر وحليف قديم بالقرب منا ، هو شاه ايران. ولما كان الشاه صديقاً عزيزاً للرئيس المصري ، فقد سر السادات كثيراً للأنخاب التي تبادلها الضيف والمضيف على سبيل التحية «لصحة ومستقبل حلفاءنا العظام والأحلاف الغربية» ، كما أسعده أكثر وأكثر أن يقرر كارتر في آخر لحظة أن يضيف مصر الى قائمة جولته التي كانت تشمل كذلك السعودية وعدة أقطار أخرى في المنطقة كان زعماؤها في حاجة الى سماع ما يطمئنهم من الرئيس الأميركي .

ومع نهاية ١٩٧٧ ، وبداية ١٩٧٨ ، كان السادات قد كسب مكانه كواحد من أصحاب أكثر الصور انتشاراً في عالم الاعلام ، والحبيب المدلل للعالم الغربي ، وآخر أبطال أميركا منذ نزول أرمسترونج على سطح القمر وعودته سالماً قبل ذلك بثماني سنوات .

وعند وصف أحد المعجبين رحلته «الى آخر مكان في العالم» التي انتهت به الى القدس بأنها أشبه بنزول الانسان لأول مرة على سطح القمر أعجب السادات جداً بالتشبيه ، وكانت هذه هي الوسيلة المجدية لاجراء عملية تدليك يومية (للأنا الساداتية) حتى أصبحت تسبح في بحر من الشهرة والأضواء . وعلى عكس ما توقعت جولدا مائير ، تم ترشيح السادات لجائزة نوبل بدلاً من الأوسكار ، فأي مجد ! حتى هوليوود بكل أضوائها ما كانت لتستطيع أن تعطي السادات فرصة الظهور يومياً أمام ملايين المشاهدين على النحو الذي فعلته وسائل الاعلام .

واختارت مجلة «تايم»، أنور السادات ليكون رجل العام لسنة ١٩٧٧ «باعتباره كما قال محررو المجلة ـ الرجل الذي فرض ظله ـ الى الأفضل أو الأسوأ على مسار الأحداث في العالم على مدى الـ ١٢ شهراً الماضية»، مضافاً الى ذلك صورة غلاف ملونة و٢٢ صفحة كاملة بالداخل كان من بينها مواضيع بعناوين مثيرة مثل «الممثل ذو الارادة الحديدية»، و«نظرة في أعماق الفلاح الذي أصبح حاكماً»، وما الى ذلك.

ولكن لم تكن هذه المقالات ولا كل عبارات التقريظ التي أهالتها المجلة الأميركية وغيرها من الصحف الغربية على السادات هي التي استرعت نظري بقدر ما توقفت طويلاً عند صورة معينة بالذات أعتقد انها استطاعت أن تعبر أكثر من كل ما قيل من كلمات وأريق من مداد عن حقيقة ذلك الرجل الذي كانت حياتي كلها حينذاك تدور في فلكه.

كانت الصورة الملونة اخاذة بحق من الناحية الفنية. ولكنها مزعجة جداً لدلالتها السياسية. فهناك أمام اهرامات الجيزة كان يقف صاحبنا بوجهه البرونزي وحلته الأنيقة المخططة وحذائه الأسود اللامع الغائص في رمل صحراء الهرم، منتصب القامة رافع الرأس محدقاً بنظرة ملكية الى المجهول، تماماً كتلك التماثيل التي نراها لمعظم قدماء المصريين، بل ربما على نحو يفوقها جميعا. كان بكل المقاييس فرعونا عصريا في صورة أنور السادات. ولكن صورة «التايم» لم تكن لممثل يؤدي دور فرعون. وانما هو فرعون يؤدي دور الممثل. وظلت هذه الصورة تلاحق خيالي وما زالت حتى هذه اللحظة.

غير أن المصور الذي التقطها ـ ديفيد هيوم كنرلي ـ كان يرى الأمر بشكل آخر. ذلك أنه كان كعادته يحتفظ بالسر الكبير لغلاف «رجل العام» لحين نزول المجلة الى المطبعة، ولقد اتيح لشبكة «ايه. بي. سي» ان تقع على السر، حيث جاءتنا مكالمة هاتفية من أحد مصادرنا العليمة بالرئاسة أن السادات قد غادر استراحة القناطر بالهليوكبتر في طريقه الى استراحته الفاخرة المطلة على الأهرام (التي أزالها الرئيس مبارك عقب توليه السلطة) بزعم أنه سيعقد اجتماعا هناك مع كبار معاونيه. وفوجىء كنرلي بمصورينا هناك وكان ساعتها يستعد لالتقاط مجموعة صور «رجل العام» فصرخ في كبير طاقم المصورين، فرانك رينولدز بأعلى صوته:

ـ ما الذي أتى بك هنا؟ هذا ممنوع.

أجاب رينولدز بصوت لا يقل ارتفاعا:

ـ هذا مكان عام، وأنا أستطيع أن أكون حيث أريد أن أكون!

جرى هذا الحديث تحت سفح أبي الهول، حيث كان السادات يرتب وقفاته استعداداً للتصوير أمام خلفية من الأهرام وأبي الهول. ولما كان من الصعب ازاحة كنرلي أو رينولدز فقد قنع الأثنان بالاشتراك في التصوير. وكان واضحا أن وجودنا

قد أسعد السادات بقدر ما أزعج كنرلي، وان كان هذا الأخير قد «ضرب» بصورته «الفرعونية» كل ما التقطته كاميرات التلفزيون.

وفي نفس المساء، اذيعت من تلفزيون «ايه. بي. سي» قصة «رجل العام». وبعد أيام طار «رجل العام» الى واحدة أخرى من عشرات استراحاته الرسمية لينتظر هناك تحية الرئيس الأميركي جيمي كارتر الذي جاء عبر البحر الأحمر من السعودية ليلتقي بالسادات في أسوان، قبل أن يواصل طريقه الى باريس.

واستغرق اجتماع الرئيسين الذي جرت ترتيبات أمنه على عجل ٤٥ دقيقة تم خلالها تصفية ما تعكر نتيجة حديث كارتر التلفزيوني وما ثار حوله من جدل. وكان هذا أول لقاء بينهما بعد مبادرة السادات.

ثم ظهر الاثنان على شاشة التلفزيون، جنبا الى جنب، وقد اتفقت كلمتاهما تماما حول المسألة الفلسطينية. فقد قال كارتر انها يجب أن تسوى. وأنه يجب أن يكون للفلسطينيين الحق في تقرير مصيرهم. أما أن يكون هذا المصير على شكل دولة أو كيان أو وطن قومي أو حكم ذاتي كامل أو محدود فهذا ما ظل في غياهب المجهول. ولكي يبرهن كارتر للسادات أنه ليس منحازا الى بيجن كما نسب اليه أخذ يدور في كل اتجاه حسب ما تمليه المناسبة. والذي لا نزاع فيه أن الزيارة التي حظيت بأكبر قدر من الضجة الاعلامية لم تؤد الى النتيجة التي كان يريدها السادات. ولكنها اشبعت رغبات مصوري التلفزيون الذين جاءوا من كافة انحاء العالم، وبعضهم الكبار بصحبة كارتر نفسه حيث انتهزوا الفرصة ليجروا أحاديث صحافية مع الرئيسين.

غير أن البالون المشحون بالخفة والنشاط الذي كان يحلق في سماء مصر واسرائيل ما لبث أن انفجر فوق سيناء. وكان ذلك في منتصف يناير على يد بيجن، وصقر صقور اسرائيل ارئيل شارون الذي بدأ يقيم في غرب سيناء عددا من هياكل المستوطنات.

* * *

ومع أن بيجن وشارون كانا يعلمان جيدا ان السادات لن يقبل شيئا أقل من استرداد سيناء بالكامل الا أن شارون باعتباره المسؤول عن اقامة المستوطنات بالاراضي المحتلة بدأ ما سماه «خلق واقع جديد على الأرض» على هيئة هياكل المستوطنات لتكون ورقة جديدة للمساومة في يد اسرائيل.

ولقد وصلت المعلومات عن سلسلة «المستوطنات» الجديدة الى المخابرات المصرية في حينها، ولكن رد الفعل لم يظهر الا بعد ان ذاع النبأ في جميع انحاء العالم وتناقلته وكالات الانباء ووسائل الاعلام، ونشرت صور المستوطنات في العديد من الصحف والنشرات التلفزيونية. هنا فقط انفجر السادات قائلا في حديث نشرته مجلة

«اكتوبر» الناطقة باسمه «لن اسمح بوجود أية مستوطنات اسرائيلية على أرضي. وعليهم أن يزيلوها».

وبدأت صحف القاهرة حملة ضارية ضد بيجن اعادت الى الأذهان اسوأ ايام الحملات الدعائية المتبادلة بين مصر واسرائيل في سنوات الحرب. وظهرت في صحف السادات رسوم كاريكاتيرية تمثل بيجن في صورة شيلوك ويداه تقطران بالدم بعد اقتطاع اللحم من جسم غريمه، أو وهو يحلق فوق الأهرام قائلا «هذا المكان يصلح لاقامة مستوطنة جديدة».

واخذ كتاب الافتتاحيات الذين وضعهم السادات في مناصبهم يحذرون الاسرائيليين من تعطشهم للدم الكفيل بالقضاء عليهم في النهاية، وقال قائلهم «سوف نلعن اليوم الذي حلمنا فيه بأمل السلام مع هؤلاء القوم».

واضطر السادات اخيرا الى الاعتراف على لسان واحد من الصحافيين المقربين اليه - وهو انيس منصور - بأن «بيجن لم يقدم شيئا بالمرة. وانما انا الذي قدمت اليه كل شيء. قدمت اليه الأمن والشرعية ولم أحصل على أي شيء في المقابل. ولكن مبادرتي للسلام ليست فندق الملك داود الذي نسفه بيجن في صباه. فهو لن يستطيع نسف مبادرتي للسلام الا اذا نسف نفسه ونسف غيره معها لمئات السنين».

وفي هذا الجو المشحون بانعدام الثقة وتصاعد التوتر بدأت اللجنتان السياسية والعسكرية المتفق عليهما في قمة الاسماعيلية تتناوبان الاجتماع في القدس والقاهرة. بينما راح السادات يستجم في استراحته الشتوية بأسوان، وتوجهت أنا الى بروكسل لاخلاء شقتي هناك وتوديع اصدقائي في مقر عملي السابق.

ومع اجتماع اللجنة السياسية في القدس في يناير ١٩٧٨ طرت من بروكسل الى تل ابيب، حيث اقلتني من هناك سيارة شبكة «ايه. بي. سي» في ساعة من الزمان الى القدس. كان الطاقم المقيم هناك مسؤولا عن الوفد الاسرائيلي بقيادة موشى دايان، ومراسل وزارة الخارجية باري دانزمور مسؤولا عن تغطية الوفد الاميركي بقيادة سيروس فانس وزير الخارجية، وانا مسؤولة عن الوفد المصري بقيادة وزير الخارجية محمد ابراهيم كامل.

وكانت كل الدلائل تشير الى أن الاجتماع في هذا الجو لن يسفر عن شيء ذي بال ولن يكون افضل من الاجتماع الذي سبقه، غير اننا كنا مستعدين لأي من الاحتمالين: اما كسر الجمود أو كسر عملية السلام.

غير أني كان لدي احساس غريزي بأن السادات لا بد وان يقدم على حركة درامية. قد تكون الانسحاب أو ربما الاستقالة، أو اسدال الستار على عملية السلام بأسرها. ولذلك فقد اهبت بزملائي ان يعيدوني الى القاهرة فورا.. فهناك سيكون النبأ المثير.

ولم يكن هناك من وسيلة للوصول الى القاهرة في نفس المساء سوى باستئجار طائرة خاصة الى قبرص. وهذا ما حدث، ومن هناك طرنا الى القاهرة في طائرة شحن تابعة لشركة مصر للطيران كانت محملة بشحنة من الدجاج المجمد.

وفي اليوم التالي اعلن السادات اغلاق ملف محادثات السلام. وبعد يومين فقط من وصول الوفد المصري الى القدس، كان جميع أفراده يحزمون حقائبهم عائدين للقاهرة.

* * *

اما وقد توقفت مبادرة السلام عند هذا الطريق المسدود فقد ولى السادات وجهه شطر الولايات المتحدة. وبعد شهرين ونصف من زيارة القدس، كان في واشنطن يطرق بابا آخر. ولقد أدى الاعلام الاميركي دوره هنا احسن اداء. فاذا بالبيت الأبيض ووزارة الخارجية ووزارة الدفاع ولجنتي الشؤون الخارجية بمجلسي الكونجرس ورجال الأعمال والصناعة وحتى قادة الجالية اليهودية الأميركية كلهم يشاركون في معزوفة واحدة تكيل الثناء والمديح وقصائد الغزل والحب للرئيس المصري على مدى اسبوع كامل من التلميع تحت الاضواء. وتتوج هذا كله بنتائج استطلاعات الرأي التي اظهرت لأول مرة تحولا في نظرة الاميركيين الى النزاع العربي ـ الاسرائيلي، وهبوطا في التأييد الأميركي لاسرائيل لصالح بلد عربي هو مصر، وادراكا بأن مصر أكثر استعدادا للمساومة في سبيل السلام على عكس اسرائيل. ومن ناحية الشعبية أكدت استطلاعات الرأي أن السادات يتقدم على بيجن بعدة نقاط.. وكان في نظر الأكثرية بطلا، بينما بدا بيجن في دور الشرير.

وكان هذا بلا شك موضوعا سخيا لمزيد من التلميع الدعائي للسادات. ولو كان لديه مستشار للدعاية لكان من حق هذا المستشار أن يفخر بأنه حقق معجزة. ولكن السادات كان هو مدير الدعاية لنفسه. ولذلك فقد كان من حقه أن يزهو بالنجاح العظيم الذي احرزه، وبوسعه كذلك أن يستثمر هذا النجاح حتى تبدو صورته أكثر بريقاً، باعتباره الرجل الذي استطاع بمفرده أن يحدث كل هذا التحول في اتجاهات الرأي العام الأميركي، وتمكن خلال بضعة أسابيع من تغيير صورة العربي «المخادع القذر، المتعطش للحرب، غير المتحضر» في نظر الرأي العام الأميركي.

وهكذا ايقن السادات أنه قد حقق الهدف الأول من زيارته للقدس، ألا وهو زحزحة الولايات المتحدة عن موقفها المؤيد لاسرائيل. والآن عليه أن يدفعها الى ترجمة مبادرته الى عملية سلام. ولما كان متفائلا بطبعه، فقد كان واثقاً أن الولايات المتحدة سوف ترغم اسرائيل على دفع مقابل المبادرة.

ولكن هذه النتيجة كانت لا تزال معلقة بحبال الأمل. أما الآن، فيكفيه أنه أحرز انتصاراً معنوياً على العدو، وحقق نجاحا يتواضع دونه النجاح في اختراق خط

بارليف اثناء حرب ١٩٧٣. فها هو يدخل في رحاب الاستقبال الحافل الذي حظي به لدى الأميركيين. حكومة وشعباً على حد سواء.

وفي الأوقات التي لا يكون فيها يتحدث أو يتناول العشاء في البيت الأبيض أو في قاعات ودهاليز الكونجرس، كان السادات يعقد مجلس بلاطه في بلير هاوس. وهو قصر الضيافة الأميركي الرسمي لكبار الزوار، الذي يقع بالقرب من البيت الأبيض عبر ميدان لافاييت. وهنا، على أبواب بلير هاوس قضيت معظم ساعات هذا الأسبوع الحافل أتأمل السادات وأفكاره وتقلبات مزاجه وانجازاته وسقطاته وزواره. كنت قد عقدت العزم على أن اتابع السادات أينما ذهب. ولذلك فقد سبقته الى مطار قاعدة اندروز الجوية لأسجل وصوله ولأغطي اجتماع القمة المصرية ـ الأميركية من الزاوية المصرية. وباعتبار ان المقر الرئيسي لي هو القاهرة فقد كان يتعين علي أن انفذ الى اعماق الرئيس المصري وأن اوثق علاقتي به حتى تكون انبائي وتحليلاتي عنه مكتملة.

وكانت ملاحقتي له في الواقع ممتعة، لولا تلك اللحظات التي كنت اقضيها على باب بلير هاوس عند الفجر تحت الصقيع لأسجل على الهواء ماذا يقول السادات أو ماذا يفعل ومن يستقبل منذ ارسال تقريري الأخير في مساء اليوم السابق، وماذا ينتظر أن يفعل خلال الـ٢٤ ساعة المقبلة.

* * *

كان كل ما أفكر فيه وأنا احاول أن أجمع افكاري وما تيسر من معلومات عند الساعة السادسة صباحاً هو أن ملايين الأميركيين يستعدون في هذه اللحظة لبدء يومهم بمشاهدة برنامج «صباح الخير يا أميركا». بينما السادات لايزال مستغرقا في النوم.

ولما كان البرنامج الذي يستمر من ٧ الى ٩ صباحاً يتضمن مزيجاً من الأنباء، وأحوال الطقس، واخبار الرياضة والأحاديث على الهواء، والاعلانات التجارية، فقد كان من واجبي أن أغطي جانباً منه بتقرير واف عن كل ما جرى في الليلة السابقة ثم أهرع الى الاستوديو على بعد بضعة أميال لأجراء حديث سريع.

فالهدف من برنامج الصباح هو أن تعطي ملايين الأميركيين مادة يتحدثون عنها اثناء استراحة قبل الظهر. ومن ثم فهو لا يتظاهر بتقديم «تغذية ثقافية». ومن هنا فقد كانت المدة المخصصة لي وهي ٤٥ ثانية لا تتطلب دسامة معينة. وهذا بعكس برنامج «مساء الخير يا أميركا» الذي يريد مادة تبدو أكثر دسامة وخصوصاً عندما تقارن بالتقارير الأخرى الواردة من واشنطن أو تل أبيب، بحيث تكون المادة التي تشغل حديث ملايين الأميركيين على موائد العشاء اشد غزارة واكثر كثافة.

وعندما كان الرئيس المصري يراني في دهاليز البيت الأبيض أو يرتطم بي لدى كل مرة ينتقل فيها الى الكابيتول هيل او بين قاعاته كان لا بد له أن يستنتج أن شبكة تلفزيون بربارا والترز كما كان يسميها مهتمة كل الاهتمام به، وبوجهة نظر مصر - او بمعنى اصح وجهة نظره، وباذاعتها على الهواء عن طريق مندوبتها النشطة - التي هي أنا. وحتى عندما كانت هذه التقارير تتضمن بعض النقد فانه كان يعتبر هذا ثمنا يمكن أن يسمح به طالما لا يؤثر على صورته في أميركا. ولكن التركيز الشديد عليه من جانب شبكات التلفزيون الثلاث كان يتفق مع آخر ما كان يحلم به بعد زيارة القدس. وهكذا كانت المنفعة متبادلة. واذا كنت أنا اساعده على تلميع صورته بتقاريري التي تذاع من واشنطن مرتين كل يوم، فقد كان بدوره يساعدني على ابراز جهدي وجهد شبكة «ايه. بي. سي» التي اعتز بها، كما أن بابه المفتوح لي باستمرار أتاح لي مزيداً من القدرة على الاتصال بأقرب مساعديه ومستشاريه.

ولقد دفع هذا النجاح من جانبي بالشبكتين المنافستين الى استدعاء ممثليهم فورا من القاهرة للاحقتي في استقصاء أنباء السادات. وكان هذا نجاحاً اكيدا له. وتأكيدا مضافاً الى نجاحي. وعلى هذا النحو غادر السادات أميركا محاطا بحب واعجاب وتعاطف الاميركيين، وبجعبته أيضاً بعض طائرات «أف - ٥» التي كان قد طلبها، أو بمعنى أصح نصف المائة طائرة التي أراد الحصول عليها اثناء زيارته.

ومع أنه قال عنها أنها طائرات من الدرجة العاشرة اذا قورنت بطائرات «أف - ١٥ وأف - ١٦» التي كان يريدها اصلاً والتي تحصل عليها اسرائيل الا أنه كان سعيدا بالصفقة على أساس أنها أفضل من لا شيء، وأنها - وهذا هو الأهم - مجرد بداية لعلاقة عسكرية مع الولايات المتحدة كان يتوق اليها ولا تقل أهمية في نظره عن عملية السلام.

* * *

وفي اثناء غيابي بالولايات المتحدة، استطاع حسن بهجت أن يجد لمكتبنا مكاناً مناسباً على كورنيش النيل بايجار ١٢٠٠ جنيه في الشهر، ويطل على مبنى الاذاعة والتلفزيون، ويحسدنا عليه منافسونا في كل من شبكتي «ان. بي. سي» و«سي. بي. اس» وأصبح بحق أكبر مكتب اعلام اجنبي في القاهرة من حيث المكان وعدد العاملين.

غير أن نجاح مهمتي في الحصول على الانباء وتحليلها كان لا يمكن أن يعتمد فقط على وسائل الاعلام الرسمية، فنحن لا نستطيع ان نستقي الأخبار من مؤسسات الدعاية وحدها. ففي بلد مثل مصر، حيث الحكومة لا تسمح بنشر الا ما تعتقد أنه صالح للناس. يكون من الضروري جدا أن يلتمس المراسل مصادر اخرى

للمعلومات. واذا كان هذا يكلف كثيرا من الوقت الا أنه يكسب المراسل تجربة بالغة السخاء، خصوصا في العالم العربي، وخصوصا أيضا عندما تكون العلاقات قائمة على الثقة المتبادلة والاحترام والصدق. فبدون الاتصال المباشر، وبدون وجود اشخاص مستعدين لابلاغك بما يعرفون، أو على الأقل بارشادك الى المكان أو الشخص الذي تستطيع أن تعرف منه ما تريد معرفته، لن يكون هناك سبيل الى التوصل الى الابعاد الحقيقية لأية رواية تروى.

لذلك كان من الضروري اتخذ لنفسي مصادر في داخل الحكومة وخارجها وفي دهاليز السلك الدبلوماسي الغربي ممن يمكن أن يساعدوني في متابعة أي نبأ حتى أصل الى اقرب ما يكون من الحقيقة.. وخاصة مع الطبيعة الزئبقية للقصص، وبطلها.

وبالرغم من أن القاهرة واحدة من أعظم مدن العالم، فانها تحكم في الواقع كأنها قرية كبيرة. ودعك هنا من كل أحاديث السادات عن «الديمقراطية» و«الانتخابات الحرة» و«الاستفتاءات الشعبية» فهذا شيء لم يكن له وجود حقيقي، على الأقل كما نفهمه نحن في العالم الغربي. فالانتخابات والاستفتاءات كلها تنتهي بنتيجة ٩٩ر٩٨ في المائة.. وقد تتواضع احيانا الى ٣٤ر٩٧ في المائة، لصالح سياسة السادات الخارجية والداخلية. وهذه طبعاً مجرد ارقام لا علاقة لها بالواقع. فالقرارات كلها تتخذ وتفرض من القمة، من صفوة قليلة تمسك بيدها كل الخيوط، ولم يكن اقتحام هذه الحلقة الضيقة التي تسيطر على كل شيء مسألة بالغة الصعوبة، كما أني في الواقع وصلت القاهرة في أحسن وقت ممكن، حيث كان الحاكم الأوحد في مصر يحاول أن يبيع السلام لمصر ولاسرائيل وللولايات المتحدة، وحيث كانت دبلوماسية التلفزيون تنسج قصة حب جارف بين السادات وأميركا.

ولأنني كنت امثل في القاهرة واحدة من اقوى الشبكات التلفزيونية في العالم، ولكوني اجتماعية بطبيعتي، واتمتع بأنف حساس بحكم التجربة والدم العربي الذي يجري في عروقي، ولأنني أيضاً انثى، فان كل هذا جعل مهمتي غير صعبة، وان كنت أعترف أن قوة شبكة «ايه. بي. سي» الجبارة هي التي فتحت لي كل الأبواب المغلقة لاقامة أوسع الاتصالات بجميع مصادر الأخبار.

ولقد عشت في القاهرة حياة تختلف عن سائر المراسلين الأجانب الذي لا يرون في العاصمة المصرية سوى جسر للوثوب الى مكان أفضل أو منصب أرقى. فلا يتوقعن أحد لهؤلاء ان يقيموا علاقات متينة مع المصريين، جماعات أو افراداً. فالمصريون بطبيعتهم شعب ذكي ولماح. وسرعان ما يدركون موقف الاستعلاء الذي يتخذه المراسل الأجنبي حتى ولو حاول أن يخفيه. ويكون ردهم العملي على ذلك هو تجاهله. ومن هذا التجاهل يستفحل جهله. ولقد كان من حسن حظي أن أغلبية

المنافسين لي كانوا من هذا الطراز الأخير .. الأمر الذي جعل «ايه . بي . سي» دائما في المقدمة .

ولربما ساعدني ايضا الشقة الجميلة التي ورثتها عن سلفي ، في الطابق الثاني عشر من أعلى بناية بالقاهرة حينذاك ، تقوم على ٣٠ طابقا ، في مواجهة فندق الميريديان وتطل على النيل ، والقاهرة كلها حتى جبل المقطم ، وعلى حي جاردن سيتي الهادىء الممتد تحت شرفتي ، حيث كنت استطيع أن أرى الأهرام من مكاني .. وكان الجلوس في شرفتي متعة ، وان كنت في الواقع ، بسبب زحمة العمل ، لم يتيسير لي أن استمتع بها كثيراً .

الفصل السادس ..

في طريق مسدود

بعد ثلاثة أشهر فقط من زيارة القدس كانت مبادرة السادات قد تجمدت في مكانها، ومحادثات السلام واقفة عند طريق مسدود. وعادت الى اشدها حرب الكلام بين المصريين والاسرائيليين. وكان الفضل في هذا كله يعود في معظمه الى مفهوم مناحيم بيجن عن السلام الذي يسمح له بالتوسع في بناء المستوطنات بالضفة الغربية، مع الاصرار على رفض فك المستوطنات المقامة في سيناء التي «تنازل» فقبل اعادتها لمصر في مقابل الصلح.

وبينما أمل السلام يتسرب مبتعداً صدم المصريون - وان كانوا لم يفاجأوا - بأن يكون أول ضحايا مبادرة السادات هو يوسف السباعي رئيس مجلس ادارة ورئيس تحرير «الاهرام»، حيث لقى مصرعه في نيقوسيا على يد مجموعة من الفلسطينيين المتطرفين. وكان السباعي في الوقت نفسه نقيبا للصحافيين، ووزيرا سابقاً من غلاة الساداتيين، والحاكم بأمره في دنيا الصحافة المصرية، والرجل الذي تولى بنفسه قمع كل الأصوات المعارضة لمبادرة السادات بزعم أنهم شيوعيون وماركسيون، وان كان معظمهم ليسوا كذلك. وكانت مكافأته على ذلك أن صحبه السادات معه الى القدس. وكان هذا كافياً لكي تصبح راسه مطلوبة.

وما أن وصل الى السادات نبأ مقتله حتى اشتط به الغضب. وفي محاولة ساذجة لتقليد عملية عنتيبي، ارسل فريقا من الكوماندوز المصريين بالطائرة الى مطار لارنكا ليعيدوا الفلسطينيين الذين نفذوا عملية الاغتيال بالقوة من المطار حيث كان

المسؤولون القبرصيون يتفاوضون مع الفدائيين لاخلاء رهائن طائرة اختطفوها.

ولكن المحاولة انتهت بكارثة شنيعة راح ضحيتها بضع عشرات من أفضل جنود الكوماندوز المصريين.

واعيدت جثث الضحايا الى القاهرة. وعند تشييع القتلى الى مثواهم الأخير تحولت الجنازة الى مظاهرة ضخمة أرتفعت فيها شعارات «لا فلسطينيين بعد اليوم». وكان المتظاهرون يديرون لافتاتهم المكتوبة بحروف كبيرة نحونا كلما لمحوا كاميرات التلفزيون في اتجاههم.

ووجدها السادات فرصة ذهبية لتصفية التعاطف المصري التاريخي مع الفلسطينيين. ومع ان منظمة التحرير الفلسطينية ادانت اغتيال يوسف السباعي ووصفت مرتكبيه بأنهم مجرمون الا أن السادات ووسائل اعلامه انهالوا باللوم على المنظمة وزعيمها ياسر عرفات الذي ظهرت يداه ملطخة بالدم في العديد من الرسوم الكاريكاتيرية بالصحف المصرية.

كانت هذه أول مظاهرة معادية للفلسطينيين اشهدها في مصر. ومع أنها كانت منظمة ومرتبة من جانب الحكومة الا أنها في نفس الوقت كانت تعبر عن ذلك المزيج من المشاعر المختلطة لدى المصريين والناجمة عن احساسهم بالاحباط بعد أربع حروب باهظة الثمن ولم تؤد الى أية نتيجة من أجل القضية العربية. فالى جانب اللبنانيين والفلسطينيين أنفسهم كان المصريون هم الذين تحملوا العبء الأكبر لمأساة الفلسطينيين بشريا واقتصاديا واجتماعياً. ثم جاء اغتيال يوسف السباعي وسقوط عشرات الكوماندوز المصريين قتلى في مطار لارنكا، ليضيف مزيدا من المرارة التي يحس بها المصريون ازاء من قاتلوا وضحوا من أجلهم كل هذه السنين. ولكن مناحيم بيجن لم يعرف كيف يغتنم هذه الفرصة التاريخية. واذا كان هناك بعض السخط ضد الفلسطينيين، فان سخط المصريين على بيجن واسرائيل كان أكبر. وفي مواجهة هذا الوضع لم يكن أمام الجالية الفلسطينية في مصر، وتضم نحو ٤٠ الف نسمة الا أن تدبر أمرها.

والواقع أن الجالية الفلسطينية في مصر تنقسم الى فريقين:

فريق جاء واستوطن في مصر قبل حرب ١٩٤٨، ومعظمهم الآن يحملون جوازات سفر مصرية. والآخر مكون من أهالي قطاع غزة الذين هاجروا الى مصر بعد حرب ١٩٦٧ والاحتلال الاسرائيلي، وهؤلاء يحملون وثائق سفر، ويتمتعون بكثير من حقوق المواطنة، ولكنهم معفيون من التجنيد، كما أنهم استثنوا من قرارات التأميم الناصرية ومن ثم فقد تمتعوا دائما بوضع متميز في مصر، وكثير منهم لهم املاك وثروات واسعة فيها، كما أن هناك عددا غير قليل يعمل في القطاع المصرفي وفي التصدير والاستيراد.. باختصار هناك عدد كبير من الفلسطينيين كانوا

قد استقروا في مصر، واقاموا حياتهم على أساس العيش والموت بها، وبالتالي فلم يكن هذا النزاع الجديد بين حكومة السادات ومنظمة التحرير يعنيهم في شيء الا بقدر ما يؤثر على مصالحهم وحياتهم الشخصية، ولم يعد الاحتلال الاسرائيلي لبلادهم يمثل شيئا أكثر من مجرد ذكرى تتوارى شيئا فشيئا في غياهب النسيان.

ولكن المهاجرين الأحدث عهدا بالرحيل تحت وطأة الغزو الاسرائيلي كانوا تحت تأثير نظرية «ان المهاجر غريب اينما كان موقع هجرته» بكل ما تحمل هذه النظرية من احساس بعدم المساواة ومشاكل اجتماعية. وبالرغم من أن المصريين كانوا دائما يعاملونهم كأخوة، وبدون أية تفرقة، الا ان الشكوى من عدم المساواة والشعور بالغربة كانت تطفو على السطح كلما حدثت مشكلة أو تطلب امر ما اظهار جواز السفر أو الوثيقة. وكان من الطبيعي أن يبرز الشعور بالاضطهاد والحرمان من الوطن أو يخف حسب تطورات الاحداث.

ومع أحداث فبراير ١٩٧٨ وتصاعد الاستياء في الشارع المصري ضد القيادة الفلسطينية - «الناكرة للجميل» - كان الرأي السائد بين الفلسطينيين في مصر أن يبعدوا بأقصى ما تسمح به الظروف عن الوقوع في هذا المأزق السياسي، ولا يريدون بأية حال أن تسلط عليهم الأضواء، الأمر الذي سرعان ما اكتشفناه.

ففي اعقاب جنازة السباعي والفدائيين، اخذنا كاميراتنا ورحنا نصور نتائج الحادث من الزاوية الفلسطينية. وفي احد الشوارع التي قادنا اليها حسن بهجت، حيث يوجد متجران فلسطينيان متجاوران هنا من زمن غير قليل، كان كل ما لقيناه يداً قوية غطت عدسات الكاميرا، وأمراً صارماً بالانصراف بعيداً والا حطمت الكاميرا.

وكان الرجل على حق تماماً. فانصرفنا بكل تواضع. وباءت كل المحاولات الأخرى مع الفلسطينيين بالفشل. وأما عن عائلات قادة منظمة التحرير المقيمة في مصر فقد اثروا الانزواء بعيداً عن أضواء الاعلام. ولم يكن هناك سوى استثناءين اثنين لم تصل اليهما غضبة السادات، هما الدكتور أحمد صدقي الدجاني عضو اللجنة المركزية لمنظمة التحرير واستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة، وسعيد كمال نائب رئيس اللجنة السياسية بالمنظمة والرجل الذي يعتبر في نظر الكثيرين مصريا أكثر من المصريين، وقد رفض مغادرة القاهرة، وكانت نتيجة ذلك تجميد عضويته في منظمة التحرير.

* * *

ونعود الى السادات، الذي أصبح نجماً كبيراً لا غنى لكاميرات التلفزيون عن متابعته سواء ماتت مبادرته أو ظلت على قيد الحياة. فنحن وراءه اينما ذهب، نسجل كل حركة وكل نفس. ولما كان التلفزيون الاميركي هو الذي خلق النجم

وسواه ولعه، فلم يكن من السهل أن يهجره أو يهمله بهذه السرعة. وهكذا فان نشرات الأنباء اليومية لم تكن تخلو ابدا من شيء عن السادات. واعترف أني شخصيا قمت بدور كبير في هذا السبيل دون أن يخطر ببالي أني قد أنزلقت بقدمي في لعبة الضفادع والعقارب المختفية وراء كل قناع خداع.

وما أن جاء مارس ١٩٧٨ حتى وجدت مبادرة السلام الغارقة قشة تتعلق بها. فلما كان الأميركيون - كارتر والرأي العام معاً بما في ذلك جزء لا يستهان به من الجالية اليهودية بالولايات المتحدة - قد أظهروا اعجابهم بشهامة وسخاء السادات أكثر من تصلب وعناد بيجن - فقد قرر السادات أن يلقي بالكرة في حجر واشنطن، وسرعان ما التقطها المسؤولون هناك ليعيدوها الى الشرق الأوسط على نفس النمط المعهود الذي اثبت كيسنجر نجاحه من قبل، ألا وهو «دبلوماسية المكوك».

وجاء الفرد اثرتون مساعد وزير الخارجية الأميركية لشؤون الشرق الأدنى، وأخذ يتنقل كالمكوك بين القاهرة والقدس، باعتباره سفيراً متجولاً بالشرق الأوسط في محاولة للتوسط بين المصريين والاسرائيليين، مصحوبا في كل رحلة بذيل طويل من مراسلي التلفزيون ووكالات الانباء، وبالاضافة الى المراقبة اليومية لتحركات السادات، كان علينا أن نقضي ساعات طويلة في دهاليز وزارة الخارجية أو على باب الدكتور مصطفى خليل بالزمالك.

وكانت نهاية كل رحلة واحدة لا تتغير. فالباب ينفتح فجأة لينتفض المراسلون والمصورون في نوبة نشاط. ويخرج المتفاوضون الواحد بعد الآخر بينما المراسلون يلحون من أجل الحصول على شيء أكثر من «لا تعليق» أو «ليس من الحكمة الآن أن نخوض في أية تفاصيل».. أو «تبادلنا نقاشاً ودياً ومثمراً».

ولكن الاحساس العام كان ان مبادرة السادات لم تمت. وانما هي فقط في حالة شلل عام، وهناك محاولة اميركية جادة لانقاذها من الموت. وطالما الأمر كذلك فان في وسع السادات أن يبدو - في الظاهر على الأقل - صابراً متفائلا، بل وكريما ايضا! ومع أن اللجنة السياسية قد انهارت بعد يومين فقط من بدء اجتماعها بالقدس، فان اللجنة العسكرية مازالت قائمة من الناحية النظرية. وان كانت بدورها قد وصلت الى طريق مسدود وهي تناقش مبادىء الانسحاب الاسرائيلي، وبيجن من ناحيته لم يحاول استدعاءها من قصر الطاهرة حيث كانت تجرى المفاوضات.

واذا كان عزرا وايزمان لم يعد ينام في مخدع الملك فاروق، فان بقية الوفد الاسرائيلي، ٩ أشخاص، كانوا لازالوا يستمتعون بالتشمس في حدائق القصر الكبير، والاتصال بالهاتف والتلكس مع من يشاءون. ولكن وجودهم كان غير ملحوظ، حتى أنه كانت تمر ايام متتالية دون أن يرد عن اللجنة العسكرية أي نبأ في أجهزة الاعلام.

وأذكر مرة واحدة توجهنا ومعنا طاقم التصوير الى قصر الطاهرة في محاولة

لتحريك الأنباء.. وبعد ثلاثين دقيقة بالقرب من الباب وتحت مراقبة دقيقة من رجال الأمن، أمرنا بالانصراف وعدم العودة مرة اخرى.

غير أن الأمل في السلام مهما كان ضعيفا فقد كان كافيا لتجنب ارتفاع درجة حرارة السخط من الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية الى حد الاشتعال مثلما حدث في احداث يناير عام ١٩٧٧. ولكن مماطلة اسرائيل كانت فوق احتمال الفلسطينيين الذين استبد بهم الغضب. فلم تمض ايام بعد اغتيال يوسف السباعي حتى ضرب الفدائيون ضربتهم الثانية.. وكانت هذه المرة في قلب اسرائيل، حيث جاءوا من البحر بالقرب من الطريق الساحلي الممتد من حيفا الى تل ابيب، واستولوا على حافلتين اسرائيليتين واتخذوا من ركابهما رهائن. وكانت نتيجة الاصطدام بقوات الأمن الاسرائيلية وهي تحاول اخلاء سبيل الرهائن، مصرع أكثر من ٣٠ اسرائيليا واسرائيلية، الأمر الذي طار معه صواب حكومة بيجن واستدعى ضربة انتقامية عاجلة.

ولازالت اذكر عملية الليطاني بكل تفاصيلها. ليس لأن اسرائيل اقدمت على غزو جنوب لبنان في محاولة لخلق منطقة عازلة تطرد نشاط منظمة التحرير الى ما وراء نهر الليطاني، وانما لأنها كانت أول اختبار اسرائيلي جاد وعملي لحقيقة نوايا السادات السلامية. ولقد مرت عملية الليطاني دون رد فعل يذكر من السادات. بل بدا وكأنه يرحب بها. ولم يكن رد الفعل المصري بشكل عام من القوة بحيث يخيف اسرائيل. وكانت محصلته النهائية ان السادات ليس مستعداً للتراجع عن مبادرته للسلام لأي سبب أو تحت أي ظروف أو مخاطر من أي جهة كانت، وبالذات، اذا كانت هذه الجهة هي منظمة التحرير الفلسطينية التي بات يعتبرها عقبة. وبالتالي فان عملية الليطاني في نظره كانت لا أكثر من علقة لطفل شقي يستحق ما حدث له وان كان لم يقل ذلك علناً بكل هذا الوضوح.

وقد كان الغزو الاسرائيلي لجنوب لبنان كافياً لكي يعطي الوفد العسكري الاسرائيلي المعزول في قصر الطاهرة شيئاً يفعله. فحيث أن مهمة أعضاء الوفد التسعة قد اقتصرت الآن على أن يكونوا مجرد حلقة اتصال (ورمز على أن مبادرة السلام لم تمت بعد)، فانهم الآن قد أصبحوا مكلفين بتوضيح عملية الليطاني للمصريين من بدايتها الى نهايتها.

واذا كانت الحكومة المصرية قد شاركت رسميا في عملية الادانة العربية لعملية الليطاني، وطالبت اسرائيل بسحب قواتها بأسرع ما يمكن من الجنوب اللبناني، فان السادات والعسكريين المصريين الموالين له قد ابدوا ارتياحهم لتقارير الاسرائيليين لهم حول ما اسموه «الغارة على مواقع الارهابيين».

ولكن مع توقف عملية السلام عند طريق مسدود، فان الغزو الاسرائيلي لجنوب

لبنان في مارس ١٩٧٨ أضر كثيرا بصورة السادات المهزوزة أصلاً في العالم العربي، كما جعل صورته اكثر تشوها لدى اعدائه السياسيين في الداخل. غير ان السادات استفاد كثيراً مما قيل عن أن ادارة الرئيس كارتر قد اسمعت بيجن ودايان ما لا يحبان اثناء زيارتهما لواشنطن، في الوقت الذي ابدت فيه هذه الادارة منتهى التقدير والاعجاب بموقف السادات من عملية السلام، وقد ساعده هذا على صعيد العلاقات العامة.

* * *

ومع ذلك فلم يكتف السادات بما تقدم، وانما اسرع يدعو الى مصر الوزير الاسرائيلي الوحيد الذي احبه ووثق به أكثر من أي شخص آخر ألا وهو عزرا وايزمان وزير الدفاع، عسى أن يكون في حضوره بعض ما يخفف مما احاط به من حرج ومهانة بسبب الغزو الاسرائيلي.

وجاء وايزمان وبصحبته اهارون باراك، وحملتهما طائرة هيلكوبتر الى استراحة القناطر على بعد ١٥ كيلومترا شمال القاهرة لاجراء محادثات احيطت بالسرية التامة، ومنع من الوصول الى مكانها كل المراسلين الأجانب. وكان كل ما حصلنا عليه لقطة لوصول الهيلكوبتر، واخرى لمغادرتها، ومعهما عدة لقطات لتجمعات رجال الأمن المحيطين بالاستراحة على بعد مئات الأمتار.

وهكذا عندما وصلت الى مكتبنا في المساء لم يكن لدى اية قصة أرويها. فلم أكن متأكدة حتى من أن وايزمان كان بالطائرة التي وصلت ثم غادرت. ومن ادراني، ألا يحتمل أن يكون الزائر هو بيجن نفسه أو ياسر عرفات، أو ربما الثلاثة معاً! أو لعله لم يكن بها أحد على الاطلاق!

غير ان التلفزيون المصري كان هو الذي خف لنجدتي، فقد كان مصوروه هم الوحيدون الذين سمح لهم بدخول استراحة القناطر. وقد استجابوا لالتماسنا. وفي لحظة الارسال لنيويورك بالقمر الصناعي كان بوسعي أن ابث الرسالة التالية معززة بالصور:

هذه أول رحلة لوزير الدفاع الاسرائيلي منذ توقف المحادثات العسكرية منذ نحو شهرين. ولعل المسؤولين كانوا يفضلون ألا يعرف أحد بعودته. فلم يقل أحد للشعب المصري شيئا عن زيارة وايزمان. وتدابير الأمن لا نظير لها ابتداء من المطار حتى استراحة الرئيس بالقناطر، ومن هناك حتى قصر الطاهرة حيث ينتظر أن يقضي وايزمان ليلته. ولم يسمح لغير تلفزيون القاهرة بتسجيل وصول وايزمان والمصافحة بالأيدي والابتسامات المتبادلة. ولكن يبدو أن الرئيس المصري لم يحصل من وايزمان على شيء أكثر من الابتسامة. فهو لم يحمل معه اية مقترحات سلامية جديدة من

اسرائيل ، ولا ما يدل على وجود موقف جديد من قضية الضفة الغربية أو المسألة الفلسطينية . فقط كان هناك عرض لحل مشكلة سيناء . وقد رفضه السادات . فلم يكن العرض كافيا لاستئناف محادثات السلام .

وتقول المصادر القريبة من الرئيس المصري أنه غضب للغاية ، وأنه يحس بأنه خدع من الاسرائيليين الذين يحاولون تسجيل انتصارات على حسابه في مجال العلاقات العامة . ومع ذلك فان بعض المراقبين المصريين يقولون أن لقاء اليوم لم يكن فشلا كاملا على الأقل بالنسبة للمصريين . فقد أكد السادات أنه ليس معنيا باتفاق منفصل مع اسرائيل ، الأمر الذي سيعزز مكانته في العالم العربي . كما أن اللقاء سوف يدفع الأميركيين الى التحرك على نحو أفضل .

أما الليلة فلا يمكن لأحد حتى في وزارة الخارجية أن يعرف ما اذا كان وايزمان لازال في القاهرة أم عاد الى تل ابيب . ولذلك فلا يمكن التنبؤ بما سيحدث في الغد .

* * *

كان معظمنا ـ نحن مراسلي الاعلام الغربي ـ على معرفة جيدة بوجود فريق من الدبلوماسيين المحنكين المحيطين بالسادات في وزارة الخارجية . كانوا مجموعة رائعة بحق من الخبراء القانونيين وموظفي الخارجية الذين يستيقظون كل صباح وهم يتساءلون في فزع عما يكون السادات قد قدمه من تنازلات في المساء .

كانوا في معظمهم ، وفي مقدمتهم وزير الخارجية محمد ابراهيم كامل ووزير الدولة للشؤون الخارجية بطرس غالي ، ومساعد وزير الخارجية اسامة الباز (الذي حرر بنفسه معظم خطاب السادات في الكنيست) ، وطنيين صادقين ، ومؤمنين بالقضية الفلسطينية وحتمية الانسحاب الاسرائيلي من الأرض المحتلة وضرورة الحل العادل للمشكلة الفلسطينية على أساس حق تقرير المصير .

ولكن السادات السابح في عالم الأوهام والخيالات لم يكن يحب التعامل مع المنطق المزعج الذي يقوم على المسببات والنتائج والذي يعرقل في اعتقاده حلم المبادرة . ولذلك فقد كان من مهام وزارة الخارجية هو أن تذكره من وقت لآخر بأن هناك أشياء معينة لا يجوز له أن يقدم عليها باسم السلام . وكان السادات بالتالي يستغل وجود هؤلاء المتشددين في مجادلاته مع الاسرائيليين بدعوى أنه ايضا يحب أن يفكر في ما يقوله ناقدوه .

ولما كان السادات يدرك جيدا ان وزارة خارجيته لم تكن مرتاحة اصلا لزيارته للقدس ، ويشك كثيرا في أن كبار من بقي من رجالها لا يساندونه كما يجب في مبادرته ، فان هذا جعله باستمرار شديد العصبية والقلق حول مواقف الدبلوماسيين العاملين في خدمته . غير أن هذا لم يمنعه من المضي قدما . فمصر في النهاية هي السادات ، ولا احد غيره . ولكن مع كل يوم يمر دون أن تظهر أية نتيجة ايجابية

لزيارته للقدس فان أكثر مساعديه فضلا عن السعوديين والاردنيين كانوا يزدادون توجسا ازاء كل حركة يقوم بها أو كلمة ينطقها.

وكانت النتيجة انه أصبح أكثر فأكثر لا يستمع الا الى نفسه، ونادرا ما يستشير وزراءه أو مساعديه حول القرارات المهمة بشأن مبادرته. كان يدرك جيدا أنهم يفتشون وراء اية بادرة تدل على أنه قرر أن يبيع صفقة الصلح المنفرد الذي اقسم أنه لن يعقده ابدا مع اسرائيل. ومع الهوة بلا قرار التي وصلت اليها مبادرة السلام في أواخر مارس ١٩٧٨، وفزع السادات من احتمال سقوطها نهائيا، وان «رسالته المقدسة» كانت عبثا لا طائل من ورائه، فان علاقة التناقض الخفي بين السادات ووزارة خارجيته تطورت الى نوع من عدم الثقة المتبادل بين الطرفين. وكان واضحا ان المتشددين في وزارة الخارجية يعارضون سرا في زيارة وايزمان ولعل هذا كان السبب في ان الدعوة وجهت باسم وزير الدفاع الجمسي الذي كان أسهل تناولا من العاملين بوزارة الخارجية. ومن ناحية اخرى فقد كان مفهوما أن القائدين العسكريين كانا على علاقة شخصية طيبة، ولا زال الاتصال قائما بينهما عن طريق الخط المباشر بقصر الطاهرة، حيث يقيم الوفد العسكري الاسرائيلي. وهكذا، فان الجمسي ونائب الرئيس حسني مبارك (الذي كان السادات يثق في ولائه له رغم أنه كان أكثر اقترابا من المتشددين من امثال اسامة الباز) - هذان الاثنان فقط هما اللذان شهدا محادثات السادات مع وايزمان.

ووفقا لرواية وايزمان عما حدث في هذا اللقاء - وهي الرواية الوحيدة المعلنة حتى الآن - فان السادات كان غاضبا وساخطا على الاسرائيليين وخصوصا رئيس الوزراء مناحيم بيجن الذي قال عنه انه لن يقابله مرة اخرى حتى يثبت هذا أنه مستعد لقدر أكبر من الوفاء.

ونسب وايزمان الى السادات قوله انه مضطر لتذكيره مرة اخرى انه لا يمكن أن يقوم سلام بدون حل المشكلة الفلسطينية، وان الصلح المنفرد بين مصر واسرائيل لن يخدم مصالح أي من البلدين. غير أن السادات عاد فقدم اقتراحا جديدا اعتبره وايزمان مبالغة في الكرم حتى بمقاييس السادات ذاته. ففي ما يتصل بمنظمة التحرير الفلسطينية أو الدولة الفلسطينية قال السادات بوضوح انه شخصيا لا يعتبر نفسه ملتزما بهذه او تلك، ولكن لو قال ذلك لبيجن فسوف يعلن هذا رأيه للعالم اجمع. وبدا ان كل ما يريده السادات هو انسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة مع السماح باقامة نقاط عسكرية اسرائيلية كحل لمشكلة الأمن.

وعندما قال وايزمان انه لا مجال بالمرة لمناقشة انسحاب اسرائيل بالكامل من الضفة الغربية قال السادات انه يكفيه أن يقول الاسرائيليون انهم مستعدون للانسحاب، أما في ما يتعلق بموضوع السيادة فوق الضفة الغربية فقد قال السادات

انه مستعد لأن يترك هذه النقطة مفتوحة، وليحتفظ الاسرائيليون بمستوطناتهم هناك.

وهكذا فبالرغم من غضب السادات الظاهر الا أن وايزمان في الواقع حصل على أكثر مما كان مستعدا للمساومة عليه. ولكنه وهو يستعد للمغادرة الى اسرائيل في اليوم التالي تلقى فجأة استدعاء لمقابلة عاجلة مع الرئيس في استراحة القناطر، حيث وجد السادات وهو في حالة ثورة يسحب كل ما قاله بالامس. وبدا واضحا انه غير رأيه، فقد التقى في اليوم السابق ـ عقب اجتماعه مع وايزمان ـ بوفد من المسؤولين الفلسطينين بقطاع غزة، حيث اوضح له هؤلاء بما لا يقبل الشك انهم لن يرضوا بأقل من حق تقرير المصير الذي يكون على شكل استفتاء عام حول مستقبل الضفة والقطاع. وقال السادات انه يحتاج في هذه المرحلة الى تأييد الفلسطينيين.

ولا يعرف أحد على وجه التحديد من الذي كان وراء تغيير السادات لرأيه، هل هم حقا ممثلو قطاع غزة ام المسؤولون في وزارة الخارجية، ولكن الذي حدث هو ان السادات قال انه لا بد من احترام الواقع السياسي، وان على وايزمان ان يقنع بيجن بأن يكون أكثر مرونة وان يقبل برابطة بين الضفة الغربية والاردن.

ولما كانت فكرة الاستفتاء العام مرفوضة تماما من حكومة بيجن، فان معنى هذا ان مفاوضات السلام قد عادت الى نفس الطريق المسدود. وبمجرد عودة وايزمان الى تل ابيب استدعى رئيس اركانه ليطلب منه اعداد الجيش للحرب.

وهكذا تمخضت دعوة وايزمان عن لا شيء.

* * *

وهكذا مرت تسعة شهور كاملة بعد قمة الاسماعيلية قبل ان يجتمع السادات وبيجن للمرة الثالثة في كامب ديفيد، كما مرت اربعة اشهر اخرى قبل ان يدعو السادات ثانية صديقه وزير الدفاع الاسرائيلي وايزمان لجولة اخرى من المحادثات المغلقة. فبعد هذا اللقاء الفاشل لم يعد امام السادات الا أن يدع الأمر برمته للاميركيين الذين لم يفقدوا الأمل في امكانية التوصل الى اعلان مبادىء، وهو كل ما كان السادات يريده ولم يحصل عليه في عيد الميلاد.

وبدأت سلسلة من التحركات الاميركية المكوكية بلا نتيجة. وانتهز مقرنا الرئيسي في نيويورك الفرصة فأوفد اثنين من مخرجينا في مهام في باريس ولندن. وفجأة، يوم ١٠ ابريل دخل علي زميلي المصري الذي كنا نسميه «جامبو» لاهث الانفاس، ممسكا بيده نص مشروع اميركي وافقت عليه مصر لاعلان المبادىء المنشود. ولم اصدق عيني. غير أننا اجرينا على الفور التحريات اللازمة وما أن تأكدنا من صحة الوثيقة حتى بادرت بالاتصال بمكتبنا الرئيسي في نيويورك وتقرر اذاعته في نفس

الليلة .

وفي الموعد المضروب ظهرت على شاشة التلفزيون . دورين كايز تتحدث اليكم من القاهرة !! وجرى النبأ كالتالي :

بناء على ما صرح به لنا مصدر كبير في القاهرة فانه يجرى حاليا اعداد اعلان مبادىء تم الاتفاق عليه بين المصريين والاسرائيليين والاميركيين . متضمنا النقاط التالية :

اولا : حق جميع البلدان الأطراف في نزاع الشرق الأوسط، مصر والاردن واسرائيل وسوريا ولبنان في السيادة والامن .

ثانيا : تتولى لجنة ثلاثية اردنية ـ اسرائيلية ـ فلسطينية الاشراف على الضفة الغربية وغزة المحتلين من قبل اسرائيل لمدة خمس سنوات .

ثالثا : في نهاية السنوات الخمس ، يتاح نوع من حق تقرير المصير ليس فقط بالنسبة للفلسطينيين ، وانما ايضا للمصريين والاردنيين والاسرائيليين الذين يعيشون في هذه المناطق .

وتقول مصادر «ايه . بي . سي » انه قبل ان توافق مصر واسرائيل على اعلان المبادىء هذا ينبغي القبول بفكرة اقامة اتحاد فيدرالي اردني فلسطيني .

وفي ما يتصل بسيناء ، تنخرط المستوطنات الاسرائيلية تحت السيادة المصرية . وتكون مصر مسؤولة عن امنها . كما يسمح باقامة مستوطنات مصرية بجوارها . وتشمل صفقة سيناء ايضا مطارين حربيين لاسرائيل هناك . فسوف يسمح لاسرائيل باستخدام قاعدتي اتزيون واوفيرا الجويتين حتى عام ١٩٨٢ . وتنسحب اسرائيل في غضون ١٨ شهرا ، ومن العريش ورأس محمد خلال الثلاثة اشهر الاولى . ولكن المشكلة الاساسية لا زالت باقية ، وهي الفلسطينيون . وبالنسبة للسادات لا يستطيع أحد سوى الملك حسين حل هذه المشكلة . وهناك انباء تقول أن العاهل الأردني سوف يجتمع مع السادات هذا الاسبوع .

أما بالنسبة للآن فان قوة دفع السلام على الأقل قد بدأت تتحرك بالرغم من كل الأنباء التي كانت تقول أنها لفظت انفاسها الأخيرة .

وفي نفس الليلة حضرت حفل استقبال بوزارة الخارجية ، وهناك حياني وزير الخارجية محمد ابراهيم كامل ، ونائبه بطرس غالي ، ولم تفتني ملاحظة الذهول الذي علا وجهيهما وهما يرياني . وان كان بطرس غالي قد رفض بلباقة ان ينفي ما ذكرناه عن اعلان المبادىء . وأحسست طوال وجودي أني محل حسد وغبطة كل زملائي من المراسلين الأجانب والمحليين .

ولم يصدر أي تأكيد رسمي لما أذعناه عن اعلان المبادىء . ولكننا تأكدنا بما لا يقبل الشك أن ما قلناه صحيح . بيد أن الملك حسين لم يحضر لأن واشنطن فشلت في اقناع الأردن والسعودية بالموافقة على اقتراح الاتحاد الفيدرالي الاردني ـ الفلسطيني ، كما فشلت في اقناع الاسرائيليين بالتخلي عن سيادتهم على مستوطناتهم

في سيناء .

ولكن اعلان المبادىء الذي اذعناه عاد الى الظهور مرة اخرى - مع بعض التعديلات - في اتفاقيتي كامب ديفيد ، بعد خمسة شهور .

* * *

بدأ صيف السادات الحار في ابريل قبل أن يهل صيف القاهرة بوقت قصير . فالغزو الاسرائيلي للبنان وعدم تحرك مبادرة السلام اجتمعا معا ليتيحا الفرصة لارتفاع الأصوات ضد المبادرة .

وشهدت لجنة الشؤون الخارجية بمجلس الشعب المصري مناقشة بالغة الحدة ، طالب فيها كثير من اعضائها بوقف مفاوضات السلام مع اسرائيل .

وجاء على لسان ليلى تكلا رئيسة اللجنة ما يلي بالحرف الواحد :

لقد استمرت محادثاتنا مع الاسرائيليين طوال الستة أشهر الماضية دون احراز اي تقدم . فاسرائيل لا زالت مصرة على رفض الانسحاب من الأرض العربية المحتلة وحق الفلسطينيين في وطنهم القومي . اننا كلنا نريد السلام ، ولكن الاستمرار في هذا الدرب لن يؤدي الا الى مزيد من اراقة الدماء . ان السلام الحقيقي ليس فقط استعادة سيناء . واما يتوقف اساسا على سلوك اسرائيل في هذه المنطقة . وقد آن الآوان لكي نغلق هذا الباب .

اما النائب المستقل محمود القاضي فقد كان اكثر صراحة حيث قال :

« اننا في موقف لا نحسد عليه ، ولا مثيل له في التاريخ . لقد تنكرنا لاشقائنا بينما نواصل الحديث الودي مع عدونا المشترك . ولو كان هذا قد تمخض عن اية نتيجة فربما يستحق المناقشة . أما والأمر كما نرى فقد آن الآوان لكي نضع حدا لأية محادثات مع العدو » .

وعبثا حاول بطرس غالي وزير الدولة للشؤون الخارجية تهدئة اعضاء اللجنة المعارضين بقوله أن المفاوضات من اجل انهاء ثلاثين عاما من النزاع بين العرب واسرائيل لا زالت في بدايتها ، « ولنفرض أن لدينا مريضا يعاني من السرطان ، وان شفاءه يتطلب اما عملية جراحية خطرة أو خمسين جلسة كهربائية ، فكيف يجوز لنا القول أن العلاج بهذه الطريقة قد فشل بعد جلستين فقط من الخمسين ؟ » .

ولكن معارضي الصلح مع اسرائيل لم يقتنعوا بهذا المنطق بل ازداد نقدهم حدة مع الأيام وان كانوا ما زالوا قلة ، ومحل تجاهل تام في صحف السادات في الداخل ، ومعجبيه في الخارج .

كانت ليلى تكلا بالذات، التي تجيد الانجليزية والفرنسية، مثلما تجيد العربية، من الوجوه المحببة لدى مشاهدي التلفزيون الأميركي، ليس فقط لأنها معروفة بولائها للغرب، وانما أيضاً لأنها كانت في نظري صوتاً معارضاً عاقلاً يمثل أصدق تمثيل التيار السياسي المعتدل في مصر.

ولكن أحاديثها معي كانت تختصر اختصاراً مخلاً عند اذاعتها في تلفزيون «ايه. بي. سي» أو ربما تهمل تماماً، اذ كان الوقت لا يكفيها والسادات معاً. وهكذا، فعلى مدى عام أو أكثر من مبادرة السادات، لم تتح الفرصة الكافية لمعرفة الرأي الآخر. كانت كل الأصوات المعارضة تقمع في الداخل وتهمل في الخارج، وخصوصاً على شاشة التلفزيون الأميركي حيث كان المأخوذون بمبادرة السادات تجاه اسرائيل على غير استعداد لاعطاء وقتهم لأي صوت معارض. واذا كان الأمر بعيداً عن الرقابة الفجة، الا أنه في النهاية كان ينتهي الى نفس النتيجة.

وفي مصر، أصبحت ليلى تكلا، وهي عضو معين في مجلس الشعب شوكة في جنب السادات، شوكة لا يستطيع انتزاعها أو التخلص منها ببساطة. كانت بديناميكيتها النشطة كرئيسة للجنة الشؤون الخارجية قد أصبحت محل تقدير واحترام كبيرين لدى أوساط صنع القرار في مصر وأميركا والعالم العربي الى حد لم يعد معه السادات يستطيع اسكاتها، دون أن ينجم عن ذلك فضيحة للديمقراطية.

والحق ان ليلى تكلا، مثل فريد للمرأة المصرية المثقفة. فقد ولدت لأسرة قبطية لها تاريخها العريق في العمل السياسي بمصر. وبعد أن أكملت دراسة الحقوق بجامعة القاهرة، التحقت بجامعة نيويورك، ثم جامعة كاليفورنيا من اجل الدكتوراه. وهناك التقت واحبت زميلاً مصرياً مسلماً هو كريم درويش، وتزوجت منه رغم المعارضة العنيفة من جانب أسرتها. وعاد الاثنان الى مصر، واستطاعا مع الأيام أن يفرضا احترامهما على الجميع.

وعندما قام السادات بمبادرته، كان كريم درويش قد أصبح مديراً لكلية الشرطة، بينما كانت ليلى قد أصبحت نجمة لامعة في الوسط السياسي والاجتماعي. وهكذا كان لدى السادات أكثر من سبب للضيق بمعارضة ليلى تكلا التي أخذت تزداد حدة ضد مبادرته، حتى وصلت الى حد الادانة، فلم يغفر لها حملتها ضده وهو الرجل الذي اعتاد الا يغفر لمعارضيه أبداً، فما البال بهذه السيدة التي لا تريد أن تعترف بما أسداه اليها يوم عينها عضواً بمجلس الشعب؟

* * *

بعد ستة أشهر من «استقبال الأبطال» الذي قوبل به أنور السادات عند عودته من القدس، استدار بكل قوته ليوجه الضربة الأولى من سلسلة طويلة من الضربات

على رأس «ديمقراطيته» التي طالما رفع عقيرته متباهياً بها. وقيل للناس ان بعض الفقاقيع الانتهازية تحاول أن تستغل الحريات الدستورية بمصر، ولا بد من ازالتها لانقاذ الديمقراطية من نفسها أو بمعنى أصح لانقاذ السادات من معارضيه.

وفي استفتاء عام جرى يوم ٢١ مايو ١٩٧٨، طلب من ١١ مليون ناخب - من مجموع الشعب المصري الذي كان تعداده حينذاك يقترب من ٤٠ مليوناً - ان يوافقوا على أن يضرب السادات بقوة معارضيه من اليسار واليمين على حد سواء. ومن أكثر من ١٠ ملايين ناخب أدلوا بأصواتهم قال ٩٨٫٢٩ بالمائة «نعم» أو هذا على الأقل ما طلب من وسائل الاعلام أن تعلنه. ولم يكن أمام أحد أي خيار في الأمر، فقد قالت وسائل الاعلام ما طلب منها أن تقوله. وقد يكون من العسير تقدير العدد الحقيقي لمن توجهوا لصناديق الانتخاب، أو عدد الذين صدقوا هذه الأرقام. ولكن المراسلين الأجانب الذين تجولوا بين لجان التصويت بالقاهرة بتصريح أو بغير تصريح من وزير الداخلية حينذاك، لم يشاهدوا من سكانها الذين يبلغ عددهم نحو ١٢ مليوناً، ويضمون نحو نصف مجموع الناخبين - أقول لم نشاهد شيئاً من هذه النسبة غير المعقولة لا بالآلاف ولا حتى بالمئات، وان كانت تقديرات السفارات الأجنبية تقول ان بضعة آلاف قد توجهوا بالفعل لصناديق الاستفتاء. بل أكثر من هذا لم أجد قاهرياً واحداً أعرفه أو أسأله ذهب للادلاء بصوته. وكان رأي الجميع بغير استثناء في هذه الأرقام الرسمية انها كاذبة، ومدعاة للسخرية. ولكن هذه «الاستفتاءات» العجيبة أصبحت احدى السمات المميزة لديمقراطية السادات التي كانت مجرد جهاز مفتاحه في يده، يديره حيث يشاء، يميناً فيسكتها، أو يساراً فيسمح لها بالمقدار الذي يناسبه.

وكان من الطبيعي ان تتضمن التقارير التي بعث بها المراسلون الأجانب لصحفهم واذاعاتهم بعض الشك في صحة الأرقام، وربما مدى الخطر الذي يمثله هذا الأسلوب على الديمقراطية. وكان هذا ولا شك يطفىء الى حد ما من الصورة المضيئة التي اعطيت للسادات في الغرب كله. فبطلنا لا يستطيع ولا يقوى على احتمال أي صوت معارض لمبادرته.

واذا كان التأييد الشعبي الكبير الذي حظيت به مبادرة السادات في أيامها الأولى، قد راح يتآكل بسرعة نتيجة الاستفزازات الاسرائيلية وتهاون أميركا ازاءها والمتاعب الاقتصادية المتزايدة فان من الصعب تصور ان هذا الانخفاض في شعبية السادات كان من فعل «العناصر الهدامة» التي خصها السادات بالاتهام. فلا الجناح اليميني - المتمثل الآن في حزب الوفد الجديد المنبثق من «الوفد» أقوى الأحزاب المصرية قبل ثورة ٢٣ يوليو، والذي يمثل مصالح الشريحة العليا من الطبقة الوسطى ولا حزب التجمع التقدمي الاشتراكي الذي يضم تحالفاً بين الماركسيين والناصريين

بقيادة خالد محيي الدين ـ أحد زملاء عبدالناصر في تنظيم الضباط الأحرار الذي قاد ثورة ٢٣ يوليو ، نقول لا هذا ولا ذاك ، ولا هما مجتمعين ، كانا في وضع يتيح لهما ازاحة السادات أو تشكيل خطر حقيقي ضده ، وان كان الوفد بحكم جذوره العميقة في الريف يمكن أن يشكل خطراً على المدى البعيد .

ولكن انقضاض السادات على المعارضة كان ضربة عنيفة لكل الآمال المتوقفة على انطلاق مصر في اتجاه ديمقراطية تعدد الاحزاب ... وحتى يقتنع من لم يقتنع بعد بصورة السادات الجديدة ـ صورة الدكتاتور صاحب القبضة الغليظة ـ راح يكيل اللوم لأولئك الذين أسهموا بكل طاقاتهم في تلميع صورته في الخارج «كرجل طيب شهم»، متهماً اياهم بتشويه الحقائق والتشكيك في زعامته .

ويبدو انه احس بأنه لا يستطيع أن يعادي الاعلام الأجنبي في وقت لا زال فيه شديد الحاجة اليه ففضل ـ بدلاً من اسكاتنا بالقوة ـ أن يدعونا الى استراحته الأنيقة بالقناطر ليلقي علينا محاضرة عن الحقيقة كما يجب أن نعرفها .

وبعد مقدمة بليغة قال فيها لذلك الحشد من المراسلين وآلات التصوير واجهزة التسجيل كم هو سعيد برؤيتهم جميعاً مرة أخرى ، راح على مدى ساعتين ونصف يعنفنا على أسلوبنا في نقل الأنباء للخارج ، على نحو لا يختلف كثيراً عن ناظر المدرسة عندما يؤدب تلاميذه الخارجين عن النظام بضربهم بالمسطرة على اطراف أصابعهم... فقد كنا مصدراً لاستياء هذا الزعيم العظيم رجل الدولة العالمي ، والحليف المخلص للغرب ، وصانع السلام الذي يحظى باعجاب واحترام «العالم كله»... وهكذا ، بدأ حديثه قائلاً :

«أقول لكم بصراحة أنني لست سعيداً بما قرأته في صحفكم أخيراً».

والمتهمون الرئيسيون ـ كما قيل لنا ـ هم أربعة من أهم المنظمات الاعلامية في العالم ، ألا وهي : «التايمز» اللندنية ، و«الجارديان»، والـ «بي . بي . سي» البريطانية ، والـ «نيويورك تايمز».

ومد يده الى كومة من الصحف على طاولة بجواره ليلتقط منها مقتبسات كانت في رأيه شهادات مادية على الحملة المغرضة ضد مصر ، والتي تعتمد على ذكر انصاف الحقائق والصور المزيفة ، والأحاديث المفتراة عن انهيار الاقتصاد المصري... وبصوت الرجل الكبير المجروح في كبريائه ، أخذ يذكرنا بأن الرقابة قد الغيت من مصر منذ أربع سنوات (هذه نصف الحقيقة . فالرقابة الغيت بالنسبة للمراسلين الأجانب فقط ، ولم تلغ بالنسبة لوسائل الاعلام في الداخل)، وانتقل من ذلك الى اننا ـ مثل معارضيه في الداخل ـ نستغل الحريات التي أسبغها علينا لنشوه الحقيقة .

وهنا انفجر قائلاً : «لو كنت ضد الديمقراطية ، هل كنت أقدم على اجراء استفتاء شعبي»؟ هذه ليست موسكو ، هذا بلد حر . ولا يوجد فيه من يسترق السمع على

مكالماتكم الهاتفية. (هذا أيضاً غير صحيح، فقد كنا جميعاً بلا استثناء نعرف ان تليفوناتنا مراقبة، وقد تأكد لدينا ذلك بأكثر من دليل خلال السنوات الثلاث التالية). ولما كانت وسائل الاعلام البريطانية لا تهمه بنفس ما يهمه الاعلام الأميركي والتأييد الأميركي لمبادرته، فقد ركز السادات هجومه على «التايمز» و«الجارديان» والاذاعة البريطانية، معنفاً اياها لأنها تعزف على نفس أنغام نقاده في مصر الذين لم يذكر أحداً منهم بالاسم، مكتفياً بوصفهم بأنهم «مجرد فقاقيع انتهازية طافية على السطح».

ولعل أبرز هؤلاء «الفقاقيع المتعبة» الذين اتهمهم السادات بأنهم يزودوننا «بالصور المزيفة» كان الكاتب والصحافي المصري المشهور محمد حسنين هيكل، رئيس تحرير صحيفة «الأهرام»، أكبر صحيفة في الشرق الأوسط سابقاً، وواحد من أقرب المقربين الى الزعيم الراحل جمال عبدالناصر، وكان أيضاً من أقرب أعوان السادات حتى سنة ١٩٧٤، عندما اختلف الاثنان حول تصميم السادات على ابعاد السوفيات عن محادثات السلام في الشرق الأوسط. ففي أعقاب انفجار الخلاف بينهما بدأ هيكل ينشر العديد من المقالات الناقدة لسياسات السادات في الصحف البريطانية والعربية والغربية عموماً وخصوصاً «الصنداي تايمز»، المعروفة بوقارها الشديد وتحريها الدقة في كل ما تنشره، والتي تعاقدت معه على نشر كتبه باللغة الانجليزية. وزاد من غضب السادات أنه في عدة لقاءات مع التلفزيون البريطاني والاذاعة البريطانية أخذ يعبر عن آرائه بصراحة موجهاً النقد المر لسياسات السادات وتصرفاته. وكان حديث السادات يقطر بالمرارة وهو يتحدث عن هيكل متحاشياً ذكر اسمه. والواقع ان هيكل الذي يجيد الحديث بالانجليزية والفرنسية بطلاقة كان من الوجوه الموثوق بها لدى مشاهدي التلفزيون الأميركي والأوروبي، ومن أجل ذلك، ولأن صوته كان مسموعاً في كل مكان، فان السادات اعتبره عدوه رقم واحد.

بيد أن هيكل الذي كان يرسل مقالاته من مسكنه الأنيق المطل على النيل، والذي تحف بجدرانه رفوف الكتب في معظم غرفه، كان أبعد ما يكون عن صفة المهيج الراديكالي الجماهيري. نعم، ربما كان يشعر بشيء من المرارة بسبب ما فقد من نفوذ طالما تمتع به لدى قمة السلطة. ولكن السادات قد كان أصبح شديد الحساسية لكل نقد. وكان يشعر بالخطر لا من ناحية الشرائح العليا من الطبقة المتوسطة فقد، بل من كل من يجرؤ على الاعلان برأيه ضده أو ادانة مبادرته أو نقد سياسته على الملأ. ومجرد احساسه بأنه في حاجة الى اسكات معارضيه بالقوة، عن طريق «استفتاء عام» من أجل «تعزيز الديمقراطية» كما قال كان في حد ذاته دليلاً حاسماً على انه ليس ذلك الزعيم العظيم الذي لا ينال منه شيء أو أحد...

كان هذا السلوك من السادات ينبيء عن شيء كامن في داخله كان نائماً منذ قام

بمبادرته قبل ستة أشهر ، شيء جعله لا يستطيع أن يفرق بين شخصه وسياسته فأي نقد لسياسته انما هو اساءة مباشرة لشخصه. وهذه جريمة في حقه لا يمكن أن يغتفرها ، بل لا بد أن يثأر لها.

واذا كان السادات يؤمن فعلاً بالسلام ، فالأمر المؤكد أنه لم يكن يؤمن بالديمقراطية ، وانما كان فقط يتظاهر بها ارضاء لأكبر وأقوى دولة ديمقراطية في العالم. حتى اذا ما خاض التجربة وجدها أصعب من أن يحتملها ، فقرر أن يسحقها سحقاً ، بحجة أن الأولوية يجب أن تعطى للسلام.

وتحت شعار أنه «رب العائلة المصرية»، بدا أنه هو وحده الذي يعرف مصلحة «أولاده وبناته»، كما اعتاد أن يردد في خطبه وأحاديثه ومقابلاته.

ولم يدرك أبداً ان هذا الأسلوب ينطوي على احتقار وازدراء لمواطنيه، وأن كثيرين من هؤلاء لا بد سيشعرون بالاهانة، وخاصة من كان منهم على حظ من التعليم أو المعرفة. فالشعب في رأيه لم ينضج بعد ليكون في مستوى الديمقراطية، هذا هو ما كانت تعنيه سياسته، ولذلك فان عليه هو، باعتباره رب العائلة أن يعنى بأمرهم، وينقذهم من أنفسهم.

ولكن السادات الدكتاتور اذا كان لم يعبأ كثيراً برأي أبناء وطنه فانه لم يكن يستطيع أن يتجاهل نقاده في الغرب، وخاصة الأميركيين الذين بدونهم ستموت مبادرته، ويموت هو معها. ولعل علاقة الهوى المشبوب التي ربطته بحبال أميركا، أو بمعنى أصح بأضواء التلفزيون الأميركي تفسر لماذا اختار صحيفة الـ «نيويورك تايمز» دون غيرها من وسائل الاعلام الأميركية ليصب عليها جام غضبه، مع اني - على سبيل المثال - أذعت من تلفزيون «ايه. بي. سي» العديد من الأنباء والتحليلات حول زيف الاستفتاء العام والورطة التي يعاني منها السادات سواء في وطنه، أو في العالم العربي. غير أن الواقع ان التلفزيون الأميركي، بالرغم من أن بعض ما أذعته بنفسي كان كفيلاً باثارة غضب السادات، الا أن اتجاهه السائد كان هو تلميع الجانب الايجابي للسادات، ليس لأن القائمين على شبكتنا التلفزيونية كانوا جاهلين بسلبياته، وانما كما كانوا يقولون دائماً «اننا نعرف ان الرجل دكتاتور. ولكن هذا ليس نبأ جديداً. النبأ الذي يستحق الاذاعة هو أي تطور لعملية السلام في الشرق الأوسط. هذا هو المهم، وبالتالي فما يهمنا اذاعته هو جهود السادات من أجل السلام».

ولعل السادات كان يدرك ذلك، فرأى ألا يتسرع فيصطدم مع التلفزيون الأميركي طالما هذا لا يزال محافظاً على عملية «تلميع صورته». ثم اننا في التلفزيون لم نكن نقدم شيئاً يماثل افتتاحيات الـ «نيويورك تايمز» اليومية. صحيح ان المعلق السياسي هوارد سميث، كان يقدم تحليلاً سياسياً لمدة خمس دقائق في نهاية نشرة

الأنباء المسائية التي تستغرق نصف ساعة، ولكنه كان يختار الموضوع حسب ما يحلو له. وفي تلك الفترة كان أي تحليل معاد للسادات لا يحظى باعجاب المشاهدين، ولا بموافقة أولي الأمر في شبكات التلفزيون. كان حلم السلام لا يزال ماثلاً أمام الجميع، ولا يجوز لأحد أن يفسده.

وما أن انتهت المحاضرة حول «الحقيقة» حتى بدأ على الفور مؤتمر صحافي. ولما كانت قد مضت عدة أسابيع منذ آخر فرصة سنحت للمراسلين كي يسألوا السادات بالتفصيل عن آخر تطورات مبادرته، فقد كان من المتوقع أن تدور أسئلة كثيرة حول هذا الموضوع. وكنت من ناحيتي قد أعددت ٨ أسئلة، واحداً منها فقط يتناول الوضع الداخلي والصور المتضاربة بشأنه. وعندما جاء دوري في الأسئلة كان هذا السؤال قد أجيب عليه بالفعل. ولذلك، فقد ركزت الأولوية في اسئلتي على موضوع السلام، وأنا أدرك جيداً أنني مع الأسلوب المعهود المعروف عن السادات، وكثرة وأوآته وتهتهاته قد لا يتاح لي أن أسأل أكثر من سؤال واحد فقلت:

سيدي الرئيس، ان الاتفاقية الثانية لفك الاشتباك في سيناء ستنتهي مدتها في اكتوبر المقبل، حيث يحل موعد تجديدها، فاذا لم يحدث أي تحرك لمبادرة السلام حتى ذلك الموعد، هل يعتبر أكتوبر الاختبار الحقيقي لمبادرتكم؟... أو بكلمات أخرى هل ستكونون مستعدين لوقف تجديدها؟

كان رد السادات على هذا السؤال كفيلاً بأن يتصدر عناوين الصحف في اليوم التالي، على نحو توارت معه كل الأنباء السيئة عن سياسته الداخلية. واستطاع الحاوي ان يفعلها مرة أخرى، ملوحاً بأن يخرج من تحت قبعته أرنب آخر. قال انه اذا ما ثبت له أن عملية السلام لم تثمر ثمرتها المرجوة، فانه قد لا يكتفي بعدم تجديد اتفاقية فك الاشتباك في سيناء، «وأرجو انه في ٢٣ يوليو المقبل ستكون هناك مفاجأة».واستطرد قائلاً انه اذا ما فشلت عروضه التي تقدم بها الى اسرائيل في ان تنتج شيئاً «فان هذا لن يكون نهاية العالم». ولنحاول طريقاً آخر... فلنحاول نظاماً آخر»... وبذلك كان السادات كمن يعطي انذاراً لكل من الأميركيين والاسرائيليين ان أمامهم شهرين اثنين للتحرك والا فمن يعرف ماذا يمكن أن يحدث؟ ماذا يمكن للسادات ـ الذي لا يستطيع أحد أن يتنبأ بخطوته التالية ـ أن يفعل؟ ثم ان انتهاء فترة الشهرين سيوافق العيد الثامن والعشرين لثورة يوليو. ولكي يوضح السادات انذاره على نحو أفضل أضاف: «ان قوة دفع السلام بدأت تذوي. ولكنها لم تتوقف. وان كان الوضع القائم فيه جمود بشكل ما الا انها لم تتجمد تماماً ولكنها تتحرك بطريقة التصوير البطيء».

التصوير البطيء؟ يا ربي! انه يستخدم نفس لغتنا!!

وانطلقنا خارجين نطوي المسافة بين القناطر والقاهرة لنبرق بالنبأ الهام ان

مبادرة السلام تعود لتطفو على السطح بعد التوقف الطويل.

* * *

وبعد أقل من أسبوع، أغلق السادات جريدة «حزب الوفد» المعارض، وأعلن حرمان رئيسه فؤاد سراج الدين من حقوقه السياسية... وأعلن حزب التجمع الوحدوي وقف نشاطه حتى لا يحظر تماماً بقانون يقيد حرياته السياسية، وهو القانون الذي أعده السادات ليمنع به من سماهم مراكز القوى قبل الثورة، والشيوعيين (سواء كانوا شيوعيين حقيقة أو في خياله) من شغل أية مراكز قيادية في الحكومة أو النقابات، أو الصناعة، أو الاعلام. وأصدر النواب اليساريون الثلاثة في مجلس الشعب بياناً للصحف قالوا فيه «ان القانون الذي أقره البرلمان مفعم بالغموض. فهو يهدد حرية الفكر ويعتبر انتهاكاً صريحاً للمادة ٤٠ من الدستور المصري الذي يحرم التفرقة على أساس الجنس أو الدين أو العقيدة أو الأصل أو اللغة، ويعتبر المصريين جميعاً سواسية أمام القانون». وزج بأكثر من ٤٠ شخصاً في السجن، من بينهم نائب في مجلس الشعب لأنهم قالوا لا للاستفتاء العام. وهو موقف تبنته نقابة المحامين التي قالت في بيان لها ان الاستفتاء غير دستوري. كذلك أوقف حزب التجمع جريدته «الأهالي» عن الصدور بعد أن أصبحت سلاحاً مشهراً ضد سياسة الحكومة.

فمنذ بداية الأخذ بالبرنامج الليبرالي السياسي، الذي فتح الطريق للنظام الحزبي في مصر عام ١٩٧٦ لأول مرة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، كانت قوى المعارضة الرسمية (بما فيها الوفد الجديد وله في مجلس الشعب ٢٤ مقعداً، والاشتراكيون ولهم ٧ مقاعد، والمستقلون ولهم ٢٨ مقعداً)، لا تمثل سوى أقلية صغيرة الى جوار حزب السادات الوطني الديمقراطي الذي كان له ٣٠٨ مقاعد من مجموع ٣٦٠ مقعداً في مجلس الشعب. ولكن صوتها كان يزداد قوة وارتفاعاً. وأصبحوا في نظر السادات مصدراً للمتاعب بما يثيرونه من قضايا مثل سوء استخدام الحكومة لمشاريع الاستثمار الأجنبية، وعدم نزاهة بعض الوزراء وارتفاع أسعار مواد الغذاء الى عنان السماء، وانفراد السادات بمبادرة السلام... الخ.

ومع ذلك، فان أول ضحايا ضربة السادات لم يكونوا من السياسيين. ولكن من الصحافيين العاملين بالداخل والخارج، حيث تم استدعاء اكثر من ٥٠ صحافياً لاستجوابهم بمعرفة المدعي الاشتراكي بتهمة «الاساءة الى مصر وتهديد الوحدة الوطنية». وصدرت الأوامر للعاملين بالخارج بالعودة لمساءلتهم بينما منع خمسة من أكبر الكتاب المصريين من مغادرة البلاد، وكان من بينهم محمد حسنين هيكل.

ومع ذلك، فان هذه الواقعة لم تجد طريقها الى شاشات التلفزيون الأميركي كأنها لم تكن مهمة بما فيه الكفاية!

ومع قدوم صيف ١٩٧٨، كان استحواذ فكرة «السادات وسلامه» على شبكات التلفزيون الأميركي قد أصبح شديد الارهاق لنا معشر المكلفين بمتابعته شخصياً. فمراسلو الشبكات الثلاث مطلوب منهم الآن أن يغطوا انباء الرئيس المصري بنفس الاهتمام الذي تغطي به أنباء الرئيس الأميركي، دون أن تكون لديهم الامكانيات الفنية والبشرية التي يتمتع بها زملاؤهم في واشنطن. والسادات لا يستقر في مكان واحد وانما هو دائم التنقل بين استراحاته العديدة المنتشرة في طول مصر وعرضها، فلا يبقى في أية استراحة منها أكثر من ثلاثة أيام. وحينما يفرغ من حالة «التأمل» في هذه الاستراحة أو تلك، كان يجوب البلاد ليلقي خطبه البليغة عن السلام والرخاء العظيم المقبل على الأبواب، ويضع حجر الأساس لمشروعات كانت حسب تحرياتي مجرد «مشروعات رمزية» لتتخذ منها الصحف والتلفزيون مادة للحديث عن النجاح الاقتصادي المشهود الذي يتأكد يوماً بعد يوم... ولو صدقت الأنباء التي كانت تقال للمصريين كل يوم عن بناء آلاف الوحدات السكنية للطبقات المتوسطة والفقيرة، وانتاج ملايين السلع وتشييد مئات المرافق التي دأبت أبواق الدعاية الرسمية على ترديدها لكانت مصر اليوم من أكثر بلدان العالم تقدماً وازدهاراً.

ثم ان غرام السادات بالتطلع الى بلاده من مكانه بالطائرة أكثر من رؤيتها من على الأرض، لم يكن بسبب دواعي الأمن فقط. بل لعلني اجرؤ فأقول ان السبب الأهم هو ان السادات وهو يتنقل بالهليوكبتر أو البوينج بين القاهرة ومسقط رأسه في ميت أبو الكوم، أو استراحته المفضلة في القناطر، أو احدى استراحتيه الفاخرتين في الاسماعيلية، أو قصره الصيفي بضاحية المعمورة قرب الاسكندرية، وعشرات الاستراحات في مدن مصر وقراها بالدلتا أو على طول نهر النيل أو شط القناة - أقول كان تفضيله للانتقال بطريق الجو هو أقل الوسائل ايلاماً - وان كان أكثرها كلفة حتى لا يكلف نفسه مشقة رؤية وسماع وشم الفقر الناشب أظفاره في عنق الملايين من أبناء شعبه على طول الطريق.

لقد كان السادات يدرك جيداً أنه لن يستطيع أبداً انجاز وعده للناس بأن الأوضاع الاقتصادية سوف تتحسن وان الرخاء سوف يعم بين يوم وليلة، أو بين سنة وأخرى. وبدلاً من أن يواجه المشكلة الحقيقية، آثر الهرب بالقفز فوقها محلقاً في السماء، وفضل أن يتجاوز ببصره الواقع المر فلا يرى في الأفق البعيد سوى قبس السلام الذي خلق منه بطلاً. ولكن انشغاله بحلم السلام على حساب المحنة الاقتصادية الرهيبة، بالاضافة الى موجة الفساد التي غرقت مصر فيها نتيجة سياسة الانفتاح ابتداء من عام ١٩٧٤ كلفته غالياً... كلفته حياته في النهاية.

وأذكر أني في تلك الأيام أجريت حسبة خرجت منها بنتيجة أن معدل ما يقضيه السادات من وقت محلقاً في الهواء بين السماء والأرض، وباستثناء رحلاته الطويلة

الى مقره الشتوي في أسوان يفوق بمراحل متوسط ما يقضيه الطيار التجاري المحترف على متن طائرته. وقد شجعني التأكد من هذه الحقيقة على ادراك حقيقة أخرى أهم كنت دائماً أشك فيها، تلك هي ان السادات في الواقع لم ينزل الأرض أبداً منذ زيارته للقدس... ولعلني لا ألومه هو على رغبته في البقاء فوق السحاب، بقدر ما ألوم التلفزيون الأميركي الذي زين الصورة له حتى اصبحت بالنسبة اليه نوعاً من الادمان.

غير ان ملاحقة السادات من القاهرة للفيوم للمنيا لطنطا لميت أبو الكوم أو غيرها من مدن الدلتا والصعيد كانت قد أصبحت مهمة شاقة فوق طاقة البشر. ولذلك فقد اتفقنا مع مكتبي تلفزيون «سي. بي. سي» و«ان. بي. سي» على نوع من تقسيم العمل. واذا كان وهج المبادرة قد بدأ يخف فان المسؤولين في شبكات التلفزيون الأميركي كانوا مصرين على أن السادات يجب أن يبقى نجماً تلفزيونياً من الدرجة الأولى، وعلينا أن نتابع كل حركاته وسكناته، فقد يخرج في أية لحظة شيئاً جديداً من جراب الحاوي.

* * *

وجاء صيف ١٩٧٨، وانتقل السادات وزوجته وابنته الصغرى جيهان وجيش حرسه الخاص الى مقره الصيفي بالمعمورة. وقد لفتت نظري ابنة السادات، وكان عمرها ١٨ سنة حينذاك، ومتزوجة منذ عامين من ابن اكبر ملياردير في مصر، عثمان أحمد عثمان. ولكن وجودها هنا في المعمورة بدون زوجها شجع الشائعات حول وجود خلاف شديد بين العروسين، أساسه ان الزوج يفضل صديقة له من أبناء الشعب على بنت الرئيس السادات، التي لم تكن قد ورثت من أمها شيئاً سوى اسمها، بينما هي صورة طبق الأصل من أبيها في الشكل، والانبهار بكل ما هو أميركي، وفي التصرفات التي جعلتها موضوعا لكثير من الاشاعات المتعلقة بالسلوك الشخصي.

وتعددت في تلك الفترة دعوة السادات الى الولايات المتحدة الا تكتفي بدور «الوسيط الأمين» وانما أن تصبح شريكاً كاملاً في المفاوضات.

ولكن المفاوضات ظلت جامدة في مكانها لا تتحرك. وظل السفير الأميركي المتجول الفرد اثرتون يواصل رحلاته المكوكية بين الاسكندرية والقدس دون التوصل الى نتيجة. ومر يوم ٢٣ يوليو، اليوم الذي حدده السادات موعداً لنفاد صبره دون أن يحدث شيء، ولم تقع المفاجأة التي وعد بها السادات.

وفي لحظة يأس طار السادات الى النمسا في محاولة أخيرة للانقاذ... حيث التقى هناك مع صديقه الحميم عزرا وايزمان، وزعيم حزب العمل شيمون بيريز، وكان على مراسلي التلفزيون الأميركي بالقاهرة أن يتبعوه الى سالزبورج ليبعثوا من هناك

بأنباء معتمة لا تدعو الى أي تفاؤل، وليس فيها سوى أخبار خفيفة. فكل ما حدث أن السادات ناشد صديقه وايزمان أن يطلب من بيجن العنيد أن يقدم أي شيء ينقذ به ماء وجهه في مقابل مبادرته، ولو مجرد لفتة تثير الانتباه مثل الانسحاب الى خط العريش - رأس محمد في سيناء بحيث يتاح للسادات ان يعلن انه سيجعل من العريش، عاصمة شبه جزيرة سيناء، مركزاً للحوار حول السلام في الشرق الأوسط، وان يقيم فوق جبل موسى مجمعاً للأديان السماوية الثلاثة، الاسلام، والمسيحية، واليهودية، عند دير سانت كاترين حتى قبل توقيع أي اتفاقية صلح مع اسرائيل.

وعاد الرئيس المصري الى مصر بخفي حنين. وطرت أنا الى انجلترا لأتابع محاولة أخرى لانقاذ مبادرة السلام، حيث اجتمع وزراء خارجية مصر واسرائيل والولايات المتحدة، في قلعة ليدز اجتماعاً أحيط بالسرية التامة بسبب تدابير الأمن، ولعل المجتمعين الثلاثة، محمد ابراهيم كامل، وموشي دايان، وسايروس فانس، كانوا يدركون أكثر من غيرهم ان اجتماعهم لن يفضي الى أية نتيجة. ولم يكن أمام مئات المراسلين والصحافيين المحليين والأجانب الذين تجمعوا خارج الأسوار والخنادق المحيطة بقلعة ليدز الا أن يستمتعوا بجمال الريف الانجليزي.

ومرة أخرى، يتأكد ان مبادرة السادات قد غاصت الى القاع، بلا أمل منظور في امكان انقاذها.

أما عن الرئيس المصري فقد عاد الى مصر مجروحاً بسبب رفض رئيس الوزراء الاسرائيلي العلني لمناشداته، وتصريحاته التي قال فيها أنه ليس لديه ما يقدمه للسادات في مقابل مبادرته، لا تنازلات هنا ولا هناك، لا في سيناء ولا في غيرها.

وكان جواب السادات على ذلك، طرد الوفد العسكري الاسرائيلي من قصر الطاهرة، وقوله انه غير مستعد بالمرة لاستئناف أية محادثات مع اسرائيل ما لم يوافق بيجن مقدماً على الانسحاب الكامل من الأراضي العربية المحتلة في ١٩٦٧. وفي الحال، ضاعفت الصحف المصرية حملتها ضد بيجن، بينما توقفت حملات نقاد السادات في الداخل وسائر العالم العربي في انتظار ما سيكون.

وفجأة، تغير الموقف ١٨٠ درجة.

فبعد أسبوع واحد، وصل الى الاسكندرية وزير الخارجية الأميركي سايروس فانس، وبين يديه المستقبل كله على شكل دعوة لمؤتمر قمة ثلاثي في «كامب ديفيد» يضم السادات وكارتر وبيجن.

وتلقف السادات الدعوة، وقبلها في الحال.

* * *

أما وقد غادر فانس الاسكندرية فلم يبق أمامنا ما نفعله سوى أن نرسل ما أمكن من تقارير وصور عن مصر قبيل «كامب ديفيد» وان تبقى عيوننا مفتوحة لنتابع أي

تحرك من الرئيس المصري الذي أصبح الآن أكثر انعزالاً في خلوته الرمضانية حيث كان «يتأمل» مستقبل مبادرته والسلام في الشرق الأوسط وأهم من هذا كله مستقبل نظامه.

وأذكر في هذه المناسبة، ان السادات قال ذات يوم في حديث لمجلة ألمانية أنه في شهر رمضان يحس دائماً انه في أحسن حالاته الذهنية والجسدية أكثر من أي وقت آخر، وان عقله يصبح في حالة من الصفاء تجعله يحس بأنه أقرب الى الله، وانه يستطيع أن يفهم كل شيء على نحو احسن... وكان مما قاله «انه يرى في هذه الحالة نورا يضيء له الدرب الذي ينبغي أن يسلكه لكي يؤدي رسالته»!!

في عشية المؤتمر، لا بد أن السادات راودته فكرة ان زميليه في مؤتمر القمة مناحيم بيجن وجيمي كارتر قد تملكهما مثله الاحساس بأنهما مبعوثان للعناية الالهية... وان كل واحد من الثلاثة يعتبر نفسه بدرجة أو أخرى رجل الأقدار. غير أن هذا اليقين لم يصل الى بعض المصريين، وبالذات العقائديين من اليمين واليسار الذين لا يرون شيئاً يبشر بالخير في تعصب بيجن الديني لما يسميه اسرائيل الكبرى، ويرتابون كل الارتياب في «رسالة» السادات السلامية، ولا يطمئنون كثيراً أو قليلاً لجيمي كارتر.

ويبدو انّ السادات كان ينزل عليه الوحي - أو يتوهم ذلك - اثناء خلواته التأملية سواء كان ذلك في الاسكندرية أو كامب ديفيد، وهذا ما كان يقلق أعوانه ومساعديه كل القلق ويجعلهم دائماً في حالة تخوف مما يمكن أن يحدث في مؤتمر قمة يعقد في أواخر شهر رمضان. وبينما أخذوا يعملون على مدى الأربع وعشرين ساعة في اعداد مشروع مصري للسلام الشامل يرضي العرب والفلسطينيين، وفي الوقت نفسه يتفق مع مبادرة السادات على الأقل مثلما أعلن هو عنها في خطابه بالكنيست الاسرائيلي كانوا يتساءلون في شك عن طبيعة الوحي الذي يمكن أن ينزل على السادات في أية لحظة. وحتى أقرب المقربين اليه،مع ان احداً لم يكن يستطيع أن يزعم انه قريب منه بما فيه الكفاية، لم يكن في وسعه أن يتنبأ بالاتجاه الذي يقرر السادات اتخاذه على ضوء ايمانه بأنه مبعوث العناية الالهية.

وجاء اليوم الموعود بعد اجازة قصيرة قضيت نصفها في جزيرة كريت ونصفها الآخر في سويسرا وألمانيا، وأصبحت بعدها مستعدة للسفر على طائرة الرئيس ضمن حاشيته في رحلتها الى واشنطن وكامب ديفيد، مع فترة توقف قصيرة في باريس.

كانت الطائرة البوينج ٧٠٧، مزدحمة على آخرها بالوفد المصري المتجه للمحادثات والمكون من ٩ أشخاص من وزارة السادات وأعوانه، وعدد كبير من الحرس الخاص ورجال الأمن، والناطقين الرسميين، ورؤساء تحرير الصحف الكبرى المصرية، ونجوم الاعلام ومراسلي شبكات التلفزيون الأميركية وطاقم كامل من

المصورين ومراسلي مجلتي «تايم» و«نيوزويك».

كانت هي نفس الطائرة التي حملت السادات الى القدس. ولكن السادات الآن كان شخصاً آخر غير سادات ذلك اليوم. ولم يكن هنالك ذلك الجو من الاثارة المسرحية الذي أحاط بزيارة القدس. وأعضاء الوفد المصري للمحادثات منكبون على أوراقهم التي تشكل وجهة نظر مصر كما سيعرضها رئيسهم على الرئيس الأميركي كارتر، عند اجتماعه به في أول جلسة.

كان ملحوظاً غياب المشير محمد عبدالغني الجمسي، وزير الدفاع. وقد استبعده السادات، دون أن يعرف أحد سبباً لذلك. فمن بين جميع رجال السادات كان الجمسي مشهوداً له بأنه من أكثرهم كفاءة وشعبية، كما كان معروفاً عنه أنه يؤيد قضية السلام على أسس معقولة ومشرفة... ولا أظنني أبالغ اذا قلنا أن كثيرين منا كانوا يحسون بالأسف لغيابه.

واذا كان الجمسي، قد لفت الأنظار بغيابه، فان أسامة الباز، أكثر أعضاء الوفد المصري ذكاء ونفوذاً ومقدرة، لفت الأنظار بحضوره. وقد استقطع جزءاً من وقته ليتحدث الينا. والحق انه بلغته الانجليزية الرفيعة التي أتقنها في جامعة هارفارد، وحسن استخدامه للكنايات والتوريات المعهودة في اللهجة الأميركية، كان من أكثر المسؤولين المصريين شعبية لدى المراسلين، ولا يفوقه في ذلك سوى السادات عندما يكون موضوع الحديث هو السلام، والولايات المتحدة واسرائيل والعرب والفلسطينيين.

ولما كان أسامة الباز على نقيض السادات تماماً، سواء في طريقة حديثه، أو حركاته أو سلوكه فان هذا أضاف الى عملنا جانباً درامياً وجعله اكثر اثارة.

وهكذا، بأسلوبه المباشر البعيد عن اللغو أخذ أسامة الباز يشرح لنا الموقف المصري، مؤكداً انه لا مجال للمساومة حول قضايا الأرض والسيادة. وان مصر والسادات بالذات، لن توافق بالمرة على أي حل جزئي أو صلح منفرد مع اسرائيل. وكان مما قال «اننا ذاهبون الى هذه القمة ونحن ندرك جيداً مدى تعقيد المشكلة التي تواجهنا. ومن ثم فنحن لسنا مبالغين في التفاؤل. فالسادات يسعى الآن الى شيء أكثر من مجرد اعلان للمبادىء، انه يريد الخطوط العريضة لاتفاقية سلام تصادق عليها وتؤيدها الولايات المتحدة. ولكن ليس معنى هذا ان هذه الاتفاقية يمكن أن توقع بأي ثمن».

وكان الباز صريحاً بلا مواربة وهو يتعرض في حديثه للموقف الاسرائيلي فقال: «انهم سيحاولون بكل ما وسعهم من جهد أن يحيدوا الولايات المتحدة، بل والغاء دورها. ونحن نعتقد انهم سيكونون أول من يسرب المعلومات الى المراسلين أثناء المحادثات، وفي رأينا ان هذه التسريبات هي التي ستقرر مصير القمة».

غير ان الموقف المصري كما شرحه لنا أسامة الباز لم يحسب حساباً للتقلبات المفاجئة التي تميزت بها مدرسة الصدمات الكهربائية في العمل السياسي، ولا حساب الرجل الوحيد في العالم الذي يستطيع بكل بساطة ان يمزق المشروع المصري اذا شاء، أو اذا وجده اكثر تشدداً مما يجب، الا وهو زميلنا في الرحلة الذي اختفى طوالها في مقصورته الخاصة خلف كابينة القيادة.

وحتى نتأكد من أن السادات موجود معنا على نفس الطائرة، طلبنا من المتحدث الصحافي سعد زغلول نصار ان يهيىء لنا لقاء مع الرئيس. ولكنه لم يكن من السهل عليه أن يدخل على الرئيس، كما كان من الصعب عليه ان يتحدث باسمه. ولعل هذا كان سر اختياره لهذه المهمة. ولذلك، فقد لجأنا الى مسؤولين أكبر حتى سمح لنا أخيراً بدخول مقصورة الرئيس، ودخل المراسلون الأميركيون الخمسة ليجدوا السادات مستعداً تماماً للكاميرات، ببذلته الداكنة المخططة، والغليون في فمه كاشفاً عن ابتسامة واسعة تدليلاً على تفاؤله وعزمه على أن يخرج من كامب ديفيد بشيء له قيمة، وحبذا لو كان هذا الشيء اتفاقية سلام، وان كان لم يقل ذلك بصراحة.

كان امام التلفزيون الأميركي عمل كبير ولا شك. واذا كان لقاؤنا مع الرئيس لم يستغرق سوى ١٥ ثانية من التصوير فان اعضاء الوفد كلهم كانوا تحت أيدينا وأعيننا، وان كان السادات قد تعمد تجاهلهم طوال الرحلة. ومع ذلك فانه لم يتجاهل رؤساء تحرير «الأهرام» و«الجمهورية» و«الأخبار» ووكالة أنباء الشرق الأوسط ومجلة «أكتوبر». فهؤلاء هم أجهزته لبيع بضاعته للمصريين في حالة نجاح القمة، أو للرد على الاسرائيليين اذا حاولوا تحميل مصر المسؤولية في حالة فشلها.

ومن بين هؤلاء كنت على علاقة طيبة مع اثنين هما محمد عبدالجواد رئيس مجلس ادارة وكالة أنباء الشرق الأوسط، وموسى صبري رئيس «الأخبار». وكان موسى صبري وهو صديق قديم للسادات منذ ما قبل الثورة أكثر الموجودين حماساً للرئيس، ومعرفة بحقيقة نواياه. وقد كان الاثنان يتقابلان كثيراً، ويتبادلان الحديث بالهاتف عدة مرات يومياً، ولم يكن سراً ان موسى صبري، يبلغ رئيسه بعناوين الصفحة الأولى وأهم ما فيها قبل أن تذهب للطبع. وكنا نعلم جميعاً انه مكلف من السادات «برعاية» المراسلين الأجانب (أي اقناعهم بعدم الابتعاد عن الخط المرسوم). ورغم ذلك فقد كنت أجده شخصاً لطيفاً، الى جوار انه مصدر مطلع. واحسب انه لم يكن يحب كثيراً مما يذيعه تلفزيون «ايه. بي. سي» على لساني. ومع ذلك فقد ظلت علاقاتنا صحية ومبنية على الاحترام المتبادل.

وبعد ان تحدثت مع موسى صبري، ومحمد عبدالجواد، وكل من تصورت ان لديه معلومة ما يمكن أن تفيد، توجهت الى مؤخرة الطائرة حيث وجدت عدداً من كبار

ضباط الحرس الخاص يلعبون الورق. فوقفت أتأملهم. سألني بعضهم عما اذا كنت أود أن أشاركهم فرفضت زاعمة انني لا أقامر أبداً، حتى ولا بحبات البلي. (ربما كان هذا غير صحيح، ولكني كنت أحاول دائماً الا أدع شيئاً يشوه صورتي)... ثم لماذا أقامر ونحن الآن مقبلون على أعظم مباراة في لعبة البوكر على مدى التاريخ؟

وأخيراً، هبطت الطائرة في قاعدة اندروز الجوية وأخذت مكاني في الصف نازلة على السلم مشغولة الفكر والبال باثنين فقط من اللاعبين... هما السادات وأسامة الباز، دون أن أتخيل انني لن ألتقي بأحدهما مرة أخرى، قبل أسبوعين.

* * *

كان ترتيب أسامة الباز هو الثالث في سلم وزارة الخارجية. ولكن كان واضحاً ان العبء الذي يحمله يفوق ما يحمله وزير الخارجية محمد ابراهيم كامل، ووزير الدولة بطرس غالي مجتمعين، وخاصة في المفاوضات مع اسرائيل والولايات المتحدة. وكان معروفاً عن الثلاثة أنهم متشددون وخاصة في ما يتصل بالتزامات مصر العربية وازاء القضية الفلسطينية. غير ان محمد ابراهيم كامل، كان واقعاً تحت ضغط عاملين، أولهما ان السادات في الحقيقة كان وزير خارجية نفسه، والثاني انه - أي كامل - كان رابع وزير خارجية يلي هذا المنصب منذ بدأ السادات مغامرة القدس. أما غالي، فمع انه معروف بعقليته القانونية، الا أن أهم صفاته هي خبرته بالدول الناطقة بالفرنسية.

وهنا نجد الأمر مختلفاً مع الباز. ففضلاً عن براعته في الصياغة، واتقانه فن المحاورة فقد كان معروفاً عنه انه مفاوض صلب المراس، قوي الحجة، سريع البديهة، وقد اكتسب خبرة كبيرة في مفاوضاته المطولة مع الاسرائيليين والأميركيين. وما كان ينقصه في بنيته الجسدية عوضه بذكاء غير عادي وقدرة على احراج أي خصم والزامه بحجته.

كان الباز بحق شحنة متفجرة من الديناميت... مدمن عمل، نادراً ما ينام ومع ذلك فقد كان يبدو نشيطاً يقظاً على الدوام. ولعل من أهم مميزاته انه يطرق الموضوع الذي يريد التحدث فيه رأساً وبدون أي لف أو دوران. ومن أجل ذلك، فقد كنت أرتاح اليه اكثر من أي شخص آخر. واذا كان بعض الناس قد اتهموه سراً بأنه انتهازي، لأنه فضل السير في ركاب السادات وضحى بالمبادىء حتى لا يلحق بمن عارضوا السادات الى عرض الطريق، غير ان الواقع انه ليس كذلك. فهو تلميذ اسماعيل فهمي، وزير الخارجية الأسبق الذي استقال احتجاجاً على مبادرة القدس. ولكنه أيضاً براجماتي. فهو يعرف تماماً قدراته وكفاءته. ولم يتصور أن يكون مرمياً في زاوية من زوايا النسيان في هذا الوقت الذي يتقرر فيه مصير الشرق الأوسط. بل ان استمراره في مكانه يتيح له أن يكبح جماح السادات الذي يمكن أن يذهب في

شططه الى أية مسافات.

وليس معنى هذا انه نجح مع السادات، فكثيراً ما أحسست أنه يعاني من الاحباط، بل ربما من الاشمئزاز من بعض التصرفات التي كان يقدم عليها الرئيس منفرداً دون روية في سياسته الداخلية والخارجية، دون ان تكون دائماً في صالح مصر، أو الشرق الأوسط، أو السلام.

والآن، والوفد المصري يعد نفسه لمواجهة الاسرائيليين والأميركيين حول مسألة من أهم مسائل التاريخ المعاصر، فقد أخذت أسأل نفسي الى أي مدى سوف يستسلم السادات حتى يبقي على صورته كبطل في أعين الغرب، وجيمي كارتر الذي كان يعتبره صديقه وسنده ومخلصه السياسي. واذا فعل، فكيف سيتسنى لأسامة الباز انقاذ ما يمكن انقاذه من مشروع الموقف المتشدد المنكب عليه الآن، والذي ما زالت تفاصيله سراً لا يعرفه أحد.

وهكذا، بينما كلمات الباز «أبداً. أبداً، لن نقبل تسوية جزئية أو اتفاقية صلح منفرَد مع اسرائيل» لا زالت ترن في أذني وقفت على ممر الطيران بقاعدة أندروز الجوية أرقب الرئيس المصري وأعوانه وهم يستقلون الهليوكبترات التي ستنقلهم الى احراش كامب ديفيد.

كان كارتر من بين الزعماء الثلاثة اكثرهم تعرضاً للخطر في حالة الفشل. فمركزه السياسي في الداخل والخارج كان لا يتحمل بحال من الأحوال أية هزيمة لسياسته الخارجية. ولو فشل في انجاز هدفه، ألا وهو الخروج باتفاق حول اطار للسلام في الشرق الأوسط فان فرصة فوزه بفترة رئاسة ثانية سوف تتضاءل للغاية.

ولأن الاختلاف في مفهوم السلام لدى كل من المصريين والاسرائيليين كان أبعد مما بين السماء والأرض فان احتمال الفشل حول المؤتمر الذي جاء بناءعلى مبادرة كارتر تحول الى رهان شخصي وسياسي على مستوى الحياة أو الموت. ولكن هذه الحقيقة لم تكن تعني بيجن في شيء، حيث لم يكن يهمه أن ينقذ مصير رئيس أميركي يبدي ارتياحه ولو بالقول - الى السادات أكثر من اقتناعه بأساليب رئيس الوزراء الاسرائيلي.

ولذلك فقد كانت كل التوقعات تقول انه يتعين على الرئيس المصري أن يقدم هو من جانبه كل التنازلات من أجل أن ينقذ صديقه، وأيضاً من أجل أن ينقذ مبادرته، ونفسه.

أما والرهان ضخم الى هذا الحد، فان الرئيس كارتر لم يكن راغبا في أن يجري كل شيء في السيرك على مشهد من العالم. فيكفي الآن ما قدمته دبلوماسية التلفزيون، والاستعراضات العامة، ومحاولات كسب النقاط عن طريق الدعاية والاعلام والمزايدات. ولذلك فلم يحدد كارتر موعداً نهائياً لاختتام القمة، وانما بدا

مصمماً بلا حدود على احتجاز السادات وبيجن في كامب ديفيد حتى يصل معهما الى صيغة متفق عليها، جاعلاً هذا هو الطريق الوحيد للخروج من المعسكر... أما ممثلو الصحافة والتلفزيون والاذاعة فعليهم أن ينتظروا بعيداً خارج المعسكر ما يلقى اليهم من أنباء عن طريق متحدث صحافي واحد... ولكن ممنوع الدخول.

وهكذا كان علينا أن نكتفي بالنشرة اليومية التي يلقيها الينا الناطق الصحافي جودي باول.

ومع ذلك، فقد كنا نستطيع بشكل أو آخر أن نستنتج ما يجري بالداخل، واذا كان جودي باول لا يقول من الذي قال كذا ومن الذي قال كيت ومن الذي رضي ومن الذي غضب، فقد استطعنا عن طريق الأسئلة الأخرى عمن قابل الرئيس اليوم مثلاً، أو متى استيقظ هذا هو ذاك من النوم، أن نفهم أن بيجن قد أصبح يمثل بموقفه مشكلة مستعصية.

وفي اليوم العاشر من سبتمبر، دعا كارتر ضيفيه الى جولة سياحية في حدائق كيتسبورج، حيث توجد المدافن الجماعية لضحايا واحدة من أكبر معارك الحرب الأهلية الأميركية. ومن ملاحظاتي الشخصية ايقنت ان هذه النزهة ليست بحال من الأحوال مكافأة من السجان كارتر لمسجونيه على حسن سلوكهما، فطوال النزهة لم يتبادل السادات وبيجن كلمة واحدة. أما المساعدون فكانوا أكثر اهتماماً بحديث كارتر عن المعركة التاريخية منهم بالتحدث مع بعضهم البعض حول معركة السلام.

وهنا فضلت ان اذهب الى واشنطن، أو بالتحديد الى فندق واشنطن، المحل المختار لمعظم المصريين حينما لا يكون لديهم شيء آخر يفعلونه، فهناك على الأقل يمكن أن اتبادل الاشاعات وآخر التوقعات مع الثنائي العائلي هدى توفيق وزوجها حمدي فؤاد، مراسلي «الجمهورية» و«الأهرام»، وغيرهما من الصحافيين المصريين الذين اعتادوا تناول الفطور يومياً في مطعم الفندق.

كذلك كان في وسعي رصد شهوة التبضع لدى المتحدث الصحافي باسم الرئيس المصري سعد زغلول نصار الذي لم يكن يفعل شيئاً سوى مشاركة الحرس الخاص للسادات في محاولة ابتياع واشنطن بأسرها.

ولكن وزير الاعلام المصري مرسي سعد الدين كان يبدو أكثر شعبية لدى الصحافيين والمراسلين الأجانب، وذلك لسبب بسيط، هو انه كان أكثر فهماً لاحتياجاتنا ومطالبنا، وأقل غروراً واعتداداً بذاته. ولعل هذا هو السبب الذي أدى الى ابعاده عن منصبه بمجرد عودة الوفد المصري الى القاهرة. وان كانت الاشاعات - الرسمية - أي المدبرة عن طريق الأجهزة الرسمية قالت ان ابعاده كان بسبب ولعه الزائد بالنساء والخمر...

ولولا مرسي سعد الدين، وشريفة أحمد الدبلوماسية الرائعة المسؤولة عن الاعلام في السفارة المصرية بواشنطن، لما استطاع المراسلون الخمسة الذين رافقوا السادات في طائرته من القاهرة - وأنا منهم - أن يحصلوا على أي شيء يفيد في قضاء مهمتهم التي جاءوا من أجلها، الا وهي تغطية نشاط الوفد المصري للمحادثات. وبالتأكيد ما كان لأحد منهما أن يعرف تماماً ماذا يجري خلف الأسوار المغلقة لكامب ديفيد، ولكنهما والملحق الصحافي محمد حقي، كانا على اتصال هاتفي مستمر بالوفد المصري في كامب ديفيد. وعن طريقهم استطعنا الحصول على ثلاث وثائق رسمية مصرية. الأولى حول مواقف الوفود الثلاثة قبل القمة. والثانية حول النتائج المحتملة التي ينتظر أن يسفر عنها الاجتماع. والثالثة حول الحملة الاعلامية على الصعيد العربي التي ستقوم بها مصر في حالة فشل المؤتمر.

وواضح ان تسريب هذه الوثائق لي كان عمداً، لأنه كان في مصلحة الجانب المصري في المؤتمر، مثلما كان في مصلحتي أيضاً أن أنفرد بهذه الأنباء.

وفي اليوم الحادي عشر، اتصل بي موسى صبري، رئيس تحرير صحيفة «الأخبار» القاهرية، ليفضي اليَّ «سراً» ان السادات قد طلب طائرة هليوكبتر. واضاف والأسى يقطر من كلماته «انه عائد اليوم للقاهرة. المسألة ميئوس منها تماماً. لن ينقذ القمة الآن الا معجزة».

وفي الحال أبرقت بالنبأ. فبعد ١١ يوماً كاملاً من «السجن» المشترك الاختياري كان الزعماء الثلاثة، السادات وكارتر وبيجن، لا يزالون في المربع رقم واحد. لم يتحركوا خطوة واحدة، ونسبت الخبر الى «مصدر مصري رفيع المستوى».

وهكذا فان الرئيس الأميركي، رغم تفرغه التام على مدى ١١ يوماً، ناسياً كل ما عدا مشكلة الشرق الأوسط في العالم اجمع، فشل في كسر السد المغلق الذي تجمدت عنده المحادثات المصرية - الاسرائيلية، ولن تكون هناك اتفاقية سلام بين مصر واسرائيل. ولم يكن ذلك بسبب السادات. لقد فعل الرجل كل ما بوسعه من اجل انقاذ مبادرته. وقدم تنازلات لا يدري كيف سيواجه شعبه والعرب بها على أمل ان يستطيع كارتر اقناع بيجن. ولكن - كما اعترف كارتر بنفسه فيما بعد - يبدو ان ثقة السادات به كانت أكثر مما يجب، بينما كانت ثقة بيجن به اقل مما يجب. (طالع مذكرات كارتر بعنوان «على طريق الايمان»، كولينز، ١٩٨٢). ومع ذلك فقد كان عليه ان يستثمر الايجابيات والسلبيات كما هي في الواقع، أي مرونة السادات في مواجهة تشدد معاونيه من امثال اسامة الباز، وتشدد بيجن في مواجهة مرونة معاونيه ووزرائه الذين اعتادوا ان يتشاور معهم، على عكس السادات الذي اعتاد ان يستمع الى ما يقوله أعوانه، ثم يبلغهم في النهاية بالرأي الذي اتخذه وحده قبل أن يجتمع بهم.

مع ترنح كامب ديفيد على هذا النحو على حافة الانهيار، انتاب كارتر - كما يقول - نوع من الفزع الجنوني. فلقد مرت به لحظات أحس فيها بخوف حقيقي على حياة السادات، رغم الحراسة الهائلة المحيطة بالمعسكر وفي داخله. وفي هذا يقول كارتر في كتابه عن أحداث الليلة التاسعة من مؤتمر القمة، وكيف انه لم ينم جيداً في تلك الليلة:

كنت قلقاً للغاية على حياة السادات. وأرقني التفكير في ما اذا كانت سلامته مكفولة هنا حقاً. فقد اكتشفت ان من بين الوفد المصري أشخاصاً ملتزمين الى أقصى حد بأهداف منظمة التحرير الفلسطينية، وأنهم في منتهى الامتعاض من بعض القرارات التي يتخذها السادات. ولم يفارق مخيلتي مشهد المناقشات الحامية التي شهدتها في جناحه. وتذكرت انه قبل ذلك في نفس الليلة كان أحد كبار مستشاري السادات قد حرف وجهة نظر السادات وهو يعرضها حول ما اذا كانت اسرائيل تستطيع اتخاذ أية قرارات بشأن عودة اللاجئين الفلسطينيين الى الضفة الغربية. وكان المفروض انه يتحدث عن مصر ولكنه لم يكن حتى قد ناقش الموضوع مع الرئيس. وتذكرت أيضاً انني عندما أردت في تلك الليلة أن أقابل السادات قال لي مساعدوه انه قد آوى لفراشه مبكراً على غير عادته ولا يمكن ازعاجه. وبعد منتصف الليل في نحو الساعة الرابعة صباحاً استيقظت لاتصل بمسؤولي المخابرات وبريجنسكس وأطلب منهم تشديد الحراسة على كوخ السادات وأن يضاعفوا يقظتهم لأي احتمال. وقد اتضح لي فيما بعد ان تخوفاتي كانت بلا أساس ولكني اعترف اني تنفست الصعداء بارتياح عظيم عندما رأيت السادات في صباح اليوم التالي في خير حال. «كارتر - على طريق الايمان».

والحق اني لأجد صعوبة كبيرة في أن أتصور أن رجلاً مثل اسامة الباز - وهو مساعد السادات الذي امتنع كارتر عن ذكر اسمه - كان يمكن أن يحاول الاطاحة بالسادات بانقلاب دموي أو غير دموي في غابات كامب ديفيد. فالباز وزملاؤه رغم كل آرائهم واتجاهاتهم «المتشددة» والمناقضة لتساهلات السادات كانوا من النوع الذي لا يمكن أن يفكر في انقلاب، أو على الأقل في انقلاب علني بهذا الشكل. ولو أخذنا الأمور بالشكل الذي أرق مضاجع كارتر لكان معنى هذا ان كامب ديفيد كان قد أصبح عشاً للمجانين.

ومع ذلك، فالرئيس الأميركي السابق يمكن أن يلتمس له بعض العذر. فالذي لا شك فيه انه كان قد أصبح مرهقاً جسدياً وذهنياً الى أقصى حد بعد كل هذا الجهد والعزلة في كامب ديفيد، خصوصاً وهو يوقن بعد تسعة أيام ان الفشل أقرب كثيراً من النجاح، ويدرك كم سيكلفه هذا الفشل.

وقد كان كارتر ادعى لأن يقلق لسبب آخر. فقد نما الى علمي في اليوم التالي ان محمد ابراهيم كامل وزير خارجية السادات قد استقال، ولكن استقالته لن تعلن الا

بعد القمة. وفي اليوم الحادي عشر كان السادات قد نفد صبره، فحزم ووفده حقائبهم استعداداً للعودة الى بلادهم.

وبينما كان الوفد المصري ينتظر الهليوكبتر التي ستنقله الى قاعدة اندروز الجوية، اتصل كارتر بالسادات، ليلقي اليه بآخر ورقة في جعبته، معتمداً على نقطة الضعف الرئيسية في شخصية الرئيس المصري، الا وهي صورته العالمية كصانع سلام. ووفقاً لما يقوله كارتر في مذكراته:

«شرحت للسادات العواقب الوخيمة لاقدامه على قطع المفاوضات من طرف واحد. وكيف أن تصرفه هذا سوف يضر بالعلاقات بين مصر والولايات المتحدة، وأنه بذلك يحنث في وعده الشخصي لي، وان مسؤولية الفشل سوف تقع على عاتقه. وقد بدا عنيداً في البداية. ولكني كنت في منتهى الجدية. وقد أدرك هو ذلك، فلم أكن في حياتي من قبل أكثر جدية مني في هذه الليلة، ورحت أسوق له حججاً أكثر قوة وأجدى للاقناع... فهو بهذا يتنكر علناً لالتزاماته ويشوه سمعته كأبرز صانع سلام في العالم، ويعترف بعدم جدوى زيارته المشهورة للقدس، وسيثبت للجميع ان اعداءه اللدودين في العالم العربي كانوا على حق عندما وصفوا مبادرته بالحماقة. وأخيراً طلبت منه انه يتعين عليه أن يبقى معي يوماً أو يومين، وبعدها اذا لم تتحسن الأحوال، سنتخذ كلنا نفس الاجراء الذي يريد أن يتخذه وحده الآن.

* * *

وفض السادات امتعته.

وبعد يومين اثنين، قبل أن يوغل ليل الأحد ١٧ سبتمبر في الظلام، تفتحت أبواب السماء، وتحدرت الكلمة من قمة الجبل كالرعد القاصف ان جاء الفرج. وتحت وابل من المطر تدافع مئات الصحافيين والمصورين ليسجلوا التاريخ. ولكنا أمرنا بالعودة للعاصمة، كما طلب من شبكات التلفزيون الثلاث أن تعد العدة لتسجيل اعلان هام على الهواء مباشرة من البيت الأبيض.

وشبكات التلفزيون في العادة تنفر من أي شيء يمكن أن يعطل برامجها التجارية وخاصة في مساء يوم الأحد، أكثر الأوقات ازدحاماً بالاعلانات، وأحفلها بالمنافسة بين الشبكات الثلاث.

ولم يكن هناك شيء في الوجود يمكن أن يقنع تلفزيون «ان. بي. سي» مثلاً بقطع مسلسل «كينج كونج»، واستبداله في هذا المساء بشيء آخر، حتى لو كان مسلسل «السادات بطل السلام في الشرق الأوسط»...

ولكن اللحظة التاريخية للسلام كانت تستحق، ولم يكن شيء سواها يمكن أن يقنع شبكات التلفزيون بادخال هذا التغيير المفاجىء على برامجها.

غير ان كامب ديفيد لسوء الحظ لم يجلب السلام للشرق الأوسط. واذا كانت أطر الاتفاقيتين اللتين عرضهما الرئيس كارتر على شاشة التلفزيون في ذلك المساء تمثل في حد ذاتها انتصاراً تاريخياً مرموقاً مدعماً بالأبطال والزينات، فان الشيء الواضح هو ان السادات لم يفعل أكثر من أنه وقع صلحاً منفرداً مع اسرائيل. وهو الأمر الذي أقسم منذ ذهابه الى القدس انه أبداً لن يفعله، والذي كان يمكن أن يحققه من سنوات بدون أن يخاطر بمغامرة القدس. فتحت ضغط لا يقاوم من الرئيس كارتر تحدى السادات كل معارضيه، بل كل معاونيه. وعلى عكس كل ما أعلنه قبلاً من مبادىء ها هو يوافق على توقيع اتفاقية صلح مع اسرائيل في غضون ثلاثة أشهر دون أن يحصل على أي التزام من اسرائيل بالانسحاب من الأراضي العربية المحتلة في ١٩٦٧. ورغم كل الغموض والابهام الذي اتسم به اطار الاتفاق الثاني المتعلق بالضفة الغربية وغزة، فلم يكن هناك مجال لشك يذكر في ان اسرائيل قد وافقت على اعادة سيناء الى مصر مقابل البقاء في الضفة وغزة.

لا عجب اذن في أن يصف مناحيم بيجن كامب ديفيد بأنه «مؤتمر جيمي كارتر»، وانه في اثناء الاحتفالات التلفزيونية المذاعة على الهواء مباشرة كان السادات هو أقل الأبطال الثلاثة ابتساماً، وأكثرهم اضطراباً، لدرجة انه اخطأ وهو يلقي كلمته أخطاء ربما كان لها دلالتها، فسمي مجلس الشيوخ الأميركي «الكنيست»... وسمى كامب ديفيد «ووترلو»!!.

ولا عجب أيضاً أن يكون آخر ضحايا مبادرة السادات حتى تلك اللحظة هو وزير خارجيته الرابع محمد ابراهيم كامل، الذي عبر عن موقفه بغيابه عن الاحتفال أبلغ تعبير.

* * *

كان عرضاً مأساوياً موجعاً للنفس والمشاعر. ونهاية موغلة في السخرية للرجل، ولكل ما كان يؤمن به أو على الأقل يردده طوال العشرة شهور الماضية. ولم يكن سهلا بالنسبة لنا، نحن الذين أهلنا كل صفات الشجاعة على هذا الزعيم العربي ان نراه بأعيننا وقد فقد شجاعته وأهال عليها التراب في دوج وود «غابة الكلب» بكامب ديفيد.

ووجدت نفسي أتمزق بين البكاء اشفاقاً عليه، أو غضباً منه. ولكني فضلت أن أهرع الى الاستديو حيث كانت تجرى التغطية الحية للحدث التاريخي، وتسجيل التعقيبات المناسبة حوله. وفي الأربعين ثانية التي خصصت لي قلت وأنا أكاد اختنق: «نعم... ان الشعب المصري الذي كان مهيئاً لاستقبال ما هو أسوأ سوف يستقبل السادات الآن استقبال الأبطال لدى عودته للقاهرة»، هذا ما قلته، اما شرح

وتحليل اتفاقيتي السلام، وأثرهما على مستقبل كارتر والسادات وبيجن والشرق الأوسط والمصالح الأميركية في المنطقة، فهذا أمر متروك لكبار المحللين والمعلقين في شبكة التلفزيون. فلم يكن مطلوباً من مراسلي الشبكة في القاهرة أو تل أبيب ان يشاركا في أية مناقشة للموضوع على الهواء. اما الرئيس السادات، فقد صرح لبربارا والترز، وغيرها من كبار المعلقين بالشبكات الثلاث، انه سعيد بما انتهت اليه مبادرته، وبكامب ديفيد، منكراً بشدة ان ما فعله كان عبارة عن صفقة منفردة مع اسرائيل. وأياً كان الأمر فانه يتوقع أن يتم كل شيء في غضون شهرين وليس ثلاثة أشهر كما هو مقرر.

وفي نفس الوقت، أكد بيجن بجلاء انه لا ينوي خيراً. فعلى النقيض مما جاء ضمناً في الاتفاقيتين، وعلى عكس ما قاله كارتر، أعلن بيجن انه لم يوافق أبداً على تجميد بناء المستوطنات في الضفة الغربية وغزة لفترة تزيد على ثلاثة أشهر.

* * *

وبهذه الكلمات المنذرة بالشر، غادر السادات واشنطن، وكانت رحلة العودة أشبه بالسهر على جثة الميت قبل دفنه. ولم أستطع النظر طويلاً الى وجه أكثر الركاب حزناً، وزير خارجية السادات محمد ابراهيم كامل. كما قررت بعد تفكير ان ارجىء تقديم تحيتي الى اسامة الباز انتظاراً لما سيبدر منه، وهل سيفيق من الصدمة أم سينتحر.

وازداد الجو سوءاً على مدى الرحلة التي استغرقت يومين. ففي الرباط، عاصمة المغرب، لم يستطع الملك الحسن الظهور الى جانب السادات في مؤتمر صحافي، كما لم يأت الملك حسين عاهل الأردن كما كان متوقعاً.

وكان منظر السادات مضحكاً وهو يحاول اخفاء استيائه خلف ابتسامة واسعة. ولكنه لم يستطع اخفاء غضبه لدى احد اسئلتي حول اتفاقيتي كامب ديفيد. وكان من عادته ان يتظاهر بعدم سماع السؤال الذي لا يعجبه. وقد فعل معي ذلك في الرباط. غير اني لم استسلم. واعدت السؤال ثلاث مرات وهو يتظاهر ليس فقط بأنه لا يسمعني، بل بأنه لا يعرفني البتة ولم تقع عيناه عليَّ من قبل. وأخيراً اضطر للرد مضمناً رده جرعة بالغة العنف ضد العرب.

ولكن تقاريرنا عن المؤتمر الصحافي بالرباط لم تذع نتيجة عطل فني بالقمر الصناعي. وهكذا لم يتسن للعالم معرفة أولى ردود الأفعال السلبية لكامب ديفيد في العالم العربي.

وفي القاهرة، أعد للسادات استقبال الأبطال. ونقل القمر الصناعي الاستقبال المجهز جيداً لجميع انحاء العالم. وبعد أسبوعين كاملين وافق أسامة الباز على

مقابلتي. وكنت أدرك مدى الحرج الذي يحسه تجاهي. ولذلك فقد آثرت الا أوجه اليه أي سؤال يحرجه، مكتفية بالقول «أتراك تنام جيداً الآن؟» فأجاب بأسلوبه الهادىء المتزن: «اني أنام جيداً بالليل»...

ولم أصدقه، وكان يعلم جيداً انني لم أصدقه. وكان هذا كل شيء. فهو الآن يواجه تحدياً من نوع جديد، ويريد أن يعد نفسه له، ألا وهو كيف يربط ما بين اتفاقية الصلح التي هو بسبيل التفاوض واعداد المشاريع لها، وبين الاتفاقية الثانية الخاصة بالحكم الذاتي الفلسطيني بالضفة الغربية وغزة... أو بمعنى أصح كيف يحول الصلح المنفرد الى سلام شامل...

ولم يكن أمامي سوى أن أرجو له حظاً سعيداً.

الفصل السابع

أين كبرياء الطاووس ؟

في محاولة للتأكيد على ان اتفاقيتي كامب ديفيد تمثلان سلاماً شاملاً في الشرق الأوسط وليس صلحاً منفرداً بين مصر واسرائيل، حرصت الولايات المتحدة على أن يبدأ الاتفاق التاريخي بالعبارة التالية :

١ ـ اطار للسلام في الشرق الأوسط يغطي مستقبل منطقتي الضفة الغربية وغزة المحتلين، تنص أهم بنوده على ما يلي :

• فترة انتقال مدتها خمس سنوات من الحكم الذاتي للفلسطينيين .

• انسحاب القوات الاسرائيلية من الضفة الغربية الى ثكنات في مواقع محددة .

• مفاوضات تضم مصر واسرائيل، وممثلين منتخبين عن الفلسطينيين، والأردن، اذا وافقت على المشاركة لتقرير المصير النهائي .

• عدم اقامة أية مستوطنات جديدة اثناء سير المفاوضات .

• ترتيبات أمنية قد تشارك فيها قوات من الأمم المتحدة، وتتضمن مناطق امنية خاصة ومناطق منزوعة السلاح ومحطات للانذار المبكر يتم التفاوض بشأنها .

• تبادل رسائل تتعلق بوضع القدس، ومحتوياتها غير معروفة حتى الآن .

وعند هذه النقطة، نعود الى الاتفاقية الثانية التي يعتز بها الاسرائيليون على الاقل أكثر من اعتزازهم بالاتفاقية الأولى . وهي التي تبدأ هكذا :

«الجزء الثاني : اطار لابرام معاهدة سلام بين مصر واسرائيل بخصوص سيناء والعلاقات الثنائية»، وتنص أهم بنودها على ما يلي :

• توقيع معاهدة صلح مصرية ـ اسرائيلية في بحر ثلاثة أشهر .

• انسحاب اسرائيل على مراحل من سيناء ، يبدأ بعد فترة من ثلاثة اشهر الى تسعة بعد توقيع معاهدة الصلح ، على أن يستكمل الانسحاب النهائي في غضون ٣ سنوات .

• اعادة المطارات الجوية الاسرائيلية الى الادارة المدنية المصرية .

• اقامة عدة مناطق أمنية في سيناء .

• اقامة علاقات طبيعية بين مصر واسرائيل عند انتهاء المرحلة الأولى من الانسحاب الاسرائيلي .

وعند الاعلان عن الاتفاقيتين حرص المسؤولون في البيت الأبيض على اضافة ان مسألة المستوطنات الاسرائيلية في سيناء لا زالت تنتظر موافقة الكنيست في بحر أسبوعين من تاريخه . وفضلاً عن ذلك ، لم تكن هناك أية رابطة زمنية بين الاتفاقيتين ، الأمر الذي كان يعني ان الانسحاب الاسرائيلي وتطبيع العلاقات بين مصر واسرائيل سوف يتمان بصرف النظر عن حدوث أي تقدم في المفاوضات حول الضفة الغربية وغزة . وكان هذا أكثر مما تحتمل القضية الفلسطينية ، قلب ولب المشكلة بأسرها .

والذي لا نزاع فيه ان كامب ديفيد كان صفقة هائلة بالنسبة للاسرائيليين ، بقدر ما كان مدخلاً للكارثة ، وليس طريقاً للسلام . وكان من بين القليلين من الأعضاء الشجعان بمجلس الشيوخ الأميركي الذين لم يجرفهم صخب وسائل الاعلام جيمس أبو رزق ، العضو الديمقراطي عن ولاية ساوث داكوتا ، وهو واحد من الأصوات المحترمة التي كثيراً ما ارتفعت بقوة ضد السياسة الأميركية في الشرق الأوسط . فبعد اقل من ٤٨ ساعة فقط من «انفراجة» كامب ديفيد وقف جيمس أبو رزق على منبر مجلس الشيوخ ليدين ما أسماه «صدى أكثر حرارة لمقترحات بيجن في ديسمبر ١٩٧٧ التي أصبحت الآن أشبه بمركبة متحدرة تدفعها أوهام اللحظة التاريخية» ، قائلاً :

«اننا مطالبون اليوم بأن نؤيد الصلح المنفرد النهائي بين اسرائيل ومصر ، وهو صلح يحمل في ثناياه الدمار لاعداد لا حد لها من أهل الشرق الأوسط ، والآلام لملايين وملايين من الناس » .

... وفي ما يتصل بالمستوطنات في الضفة الغربية ، نجد انه بينما يقول الرئيس كارتر انه سيحدث توقف عن بناء مستوطنات جديدة طوال فترة المفاوضات ، فانه يقول أيضاً : انه لا حظر هناك على توسيع المتسوطنات القائمة ، وهو أسلوب نعرف جيداً ان اسرائيل تلجأ اليه كي تتجنب الظهور بمظهر من ينشىء مستوطنات جديدة » .

اضاف ابو رزق أن اتفاقية قمة كامب ديفيد حول المستوطنات تتناقض على طول الخط مع المواقف السابقة لحكومة الولايات المتحدة، بل هي في الواقع تمثل انتهاكا صريحا لميثاق جنيف حول حقوق المدنيين في ١٩٤٩ وهو اتفاقية دولية وقعتها الولايات المتحدة مثلما وقعتها اسرائيل ومصر.

«ان البند ٦ من المادة ٤٩ من الميثاق تقول بالتحديد «انه لا يجوز للدولة المحتلة ان ترحل او تنقل اي جزء من سكانها المدنيين الى الاراضي التي تحتلها». والمادة ٤٧ من نفس الميثاق تقول: «ان الاشخاص المشمولين بالحماية في الاراضي المحتلة لا يجوز حرمانهم من الحقوق التي يكفلها لهم هذا الميثاق عن طريق اية تغييرات يتم حدوثها نتيجة للاحتلال، أو عن طريق الضم، كما هو الحال في القدس، ولا عن طريق أية اتفاقية بين السلطات في الاراضي المحتلة، كما حدث مثلا مع حكومة كويزلنج، وحكومة الاحتلال. ولقد كان رأينا دائما أن هذه المستوطنات غير مشروعة، وهي بحكم هذا الميثاق لازالت غير مشروعة حتى الآن.

ومع ذلك فان النقطة الاساسية هي مفهوم حق تقرير المصير او افتقاده كما نص عليها بالنسبة للفلسطينيين في هذه الاتفاقية.

ان الكلمات ذات المغزى التي نراها في كل موقع من هذه الوثيقة هي «بالاتفاق بين جميع الاطراف». والمقصود بجميع الاطراف هنا اسرائيل ومصر والاردن و«المجلس الاداري» الفلسطيني.

وهكذا، فان المطلوب هو ضرورة ان توافق جميع الاطراف على الاجراءات اللازمة لاقامة ما يسمى بسلطة الحكم الذاتي في الضفة الغربية وغزة. وهنا نجد ان اسرائيل قد منحت حق الاعتراض بالفيتو ضد اي من هذه الاجراءات او جميعها. كذلك منحت اسرائيل حق الفيتو على غير هذا من التصرفات مثل:

١ ـ اي فلسطينيين بخلاف المقيمين بالضفة الغربية وغزة يمكن ضمهم الى المفاوضات المصرية والاردنية.

٢ ـ طبيعة ما يسمى «بسلطة الحكم الذاتي» التي ستمارس في الضفة الغربية وغزة.

٣ ـ اي لاجئين ممن شردوا نتيجة حرب ١٩٦٧ ويمكن ان يعودوا الى الضفة الغربية وغزة.

٤ ـ اي قرارات يتخذها الفلسطينيون، بحجة احتياجات الامن بالنسبة لأمن اسرائيل الامر الذي يصفى نهائيا ما بقي من شعار «الحكم الذاتي».

٥ ـ الوضع النهائي، بعد انتهاء فترة السنوات الخمس الانتقالية للضفة الغربية وغزة. واهم ما في ذلك ان اسرائيل تستطيع أن تعترض بالفيتو على اي قرار فلسطيني يقضي بانشاء دولة فلسطينية مستقلة.

وأكد السناتور ابو رزق ان وزير الخارجية فانس هو الذي انهى اليه هذه المعلومات، بل أنه ذهب الى أبعد من ذلك بقوله أن اسرائيل لن تستطيع فقط منع قيام دولة فلسطينية مستخدمة حق الفيتو الذي منحتها اياه هذا الاتفاقية «بل من المؤكد انها سوف تعترض بالفيتو للحيلولة دون قيام مثل هذه الدولة». وختم ابو رزق حديثه من على منبر مجلس الشيوخ بقوله:

«ان الشيء الذي يجب أن نفزع منه قد وقع بالفعل، الا وهو معاهدة الصلح المنفرد مع اسرائيل، الامر الذي اقسم السادات أنه لن يقدم عليه، والذي طالما اشتاقت اليه اسرائيل. ان هذه الاتفاقية ليست سوى احياء لمشروع بيجن الذي قدمه بيجن في ديسمبر، والذي رفضه السادات... انها مجرد مصادقة على الاحلام التوسعية لاسرائيل.

والان، فان ما كنا نعتبره - بما فينا الرئيس كارتر - امرا مستنكرا في العام الماضي قد تحول الآن الى «نصر عظيم». واستمرار انكار حق تقرير المصير بالنسبة للفلسطينيين - انما هو مجرد غطاء وطلاء زائف لاخفاء ما هو في الواقع تكريس لاستمرار الاحتلال الاسرائيلي تحت اسم مختلف» ولكن مع وجود ادارة كويزلنجية لكي تضفي صفة الشرعية على ما سبق ان كان غير مشروع. والا، فأي اسم آخر يمكن ان نطلقه بأمانة على اتفاق كهذا يعقد مع الدولة المحتلة اسرائيل، وتصادق عليه الولايات المتحدة ومصر، وهما الدولتان الوحيدتان اللتان كان بوسعهما ان تمنعاه؟.

ان هذا العمل لا ينكر فقط على الفلسطينيين حقهم في تقرير المصير، ولكن نتائجه لن تؤدي الا الى مزيد من القلاقل في جميع ارجاء العالم العربي. فميزان القوى في غيبة مصر قد مال بشدة لصالح اسرائيل. وستكون باقي الدول العربية اضعف عسكريا من ان تقاوم أو حتى تفاوض على اسس متساوية. فانها - في جميع الاحتمالات - ستقاسي الامرين من الانقسامات العميقة في ما بينها. وهذا سيفتح الطريق على مصراعيه امام النزاعات الراديكالية لانها ستكون البديل الواقعي الوحيد الباقي امام الشعوب التي انكر عليها اي مخرج سياسي طبيعي. ولسوف تتردد الانتفاضات بكل عنف في الشرق الاوسط، ولا أظن أن مجرد ارتفاع شعبية الرئيس كارتر يستحق كل هذا الثمن من آلام ومعاناة البشر في هذه المنطقة من العالم. (بناء على ما نشرته الصحف في ١٩ سبتمبر ١٩٧٨).

ولو كان ابو رزق متنبئا محترفاً، وليس عضوا مارقا بمجلس الشيوخ لتلقت نبوءته وتحليله الموضوعي الاهتمام الذي يستحقانه من وسائل الاعلام والكونجرس... نعم.. لو كان شيخا يهوديا من نيويورك وليس لبناني الاصل من ساوث داكوتا لحظي فهمه الدقيق للاوضاع السياسة في الشرق الاوسط بجدية اكبر.

فلم يكن المرء يحتاج الى بصيرة تسبق الزمن بخمس سنوات لكي يدرك ان الرجل يعرف جيدا ما يتحدث عنه . ان ما حدث لا يزيد عن كونه صلحا منفردا بين مصر واسرائيل ، يضر بمصالح جميع العرب ، والفلسطينيين والشرق الاوسط برمته، وامكانيات السلام الشامل بل.وفي النهاية لا بد وان يضر اسرائيل ، فضلا عن المصالح الاميركية بالمنطقة .

ولعلنا نذكر أن السادات ، وهو بسبيل الانجراف الى المساومة الضارة بكل هذه المصالح فقد وزير خارجيته محمد ابراهيم كامل الذي لم يستطع ضميره ان يتحمل تبعة ما يجري أمام عينيه . وفي ما بعد يبدو أن السادات فقد القدرة على التمييز بين الايمان والجبن ، حينما تحدث عن محمد ابراهيم كامل في مجلة «اكتوبر» المصرية قائلا : «اني اغفر له ، لأنه لم يستطع تحمل الضغط الرهيب على اعصابه».

والذي لا شك فيه أن محمد ابراهيم كامل انسان كان ولا يزال على قدر كبير من الاتزان والقدرة على التمييز مثل معظمنا ، ومن المؤكد أنه يتفوق كثيرا على بعضنا في هذا الصدد . وبدلا من أن يضيف المزيد الى متاعب السادات التي اخذت منذ ذلك الحين تتصاعد بسرعة ، اثر ان ينزوي في ركن من الريف ليعمل في فلاحة ارضه ، (في ما بعد ، نشر محمد ابراهيم كامل قصة كامب ديفيد كاملة في كتابه «السلام الضائع»، حيث لا تختلف روايته في كثير أو قليل عما تذكره دورين كايز - المترجم).

ولقد اثبتت تطورات الاحداث بعد نظر كل من عارض أو ارتاب في اتفاقيتي كامب ديفيد .

أما الاسرائيليون فلم يضيعوا وقتا كثيرا - بمجرد موافقة الكنيست على الاتفاقيتين - ليبرهنوا على أن محمد ابراهيم كامل وجيمس ابو رزق وكل من لم يسبح عقله مع الاوهام كانوا على حق تماما . واخذ مختلف المسؤولين الاسرائيليين ، وعلى راسهم مناحيم بيجن يتحدثون عن الحكم الذاتي الفلسطيني بمفهوم ادنى بكثير من مفهوم حق تقرير المصير ، مؤكدين بكل معنى انهم وهم بسبيل التخلي عن سيناء ، بكل ما يعني ذلك بالنسبة لهم من «تضحية» و«مخاطرة»، لا ينوون بالمرة تقديم اي «تنازل» آخر ، وسيتمسكون باسنانهم بأراضي «يهودا وسامريا» ولن يسمحوا بتقسيم «عاصمة اسرائيل»... واذا كان السادات قد اغمض عينيه واصم اذنيه عن رؤية ما يفعلون وسماع ما يقولون ، فان سائر العرب ، وبالذات أهم حلفائه ، السعوديين والاردنيين لم يكونوا حمقى .

ففور انتهاء قمة كامب ديفيد طار وزير الخارجية سايروس فانس الى الرياض وعمان ملتمسا تأييدهم الحيوي للكامب . ولكن الملك خالد والملك حسين رداه خائبا . وبدا واضحا ان كلا من كارتر والسادات قد اساءا تقدير الواقع السياسي الذي

يحكم مواقف الملكين. فهما يريان ان اتفاقيتي كامب ديفيد تهددان المبادىء الاساسية التي تشكل المفهوم العربي للسلام الشامل بالمنطقة. ومن هنا فان احتضان الاتفاقيتين باعتبارهما آخر ما امكن للسادات التوصل اليه سيكون بمثابة الانتحار، بل وربما نهاية النظم الموالية للغرب في المنطقة. ولم يبق أمام السادات الا أن يكتفي بتأييد متواضع من السودان والصومال وعمان من دون العرب جميعا.

* * *

ورغم كل شعارات الكبرياء، والابتسامات المتفائلة، والصراخ أمام عدسات التصوير «انا لست بحاجة اليهم»، مشيرا بذلك الى سائر العرب، فقد كانت تمر لحظات ينسى فيها الممثل دوره، فاذا بسحابة كثيفة من الاكتئاب تغطي وجهه وهو سارح بعيدا الى حد يلمس معه اي مراقب كم هو في حقيقته محروم من السلام مع نفسه.

اذكر واقعة حدثت بعد يوم واحد من عودتنا من كامب ديفيد. كان السادات في ذلك اليوم يحتفل بزواج ابنه جمال (الذي سماه تمينا باسم الزعيم الراحل جمال عبدالناصر). وكان حفلا بالغ الفخامة والبهاء، مطرزاً بالزينات والأضواء وزبدة المجتمع المصري واشهر المطربين والمطربات وعلى رأسهم المطربة اللبنانية المشهورة صباح التي استقر مقامها بالقاهرة منذ اندلاع الحرب الأهلية في لبنان في منتصف السبعينات.

غير أني لم اشغل نفسي طويلا بمراقبة صباح والمقارنة بين هذه الغانية الشقراء التي لم يخفف الزمن كثيرا من قدرتها على الاثارة والاغراء، وبين صباح منذ عشرين عاما عندما رأيتها وسمعتها لأول مرة وأنا اخطو على عتبات المراهقة.. وانما ركزت انتباهي كله على وجه السادات، كان في معظم اللحظات - وهو جالس بالصف الأول - يحاول أن يتظاهر بالمرح ولكني استطعت ان الحظ أنه رغم كل ما يبديه من مرح كان يسرح احيانا فتعلو وجهه تقطيبة رهيبة كأنما هو يرى اشباحا مخيفة تطوف امام عينيه. ثم ينتبه لنفسه فجأة فتعود ابتسامته الميكانيكية عندما يحس بأنوار الكاميرا تقترب لتتسلط عليه. والواقع أنه كان لديه احساس غريزي بكاميرات التلفزيون.. لا تكاد انوارها تقترب منه حتى يعد نفسه لها... ومع ذلك، فقد كانت صباح هي نجم الليلة بغير منازع.

وهنا لا بد لي أن أعترف أنني بالرغم من كل هواجسي، وسوء ظني في اتفاقيتي كامب ديفيد، وبالرغم من وجود وتزايد الادلة كل يوم ضدها، فانني بيني وبين نفسي كنت لا أزال أتمنى أن يكذب الاسرائيليون ظنوني السيئة. وانهم لن يتمكنوا من المضي قدما وراء نواياهم، وان الاميركيين والمصريين سيستطيعون بطريقة أو اخرى منع اسرائيل من نسف السلام وتحويله الى مجرد مهزلة. اعترف أني كنت

اشبه بعاشقة لرجل حذرها منه كل من تعرفه ويعرفها، رجل تعلم جيدا أنه لا خير يرجى منه، ومع ذلك لا زالت تأمل في معجزة تغير مسلكه وطباعه، وهي تعرف في قرارة نفسها أن زمن المعجزات قد ولى، وانه لن يتغير.

وبهذا المنطق غير العقلاني كنت اجيب على كل من يناقشني من الاصدقاء المصريين بقولي «لا نستطيع الحكم بعد».

* * *

بعد نحو شهر، التقى الجانبان المصري والاسرائيلي في فندق بلير هاوس بواشنطن لسبك معاهدة السلام التي قال عنها السادات بعفوية بالغة انها يمكن أن تبرم خلال شهرين وليس ثلاثة. ولكن الاجتماع طال واستطال دون أن تبدو منه بارقة انفراج. وقبل أن يطير اسامة الباز الى واشنطن كان واضحا من تصريحاته للصحافيين أنه متمسك بضرورة الربط في المفاوضات بين المعاهدة والاتفاقية الخاصة بالضفة الغربية وغزة. ولقد صمد الوفد المصري في بلير هاوس بقيادة كمال حسن علي وزير الخارجية لهذا الموقف، متمسكا بالمطلب الاساسي ألا وهو الربط بين الاتفاقيتين، وتحديد موعد نهائي لبداية الحكم الذاتي الفلسطيني في الضفة الغربية وغزة. وكان تشبث الجانب المصري بهذا الموقف هو الرد العملي على اتهام السادات بالصلح المنفرد وبيع القضية.

وطوال محادثات بلير هاوس كنت على اتصال هاتفي مستمر باسامة الباز في مقره بفندق ماديسون لاسأله عن تطور الأمور وردود الفعل المصرية على التصريحات الاسرائيلية أو الاميركية. وفضلا عن أن اتصالي به وهو على بعد آلاف الاميال كان اسهل كثيرا منه وهو في القاهرة، فان أحاديثنا الطويلة كانت بالفعل مثيرة وغنية بالمعلومات، ومفيدة للطرفين، فهو يسرب عن طريقي ما يريد تسريبه من وجهة النظر المصرية، وانا احصل على اخبار ومعلومات جديدة.

وفي هذه الفترة، وبينما مفاوضات بلير هاوس لا تكاد تفلت من ازمة حتى تقع في ازمة اكبر حتى راحت تترنح بشدة على حافة الانهيار، اعلنت لجنة جائزة نوبل منح جائزة السلام هذا العام مناصفة بين انور السادات ومناحيم بيجن.

كان هذا يوم ٢٧ اكتوبر، وفي وقت متأخر جدا بحيث لم يكن في استطاعتنا أن نحصل على رد فعل السادات في الحال. فانتظرنا لليوم التالي. وبعد كثير من الكر والفر مع مصادرنا الصحافية بالرئاسة استطعنا الخروج بسبق صحافي، الا وهو أن السادات سوف يتصل ببيجن ليبلغه تهانيه وأنه سمح لتلفزيون اي. بي. سي. بتسجيل هذه اللحظة التاريخية.

وكان الليل قد اظلم عندما وصلنا الى استراحة الرئيس بالقناطر. ولما لم نجد

على مرمى البصر ايا من منافسينا في شبكات التلفزيون الاخرى فقد اسعدنا واثارنا في وقت واحد أن نكون الوحيدين في العالم الذين سيسبقون بتسجيل واذاعة الحدث الخطير .

وعند البوابة التي تبعد مئات الأمتار عن الاستراحة الفاخرة انتظرنا في سيارتنا حتى ينتهي زميلنا حسن من اقناع رجال الأمن الذين فوجئنا برئيسهم يقول :

ـ لا بد أن هناك خطأ ما . ان طاقم تلفزيون اي . بي . سي . قد دخلوا منذ فترة . والأوامر عندي هي ألا يسمح الا لطاقم اي . بي . سي . بالدخول .

ادركنا على الفور ما حدث . فزملاؤنا في تلفزيون ان . بي . سي . قد استأجروا الشقة المقابلة لشقتنا في البناية المواجهة لفندق ميريديان . ولا بد أنهم بشكل ما يتجسسون علينا ، وعلموا بموعدنا المنفرد لتسجيل مكاملة السادات مع بيجن ، وسبقونا يتقدمهم رئيسهم المخادع الذي كان يهوديا من بروكلين واعلن اسلامه منذ سنوات .

ولما كان لدى رجال الأمن افادة بأن طاقم اي . بي . سي . قادمون ، وحيث أنه لا فارق يذكر بين ان . بي . سي . واي . بي . سي ، فقد سمح رجال الأمن لمنافسينا بالدخول ظنا منهم أنهم المقصودون بالأوامر التي لديهم .

ولعلني لو كنت في مكانهم لفعلت ما فعلوا . ومع ذلك فقد تملكني الغضب . وابرزنا بطاقاتنا لرجال الأمن مصرين على الدخول . وبعد مشاورات ومداولات في الداخل والخارج سمح لنا بالمرور الى الداخل حيث وجدنا منافسينا مشغولين بتثبيت الكاميرات واعداد الأضواء .

وكان لا بد من مشادة . وارتفعت أصواتنا بصورة لا تليق بمراسلي بلد متحضر ، ولا باستراحة رئيس جمهورية . وبينما المشادة على اشدها دخل السادات ، لتهدأ الأصوات . وقطعت صياحي مع منافسي لاتجه مباشرة الى السادات كي اتحدث اليه .

كان في هذه اللحظة قد جلس الى مكتبه بجوار آلة الهاتف ينتظر رنينه ، حيث كانت المكالمة مع تل ابيب قد طلبت من قبل ، حتى يعبر عن سروره الذي لا حد له باقتسام جائزة نوبل مع عزيزه مناحيم . والذي لا شك فيه أن السادات كان بوده لو أن شريكه في الجائزة كان كارتر .. ومع ذلك فقد اخذ يهتف بأعلى صوته (مع أن الخط بالتأكيد لم يكن سيئا لهذه الدرجة) وهو يزجي تهانيه لبيجن ، ثم يتبعها بشحنات معبرة عن الحب والأمل والسلام ... وفي الحديث الصحافي الذي تلا التصوير قال السادات أنه كان يرجو لو أن كارتر قاسمهم الجائزة لأنه «في الواقع وبالتأكيد هو البطل الحقيقي» .

* * *

بالاسلوب المعهود حول السادات الأسئلة والاجابات الى حملة اعلامية كان واضحا

انه يدبرها منذ البداية. ومع ذلك فقد كانت عملا جيدا بالنسبة لنا من الناحية التلفزيونية.

وانطلقنا عائدين للقاهرة، يحف بنا مندوبو وكالات الانباء والصحف المصرية حيث اصبح من تقاليدهم - بعد أن سلموا أن الأولوية دائما تكون للتلفزيون الأميركي - أن يحصلوا على الأنباء منا، بشرط نسبتها الينا بالطبع. وكان من بين هؤلاء ممثلو شبكة سي. بي. اس. الذين لم يكن لديهم شيء يذيعونه على الهواء، مثل ما لدينا نحن وممثلو ان. بي. سي. وكان هذا مصدر فزع شديد لهم بالطبع وهم في انتظار الصاروخ الذي سوف يطلق عليهم من رؤسائهم في نيويورك.

ولقد تم نفس الشيء في تل ابيب، حيث قام مراسلونا بتصوير مناحيم بيجن وهو يتلقى تهنئة السادات. وهكذا شاهد العرض المزدوج الملايين من مشاهدي التلفزيون الاميركي في نشرة المساء.

غير أن «روح كامب ديفيد» كان لها وجهها المأساوي الى جوار وجهها الساخر. وقد برز هذا الوجه أكثر في العالم العربي، حيث حاول العرب في آخر لحظة أن يمنعوا السادات من القفز في احضان اسرائيل. فتقدموا اليه بعرض كانوا يأملون ألا يرفضه، على شكل ٥ مليارات من الدولارات لكي يحافظ على بكارته.

ولا زلت اذكر ما سميناه حينذاك «عرض ليلة السبت»، عندما اوفد قادة العرب المجتمعون في قمة بغداد وفدا ثلاثيا، وافق وصولهم موعد القاء السادات لخطاب هام في مجلس الشعب. وبعد ان استقبل الوفد استقبالا بروتوكوليا في المطار، توجهوا الى فندق شيراتون حيث نزلوا هناك في انتظار مقابلة السادات.

ولما كان السادات يعرف جيدا انهم جالسون الآن في حجراتهم وليس لديهم ما يعملون سوى مشاهدته على شاشة التلفزيون فقد قرر أن يتحفهم بأعظم عرض في حياته! وما كان بوسع أي ممثل أن يؤدي دوره في هذه الليلة بأروع مما اداه، حيث حيا ضيوفه وهو يحدق بعينيه مباشرة في الكاميرا مشيرا اليهم بضمير الغائب قائلا: «أني ارحب بهم، ولكنهم لن يلتقوا بي، ولا بأي مسؤول مصري» ثم أخذ يتحدث بسخرية كأنما هم يبعدون عنه آلاف الأميال وليسوا على مسافة بضعة كيلومترات. ثم قال لهم لماذا؟ «لأن مصر اولا القيم والاخلاق. نحن لسنا مثل بعض البلدان التي تكفي بضع مئات من الدولارات لكي تتخذ قرارا في هذا الاتجاه أو ذاك. كلا!! ولا كل بلايين العالم يمكن أن تشتري ارادة مصر».

واستمر الممثل يخطب، وقد اندمج في دوره، مشيرا بسبابته تارة، وداقا بقبضته فوق المنصة تارة اخرى وهو يصرخ بأعلى صوته، مواصلا اشارته اليهم بضمير الغائب انه ليس مثل حافظ الاسد أو الملك حسين.. انه لا يمكن شراؤه بالشيكات!!

اما بقية الخطاب فكان عبارة عن جمل محشورة بكلمات منتقاة من قاموس

الشتائم مثل «ثعابين، اقزام، مشلولون، اغنياء حرب يظنون أن المال هو كل شيء»..

وكان هذا كافيا لكي يحزم الوفد الثلاثي امتعته، ويعود ادراجه.

ولقد قضيت الليل كله استمع الى خطاب الرئيس وفي نفس الوقت اراقب اعضاء الوفد الثلاثي وهم يدخلون ويخرجون من والى بهو غرفهم الفاخرة بالطابق التاسع فلاحظت أن احدا من المصريين لم يتصل بهم سوى الحراس وموظفي الفندق والمطار. ونقل القمر الصناعي رسالتي الى نيويورك وفيها يظهر السادات منتفخ الاوداج، مدافعا عن «شرفه» و«مبادئه» في مواجهة اولئك الذين وصفهم بأنهم بلا ضمير. وانتهى التقرير برحيل الوفد العربي الثلاثي الذي جاء - كما قال السادات ممثلا «للثعابين والاقزام والمشلولين» وكانت لقطة الرحيل في رسالتي تمثل بابا يصفق واطارات السيارات تصرصر بينما الوفد الثلاثي يغادر مسرعا الى بغداد. وكان السؤال الذي راودني، ترى هل تحمل حقائبهم مبلغ الخمسة آلاف مليون دولار التي عرضت على السادات، وترى كم سيتعين على الاميركيين أن يدفعوا في مقابل سلام كامب ديفيد.

غير أن السادات وقد طلق العرب، فانه لم يجد راحة كبرى في احضان الاسرائيليين. الذين اوضحوا الآن للجميع أنهم تزوجوه وحده، وليس عائلته. وحتى لا يكون هناك ادنى شك في هذا الصدد مضى الاسرائيليون قدما في توسيع مستوطناتهم القائمة ويخططون لبناء ٨٠ مستوطنة جديدة على ارض كان المفروض بحكم اتفاقيات كامب ديفيد انها لا زالت موضوعا للتفاوض بين الاطراف المعنية. فمعاهدة الصلح اما أن تكون اسرائيلية، أو لا تكون على الاطلاق.

وكان كل ما فعله الاميركيون وهم يرون المفاوضات تتعثر ان اخذوا يعربون بين الحين والحين عن «قلقهم» و«اسفهم» حول موضوع المستوطنات بنوع خاص، والتعنت الاسرائيلي وعدم الايمان بالسلام بوجه عام، وبالطبع لم يكن هذا كافيا بحال من الأحوال لكسر الجمود.

وعندما ايقن السادات أنه من غير المحتمل ان يحصل من الولايات المتحدة على شيء أكثر من التأييد الشفهي، تحرك بسرعة ليعرض مساومة اخرى.. تلك هي أنه مستعد للقبول بالربط بين الانسحاب الاسرائيلي من سيناء وجدول زمني محدد للحكم الذاتي في قطاع غزة. ولكن اسرائيل رفضت الصفقة.

وبهذا انتهى العام الأول لي بالقاهرة.

* * *

كان هذا العام مثيرا بحق.. ١٢ شهرا انقلب فيها الشرق الاوسط في دورة كاملة.

ووجدت نفسي في حاجة الى اجازة قصيرة اتنفس فيها بعيدا عن هذا الجو يومين اثنين على متن قطار الصعيد بصحبة السادات في جولة بالوجه القبلي.

وجاء يوم ١٠ ديسمبر ومضى، دون ان يطير السادات الى اوسلو ليتسلم نصيبه من جائزة نوبل للسلام، مكتفيا بارسال مندوب عنه هو مساعده وصهره سيد مرعي ليتقاسم الاضواء مع بيجن.

اما الصحافة المصرية، وكذا الاذاعة والتلفزيون فكان من رأيها أن السادات وحده هو الذي يستحق الجائزة. اما أن يعطي نصفها لبيجن فانها كانت اهانة.

وجاء ١٧ ديسمبر، موعد نهاية فترة الثلاثة أشهر التي حددتها اتفاقيتا كامب ديفيد لابرام معاهدة الصلح المصري الاسرائيلي، ومضى مثلما جاء.

ثم جاء ٢٥ ديسمبر، عيد ميلاد السادات، ومضى مثلما جاء.

كذلك جاء يوم ٢٦ ديسمبر ومضى، دون أن يكون هناك سلام على الأرض، ولا أمل قريب في عام جديد سعيد.

وطوال عام ١٩٧٨ كانت ادارة الرئيس كارتر مستغرقة تماما في المشكلة العربية ـ الاسرائيلية الى حد عجزت معه عن رؤية التحولات الدرامية التي كانت تجرى حينذاك في مكان آخر مجاور، ذلك هو ايران. ومع منتصف يناير ١٩٧٩ كان طغيان الشاه قد انقلب عليه، وعلى أميركا ايضا، بعد أكثر من ربع قرن منذ أن اعادته المخابرات الاميركية الى عرش الطاووس. واطاحت الجماهير المقهورة بالشرطي الذي اقامه الغرب للخليج في ثورة لم يكن فيها اية مفاجأة لأي طالب جامعي يدرس علم التاريخ السياسي، فما البال بالحكومة الاميركية بجلالة قدرها وبمخابراتها المركزية!

والواقع أن مساندة الطغاة بدعوى الأمن والاستقرار والسلام كانت منذ زمن طويل تقليدا سائدا من تقاليد السياسة الخارجية الاميركية، وهي سياسة افلاسها محتوم، لا تطيل عمر السلام بل تقصره. ولا بد في نهايتها من استبدال الطاغية بآخر اقل ودا للولايات المتحدة.

وعندما افاقت الولايات المتحدة الى حقيقة الوضع في ايران كان الوقت قد فات. ولم يعد هناك اي أمل في انقاذ العرش، بل الشاه نفسه.. وهكذا فقد اضطر الشاه للرحيل الى المنفى، وان كانت الصحف ووسائل الاعلام المصرية قد حرصت على القول بأنه في «اجازة طويلة».

وكانت وقفته الأولى في اسوان حيث قاد بنفسه طائرته البوينج ٧٠٧ في مرحلة الهبوط. وبينما كان المراسلون من جميع انحاء الأرض يتزاحمون لتسجيل اللحظة التاريخية وقفت أنا على الممر أحاول أن أتصور مشهدا مماثلا جرى منذ نحو ٣٠ عاما، عندما اطاحت الثورة المصرية بالملك فاروق. كان السادات باعتباره واحدا من

الضباط الأحرار احد الذين حرصوا على حضور رحيل الملك فاروق من الاسكندرية الى المنفى على متن يخته المحروسة. والآن ها هو بنفس الكبرياء والزهو، والرغبة في المشاركة في صنع التاريخ، يمثل دور رئيس الدولة وهو يعد استقبالا ملكيا مهيبا للامبراطور المخلوع الذي شاءت الاقدار ان تربط بينه وبين فاروق اوثق الارتباط. فقد كانت زوجته الأولى - الامبراطورة فوزيه-شقيقة الملك المصري. ولكن لم تكن هذه المناسبة هي التي دفعت السادات الى احتضان الشاه في لحظة مذلته. وانما - كما قال السادات بنفسه حينذاك - كانت فرصة لابداء الصداقة والوفاء واتخاذ موقف شريف في عالم عزت فيه هذه القيم!!

وعندما سألت احد اعوانه المقربين ونحن مازلنا على الممر: «لماذا؟ لماذا يتعمد السادات ان يضيف الى كل متاعبه ومتاعب مصر مشكلة جديدة؟» قيل لي بدون تردد ان السادات يعتقد أنه من الجبن وعدم الشرف الا يفعل ما فعل. فمجرد ان الشاه قد أصبح منبوذا من الجميع ليس سببا كافيا لكي لا يحتفي بالرجل، خصوصا كما يقول السادات أنه سانده اثناء وبعد حرب ١٩٧٣. هذا فضلا عن ان الشاه كان قد زار السادات في العام الاسبق معربا عن تأييده لمبادرة القدس، وبالنظر الى وضعه الآن بعد أن تنكر له العالم العربي كأنه كلب اجرب فان لا أحد مثله يمكن أن يحس بقسوة العزلة عندما يتخلى كل الاصدقاء عن المرء في ساعة الشدة.

هذا ما قالوه. ولكن بصرف النظر عن «الصداقات السياسية» فان الحياة والسياسة وانور السادات نفسه كانوا أكثر تعقيدا من كل هذه الأقوال. فاذا كان الشاه يدبر لقضاء بضعة ايام من «اجازته» في اسوان، فان الصحافيين الموجودين في اسوان يتقاضون اجورهم ليبلغوا عن وقائع، وليس ليقدموا تحليلا نفسيا لأنور السادات. ولذلك فقد تركناه يستعرض شهامته على الملأ ورحنا نحاول تسجيل وارسال الخبر.

ومع اني لم اكن في يوم من الأيام من المعجبين بالشاه وحكمه الامبراطوري، الا أني اعترف أنه مرت علي لحظات وأنا على ممر الطائرة في ذلك اليوم - ١٧ يناير ١٩٧٩ - شعرت فيها بالأسى لذلك الرجل الذي تسببت اوهامه وحماقته وانانيته كما تسبب عماه وضعفه في هلاك الآلاف من ابناء شعبه. وزاد من هذا الشعور أنه الآن بدا عاريا من كل مظاهر الأبهة والكبرياء التي اشتهر بها، ولم يعد سوى مجرد شبح من الماضي ضئيل الحجم شاحب الوجه متثاقل الخطوات جل اعتماده الآن على حاكم شديد الاعتداد بنفسه الى حد الغرور، وفي ذهنه دائما عن ذاته صورة البطل الذي ليس له مثيل.

واغلب الظن أن الشاه رأى في مضيفه شيئا من صورته هو في سالف الأيام. وان السادات كان يحس بنفس الاحساس، لأنه بعد ذلك صرح أكثر من مرة أن الولايات

المتحدة: «تخلت بلا شرف عن حليف قديم طالما أسبغت عليه الحب والرعاية وبلايين الدولارات».

كان واضحا أن السادات يفكر في أنه قد يلقى نفس المصير.

والآن، ها هو يرفض نصيحة كبار اعوانه. ويقبل صديقه القديم على الخدين، ويخطوان معا ببطء أمام حرس الشرف. وزوجته، ومعها الامبراطورة السابقة فرح ديبا - التي كانت لا تزال على جمالها رغم الشحوب - في اثرهما تسيران كأنما كل شيء عادي تماما. ولكن الموقف كله كان أشبه بالجنازة رغم كل محاولات السادات لاظهار ترحيبه وكرم ضيافته.

ولم يبد على وجه الشاه تأثر يذكر وهو يستمع الى النشيد الوطني الايراني، ولا وهو يرى مسؤولي السفارة الايرانية الذين ما عادوا يعملون لحساب ملك الملوك. وانما كان يبدو ممتنا وهم يبتسم ويلوح للجمهور الذي تقاضي معظمه اجرا من اجل الحضور والهتاف. فقد مضى زمن لم يشهد فيه جمهورا يحييه ويهتف له. ثم توقف الرجلان من أجل التصوير أمام اليخت الذي اقلهما بالنيل الى فندق اوبروي الفاخر الذي اخلى الآن من كل نزلائه وأصبح منطقة محرمة على بقية العالم.

وقضى الشاه ليلته الأولى بالمنفى في حديث طويل مع السادات استمر ساعتين قبل ان تنضم اليهما اسرتاهما لتناول العشاء. ولم يكن ليطمع في مضيف اكثر ترحيبا ورعاية من السادات الذي فضل أن ينتقل الى الفندق بدلا من الاقامة في استراحته القريبة. وكانت لفتة كريمة وجريئة، فضلا عن كونها افضل من الناحية الأمنية.

وفي اليوم التالي، بينما كان الشاه يتمشى في حدائق الفندق المقام على جزيرة وسط النيل وقد بدا اكثر ارتياحا، بل واسترخاء، وهو يلوح بيده لنا معشر الصحافيين الذين كنا نحوم في فلوكاتنا حول الجزيرة، توجه السادات الى المطار ليستقبل ضيفا آخر، كان بدوره ذات يوم رئيسا لدولة كبرى، ذلك هو الرئيس السابق جيرالد فورد الذي كان قد حدد موعد زيارته قبل الشاه بوقت طويل.

والتقى الثلاثة . . ولكنهم رفضوا الاداء بشيء للصحافيين. وكان النبأ المهم الصغير الذي استطعت التوصل اليه، واذيع في دقيقة و١٥ ثانية من نشرة المساء خبراً يقول ان الشاه على اتصال يومي مع انصاره في طهران. وان السادات قد اكد للشاه مساندته الكاملة، وانه اذا كان الشاه لا يعتزم العودة لايران فان السادات يدعوه للاقامة الدائمة في مصر اذا راق له ذلك.

كذلك قالت مصادري ان كلا من الملك الحسن والملك حسين قد ارسلا تحية الى الشاه في اسوان.

وكان من الطبيعي أن يكون الاهتمام الأول لمراسلي الصحافة والاذاعة والتلفزيون منصبا على الشاه. ولما كان النيل يفصلنا عنه فقد استأجرنا زورقا طوله ١٤ قدما

لنحوم به حول جزيرة فندق اوبروي عسى أن نتمكن من تصوير لقطات للشاه، مرة وهو يزيح ستائر غرفته في الصباح واخرى وهو يتمشى على الشاطىء برفقة فرح ديبا، او وهو يزور بعض المعابد هنا أو هناك، ولكنها كلها كانت مشاهد من بعيد، وكثيرا ما كنا نصطدم بداوريات الامن التي تطردنا الى مسافات ابعد.

وغادر الشاه اسوان الى المغرب بعد خمسة ايام. كذلك رحل جيرالد فورد، وآن لنا أن نستريح بعد اسبوع حافل من الكر والفر ولعبة القط والفأر مع رجال الأمن واطقم الشبكتين المنافستين.

* * *

وفي يوم ٨ مارس ، جاء الرئيس كارتر الى القاهرة في زيارة وصفها السادات حينذاك بأنها «تعكس القيم الاميركية واخلاصها للسلام». ولكن اسامة الباز وسائر اعضاء الوفد المصري للمفاوضات ومعظم المسؤولين في مصر وضعوا ايديهم على قلوبهم خوفا مما ستسفر عنه هذه الزيارة. ولم يكن تخوفهم نابعا من فراغ. فأحداث الفترة الماضية كانت تدل بوضوح على أن السادات أكثر تساهلا بمراحل من بيجن المتشدد، واشد ميلا الى ارضاء الاميركيين من اسرائيل. ومن ثم فقد كان من حقهم ان يتخوفوا من الضغط النفسي الناجم عن مجيء كارتر للقاهرة، واستعداد السادات الطبيعي للاستسلام لهذا الضغط.

وكان وصول اقطاب التلفزيون والصحافة الاميركية على طائرة كارتر ادعى لتزايد هذه المخاوف، حيث ستكون الفرصة مناسبة لعرض مسرحي وتلفزيوني مثير. وقبل وصول كارتر طلب مني أن امهد للحدث في برنامج «صباح الخير يا اميركا». وجرى تمهيدي كما يلي:

«اذا كان هناك شيء واحد لا يتوقعه السادات فهو ان يسفر لقاؤه مع كارتر الى مواجهة بين الزعيمين. ففضلا عن حقيقة التشابه الكبير بين الرجلين في اسلوب التفكير، فانهما يتشابهان ايضا في فهمهما لنوع اتفاقية السلام التي يمكن للرئيس المصري أن يوقعها. وهكذا، فان السادات الآن يعول على كارتر أكثر من أي وقت مضى لاختراق الجمود القائم. فحتى الآن لا يبدو أن تقدما يذكر قد تحقق في طريق معاهدة السلام التي نصت عليها اتفاقية كامب ديفيد. وقد قيل لي ان السؤال الكبير الذي سيوجهه السادات الى كارتر عندما يلقاه لن يكون «ماذا عن الجدول الزمني للحكم الذاتي الفلسطيني؟» ولكن «ماذا يعني الحكم الذاتي؟» وسوف يطالب السادات بحكم ذاتي فلسطيني كامل في غضون فترة محددة من الزمان، ان لم يكن في الضفة الغربية فعلى الأقل في غزة. وما ينتظره السادات من كارتر هو أن يقنع الاسرائيليين بذلك. باختصار، ان ما ينتظره السادات من كارتر ليس مجرد معاهدة صلح، وانما معاهدة سلام لا تحمل خاتم بيع القضية».

وفي وقت لاحق من نفس اليوم انضم الينا عدد من زملائنا القادمين من لندن وغيرها من عواصم العالم. وفي اليوم التالي عاد موسى صبري رئيس تحرير «الاخبار» يكرر نفس الدور الذي قام به قبيل كامب ديفيد لتمهيد الرأي العام المصري لاستقبال ما هو أسوأ. فنجده في العدد الصادر يوم ٩ مارس من جريدته يتحدث عن مناحيم بيجن الذي يستخدم كل حيلة من اجل الفرار من قفص السلام. ونقتبس من مقاله الفقرة التالية التي يتهم فيها بيجن بأنه:

«يشن حملة شعواء من اجل تدمير سمعة الرئيس كارتر، ويحذره يوما بعد يوم من أن القوى الصهيونية تستطيع أن تبعده عن البيت الابيض وتحرمه من فترة رئاسة ثانية، بينما الادارة الاميركية قد عودتنا على أن تتخذ اجراء ما، ثم تتحمس له، وتمضي قدما فيه، وفجأة تبدأ في التراجع خطوة خطوة في مواجهة الارهاب الصهيوني
ولذلك فقد استقبلت نبأ زيارة كارتر لمصر بحذر شديد، خصوصا بعد أن أعلن بيجن أنه قد وافق على مقترحات اميركية جديدة... فعندما يوافق بيجن على اية مقترحات فان معنى هذا أنه يعتقد أن هذه المقترحات كفيلة بأن تحقق حلمه في أن يحتفظ بالأرض، ويتصور أن مصر سوف توقع معه صلحا منفردا، ويتخيل أن الحكم الذاتي الفلسطيني سيتحول - بفضل هذه المقترحات - الى كلمات بلا مضمون!»

وواصل موسى صبري حديثه بصفته معبرا عن وجهة نظر السادات. فبدا حريصا على تجنيب كارتر اي لوم لعدم التوصل الى اتفاقية سلام، وأدان الاسرائيليين لأنهم لم يرتفعوا الى مستوى مسؤولياتهم لتحقيق السلام، وعجزوا عن التغلب على الماضي، ويستغلون «الاخطبوط الصهيوني في اميركا واوروبا والاتحاد السوفياتي لعرقلة أي تقدم نحو السلام!»

والحق ان هذا الهجوم اللاذع ضد بيجن والصهيونية كان يعكس آراء قطاع عريض من المصريين. وكان الهدف من ذلك المقال الافتتاحي هو تهيئة الاذهان للفشل المحتوم المتوقع أكثر من أي شيء آخر. ولكن السادات - في اليوم الثاني من محادثاته مع كارتر - عاد يقوم بالدور الذي يهواه. دور الرجل القادر على أن يذهل نقاده والمعجبين به على حد سواء (وان اختلفت الاسباب)، فأعلن «اننا على وشك الوصول الى اتفاق».

وفي نفس المساء، منحت ٤٥ ثانية في نشرة انباء المساء قلت خلالها: بدا بعض اعوان السادات الليلة وهم في حيرة من أمرهم. فهم غير قادرين بعد على تفسير قول السادات «اننا على وشك الوصول الى اتفاق». وهل كان قصده من ابداء التفاؤل على هذا النحو ان يتجنب اللوم في المستقبل في حالة الفشل؟ أم تراه بالفعل يعطي اشارة جاده للاتجاه الذي تسير فيه المحادثات؟ الواقع أن المحادثات - كما قيل لي - لا تسير بالصورة الجيدة التي يعبر عنها تصريح السادات. فهناك اثنان على الأقل في

الوفد المصري يسببان للجانب الاميركي وقتا عصيبا ، وهما رئيس وزراء السادات والمفاوض رقم ٢ (اسامة الباز)، وهما اللذان يعدان الاقتراحات المضادة . وكلاهما يريدان تحديد وتعريف الحكم الذاتي الآن ، ويريدان جدولا زمنيا . ولكن مشكلتهما يمكن أن تكون السادات نفسه ، ففي النهاية هو الرجل الذي سيقرر ما اذاستكون هناك معاهدة أم لا تكون ».

اما الاقتراحات الجديدة التي قدمها الرئيس كارتر للسادات فلم تكن تتضمن جديدا الا الغاء «الرابطة» (بين اتفاقية سيناء واتفاقية التفاوض من اجل مصير الضفة الغربية وغزة)، وهي حجر العثرة الذي توقفت عنده المفاوضات طوال الستة اشهر الماضية . وعلى نفس اسلوب كامب ديفيد كان الحل الاميركي يقضي بأن تعزل هذه الرابطة جانبا على شكل خطاب مشترك من بيجن والسادات الى الرئيس كارتر ، ويلحق بمعاهدة السلام . اي مجرد وثيقة غير ملزمة قانونا تعتمد في تنفيذها على أمر واحد تأكد عكسه طوال الستة عشر شهرا السابقة ، الا وهو حسن نوايا اسرائيل . وقد كان من المؤكد أن بيجن سوف ينقضها فورا . وكان السادات وكارتر يعلمان ذلك . فالجدول الزمني للحكم الذاتي الفلسطيني ، وما يسمى بالربط بين معاهدة الصلح المصري ـ الاسرائيلي والحكم الذاتي بالضفة الغربية وغزة كانا يدعوان الى أن تبدأ المفاوضات حول اقامة سلطة حكم ذاتي منتخبة بعد شهر واحد من تصديق مصر واسرائيل على معاهدة الصلح على أن تتم هذه المفاوضات في غضون عام واحد حتى يمكن اجراء الانتخابات «بأسرع ما يمكن». كذلك فان الخطاب المشترك كان يدعو الى مشاركة الولايات المتحدة في جميع مراحل هذه المفاوضات. وحيث أنه لم يكن هناك أي ضمان قانوني بأن تنتهي المفاوضات في ظرف عام واحد ، فان السادات هنا يكون تحت رحمة الاميركيين ـ والاميركيين وحدهم - لاقناع اسرائيل بالتسليم بالحكم الذاتي للفلسطينيين .

ولقد حاول السادات أن يصمد ، ادراكا منه بأن هذه الرابطة (المقترحة من الاميركيين) تضليل زائف لاخير فيه . فعرض اقتراحه السابق ، الذي كثيرا ما تحدث عنه الا وهو خيار «غزة اولا»، من منطلق انه اذا كان لا يستطيع الحصول على جدول زمني للحكم الذاتي بالضفة الغربية فانه يأمل أن يطبق في قطاع غزة كبداية. ولكنه بدا غير حريص على المساومة حول مسألتين اخريين شائكتين الا وهما رغبة الاسرائيليين في الاعتراف الدبلوماسي الكامل بها في مقابل الانسحاب الجزئي الأول من غرب سيناء ، وان يكون لهم اولوية خاصة في الحصول على نفط سيناء ، حيث كانت اسرائيل مواجهة بعجز في احتياجاتها من الوقود نتيجة للثورة الايرانية من ناحية ، وفقدان حقول سيناء النفطية من ناحية اخرى بحكم معاهدة الصلح .

ولقد كان السادات يفضل ان يربط الاعتراف الدبلوماسي الكامل بالتقدم في

محادثات الحكم الذاتي،واذا كان منذ البداية لم يعترض على بيع البترول للاسرائيليين الا أنه رفض أن يمنح اسرائيل اية معاملة تفضيلية.

وكانت الملاحظة الجديرة بالانتباه انه لا المقترحات الاميركية، ولا الاقتراحات المضادة المصرية تسربت الى الصحافيين اثناء زيارة كارتر. فلم يكن امامنا الا الاستنتاج والتخمينات، تماما مثل مئات الوف المصريين الذين كانوا يساقون الى تحية كارتر والسادات وهما ينتقلان بالقطار، في العربة الملكية المفتوحة، عبر الدلتا من القاهرة الى الاسكندرية. ومع ان التحية الجماهيرية كانت اكبر اثناء زيارة نيكسون، فان كارتر على اية حال بدا سعيدا بالتأييد الشعبي لاميركا الذي استطاع السادات تدبيره.

كانت نظرة واحدة الى جدول الرئيس كارتر المزدحم كافية لتبيان أن الجزء الأكبر من المهمة التي جاء لانجازها مع السادات قد حققت أهدافها في اليوم الأول لزيارته. فعندما عاد من الاسكندرية القى خطابا أمام مجلس الشعب المصري، ثم - كأي سائح آخر - كان لا بد ان تلتقط له بضع صور تحت سفح الاهرام، وطبعا بصحبة رئيس البلد.

وفي يوم السبت ١٠ مارس طار الى القدس ليقدم عرضه الاخير باسمه وباسم السادات. وبالرغم من أن وسائل الاعلام كانت لا تزال ممنوعة من التعرف على جوهر الاقتراحات والاقتراحات المضادة فقد كان هناك احساس بالتشاؤم يسود تغطية المحادثات في القاهرة والقدس. فكما كان متوقعا، رفض بيجن اقتراحات السادات المضادة.فمكتب الاتصال الذي طالب السادات بانشائه في غزة لم يكن في رأيه سوى «جنين» لدولة فلسطينية. وفي نفس الوقت كان لايزال مصرا على أن يكون لاسرائيل حق الافضلية في ما يتصل بنفط سيناء وكان واضحا أنه يعارض في أي شيء له علاقة بجدول زمني للحكم الذاتي الفلسطيني في أي مكان.

وفي اليوم التالي اسبغ على الرئيس كارتر شرف لم يسبق له مثيل الا وهو رئاسة اجتماع لمجلس الوزراء الاسرائيلي. وكان واضحا ان الاحساس بالفشل قد افعم صدر الرئيس الاميركي بالغضب والمرارة. فأخذ يناشد الاسرائيليين وهو يكاد ينفجر من الغيظ أن يتساهلوا قليلا.ولكنهم رفضوا باصرار ان يوقعوا على اي شيء. وقال له بيجن ذلك بصراحة بعبارات لا تحتمل اي شك. واذا كان هناك اي وهم لدى كارتر فان كلمات بيجن كانت كفيلة بازالته تماما من ذهنه في ذلك المساء. وفي اثناء وليمة العشاء كان كارتر قد تأكد تماما من موقف الاسرائيليين لدرجة أنه أعلن أنه لن تكون هناك اتفاقية سلام ما لم يحل عدد من المشاكل المستعصية.

وفي اليوم التالي القى كارتر خطابا أمام جلسة صاخبة للكنيست الاسرائيلي، حيث بلغت حدة بعض اليمينيين المتطرفين من اعضاء تحالف الليكود الحاكم درجة اضطر

معها المسؤولون الى طرد النائبة جويلا كوهين بالقوة من الاجتماع. ثم تلا ذلك اجتماع بين كارتر ولجنة العلاقات الخارجية بالكونجرس، ثم اجتماع آخر بين مجلس الوزراء الاسرائيلي ووزير الخارجية الاميركية سايروس فانس ومستشار الامن القومي زبجنيو برجنسكي، دون أن يؤدي هذا أو ذاك الى اية نتيجة تدعو للتفاؤل قبل مغادرة كارتر، حيث كان المفروض أن يودع رئيس الوزراء بيجن كارتر في صباح اليوم التالي قبل أن يطير الى القاهرة لابلاغ السادات بما حدث.

وفي آخر لحظة . اجتمع مع الاميركيين كل من موشي دايان، وعزرا وايزمان وعدد آخر من الوزراء الذين كانوا يعملون بجد وراء الستار في محاولة لانقاذ مهمة كارتر، ودارت بين الجانبين محادثات لم تستطع كل وسائل الاعلام التوصل الى كنهها.

* * *

وهكذا كان الوضع في مساء الاثنين لا يقل سوءا عنه في مساء الأحد. ونقلت شبكات التلفزيون الاميركية الثلاث في نشرات المساء عبر القمر الصناعي تقارير مغرقة في التشاؤم ما لبثت ان عمت العالم كله لتقول ان السلام قد مات بعد ستة عشر شهرا من ولادته في نفس فندق الملك داود. وبالرغم من ان بيجن ابلغ الصحافيين أنه حدث تقدم ملموس الا أن الاميركيين كان لهم رأي مختلف عبرت عنه تصريحات جودي باول المغرقة في التشاؤم والتي لم يكن لها سوى تفسير واحد، الا وهو أن مهمة كارتر قد باءت بالفشل. وان مبادرة السادات قد لفظت انفاسها الأخيرة، وان الشرق الأوسط قد عاد من حيث بدأ

وعندما ذهبت مواد الصحف الثلاث الكبرى الى المطبعة في تلك الليلة كانت تعكس منتهى القنوط والغضب ضد الاسرائيليين، مجمعة كلها على أنهم وحدهم هم الملومون. وعليهم تقع تبعة اجهاض السلام.

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي كان ممثلو الصحافة والاذاعة والتلفزيون من جميع انحاء العالم، بما فيهم اولئك الذين اعدوا كاميراتهم لتغطية لقاء الوداع بين كارتر والسادات في القاهرة يستعدون لابلاغ العالم بأخطر نبأ مأساوي في تاريخ دبلوماسية المكوك التلفزيونية بالشرق الاوسط.

وفي تمام الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء، ١٣ مارس ، غادرت مكتبي الى مبنى تليفزيون القاهرة القريب حيث كانت شبكات التلفزيون الثلاث قد استأجرت بعض الستوديوهات الصغيرة لاستخدامها في هذه المناسبة، بينما كانت طائرة كارتر تدخل دائرة النظر في سماء مطار القاهرة الدولي. وتمكنا بمعجزة من نقل ما سجله التلفزيون المصري بالاقمار الصناعية الى نيويورك.

واخيرا جاءت لحظة الحقيقة الرسمية. وخطا كارتر والسادات خارجين من صالة كبار الزوار على أرض الممر الجوي والبساط الأحمر في اتجاه الميكروفونات المعدة لاذاعة كلماتهم على العالم. وكانت أول ملاحظة أن ابتسامة كارتر الشهيرة قد اختفت الآن من على وجهه، بالعكس من السادات الذي رسم بشفتيه ابتسامة جامدة كالحجر. وكانت كلمة كارتر قصيرة، وفي الموضوع رأسا، بينما السكون مخيم على الجميع كأن على رؤوسهم الطير.. وحدثت المفاجأة..

لقد تم التوصل الى اتفاق حول بنود معاهدة سلام!

ولم يتطرق كارتر الى أية تفاصيل.

اما الرئيس السادات فلم يقل شيئا.

كان صمته ابلغ تعبير.

وهكذا، وللمرة الثانية في غضون ستة اشهر انقذ السادات صديقه كارتر من السقوط السياسي. وقد كان الظن السائد لدى معظم المراقبين أن عملية الاستسلام الاخيرة قد تمت خلال اللقاء القصير بين السادات وكارتر في المطار.. ولكن عددا قليلا كانوا يعرفون الحقيقة، الا وهي أن الاستسلام تم بالفعل قبل وقت طويل، وبالذات قبل أن يضع كارتر قدمه على أرض الشرق الاوسط.

فطبقا لما ذكره كارتر في مذكراته، كان السادات قد أكد له قبل أن يقوم بزيارته انها سوف تسجل «نجاحا كاملا.. ومنذ ذلك الحين «احسست أنني تلقيت من السادات ضمانا بأن مهمتي لن يسمح لها بالفشل. أو على الأقل أن فشلها لن يكون بسبب خلاف بيني وبين السادات».

ثم يواصل كارتر حديثه قائلا: انه في نفس اليوم الذي وصل فيه الى القاهرة «قَبل السادات كل النصوص المختلف عليها رغم معارضة بعض مستشاريه. ولم تمض ساعَة واحدة حتى كنا، السادات وأنا قد حللنا كل المسائل التي استعصت على الحل طوال تلك الشهور».

معنى هذا ان عملية استسلام السادات بالكامل لم تستغرق سوى ساعة واحدة. لماذا؟ ربما كان هذا راجعا في جزء منه الى رغبته في ارضاء كارتر ، وانقاذه من هزيمة سياسية محققة، وتدعيما لاستمرار شريكه في مبادرة السلام في البيت الأبيض.

ويعترف كارتر بنفسه في يومياته عن يوم ٨ مارس ١٩٧٩ انه «في جميع لقاءاتي المغلقة مع السادات كان يؤكد المرة بعد المرة حرصه الشديد على مصلحتي، وانه يريد بحق ان تسفر رحلتي عن نجاح ساحق». ولما كان سخاء السادات ليس له حدود، كما أكدت ذلك سابقة محادثات كامب ديفيد، وبعد موافقة مجلس الوزراء الاسرائيلي على المقترحات الاميركية (حول نصوص المعاهدة) فان الرئيس كارتر كان من حقه أن يثق من نجاحه كل الثقة وهو يغادر عائدا الى اسرائيل، بالرغم من

أن وزير الحرب الاسرائيلي عزرا وايزمان حذره بقوله: «ان ما يخافه الاسرائيليون أكثر من أي شيء آخر هو السلام نفسه».

ولقد نجح مناحيم بيجن الذي يتجسد فيه هذا الخوف كل التجسيد في تحطيم آمال كارتر خلال أول لقاء بينهما. وهنا نجد الرئيس الاميركي السابق يشرح شعوره بالاحباط قائلا أنه كان مقتنعا بأن بيجن لا يريد معاهدة، ولا يريد الحكم الذاتي الكامل للفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة، وانه مصمم على الاحتفاظ بكل الاراضي المحتلة فيما عدا سيناء. وحتى بعد المساومات الحادة حول كل كلمة تقريبا، ظل بيجن صامدا في موقفه حتى صبيحة اليوم الذي غادر فيه كارتر الى القاهرة لابلاغ السادات بخلاصة الموقف.

وفي بهو الفندق قدم كارتر الى بيجن آخر توسلاته، مناشدا اياه أن يعطيه أي شيء يتيح له المناورة. وسأل بيجن ما اذا كان يمكن أن يقبل بالمقترحات الاميركية اذا حذفت منها الاشارة الى «غزة» فوافق بيجن. وهكذا عندما وصل كارتر الى القاهرة قال للسادات: «سوف تكون مسرورا»، وكان جواب السادات: «ان شعبي في مصر غاضب للكيفية التي عامل بها الاسرائيليون صديقنا كارتر». ولعل هذه الكلمات من الرئيس المصري كانت بشيرا بالنجاح المقبل على بعد خطوات!

ولقد كنت لا أزال مشغولة بالتعقيدات التكنولوجية بالاستوديو عندما التقى الرئيس كارتر ووفده مع السادات ومستشاريه بعد ان ضرب الرئيس المصري عرض الحائط باعتراضات اعوانه، وقرر الموافقة على الصفقة بأكملها.

وهكذا انجزت المهمة اهدافها. وتم الاستسلام. وما ان انصرف الاعوان المشاغبون حتى اضاف السادات من عنده بعض الثلج على الكعكة المهداة لصديقة. وكانت الهدية الاخيرة تقديم موعد تبادل السفراء، وعرضا كريما بمد خط انابيب لنقل بترول سيناء الى اسرائيل، واسكات الحملة المعادية لبيجن في الصحف المصرية. اما ما بقي من «الصلح الشامل» الذي طالما تغنى به السادات وقامر عليه فقد اندفن الآن رسميا تحت اكوام من الخطب والوثائق والتقارير، ووضع ملفه المغلف بالتراب فوق رف بعيد بالمكتبة.

* * *

لم تكن معاهدة السلام حجر الزاوية لصلح شامل بحال من الأحوال كما اخذت ابواق الدعاية الرسمية تروج لها. ابدا بالمرة. فقد كان كارتر والسادات يعلمان جيدا ان بيجن لن يسمح لها بأن تكون كذلك.

وكم وددت ان تكون عناوين كلمتي تلك الليلة على شاشة التلفزيون «معاهدة سلام بين جمهورية مصر العربية ودولة اسرائيل ـ قضية اخرى ضاعت، وفرصة اخرى اهدرت» ولكن ما قدمته بالفعل كان تعليقا طلب مني لمدة خمس دقائق

لإذاعة ايه . بي . سي وقلت فيه :

«أما وقد أصبح السلام على الابواب فان كثيرين من المصريين يتساءلون : هل الأمر يستحق ؟ ان المصريين لديهم مشاعر مختلطة نحو الصلح مع اسرائيل بعد أن وجدوا أنفسهم أمامه وجها لوجه . فهم يأملون خيرا . ولكنهم متوجسون . وهكذا السادات أيضا . فمعاهدة الصلح التي سيتم توقيعها بعد بضعة ايام ليست هي التي كانت في ذهن مصر عندما قام السادات بمبادرته الشجاعة متوجها الى القدس منذ ١٦ شهرا . فالسادات كان يريد السلام الشامل الذي تضطر معه اسرائيل الى الانسحاب من جميع الاراضي المحتلة ، ويستطيع الفلسطينيون من خلاله تقريرمستقبلهم . والارجح ان يعني ذلك أن يكون لهم وطنهم الخاص بهم . ولكن هذا الأمل كان اكبر من ان يتحقق بالنظر الى ارتباط اسرائيل العاطفي والتوراتي بالضفة الغربية ـ والقدس بنوع خاص . وبالنظر ايضا الى مخاوف اسرائيل الامنية» .

وعلى ذلك فقد اضطر الرئيس المصري في آخر لحظة الى قبول الصفقة ، واذا كان السادات قد حصل من الناحية الفنية على معاهدة صلح مع اسرائيل مرتبطة بالحكم الذاتي الفلسطيني فان هذه ليست الرابطة القوية المحكمة والملزمة التي ناضل من اجلها هو ، أو بمعنى اصح الوفد المصري كل هذا الوقت الطويل .

غير أن مشروع المعاهدة جاء في معظمه كما كان يتوقع معظم المصريين الواقعيين ، اي معاهدة قريبة جدا من الصلح المنفرد . بل من المحتمل جدا أن تتحول الى صلح منفرد بمجرد تطبيقها . وهذه مشكلة لكل من مصر والسادات شخصيا داخليا وخارجيا على حد سواء . واذا كان السادات قد كسب الصلح مع اسرائيل فانه قد خسر السلام مع العالم العربي . فالسعودية تهدد بقطع معونتها السنوية ، والمتشددون الذين يعتبرون السادات خائنا يهددون بمقاطعة مصر ووضعها على القائمة السوداء ، وطردها من الجامعة العربية والاسرة العربية بأسرها . والفلسطينيون يتوعدون بأن يجعلوا الحياة أكثر صعوبة بالنسبة لمصر واسرائيل معا . ولذلك فقد اخذ السادات يعد نفسه لمواجهة العاصفة المقبلة ، ويقوم الآن بارسال مبعوثين للتفاهم مع المعتدلين على الأقل . ولكن يبدو أن لا شيء سوى الزمن ، أو قيام دولة فلسطينية ،يمكن أن يرأب الصدع ويعيد مصر الى الصف العربي .

اما في داخل مصر ، فان الحرب اذا كانت قد منعت الانفجار ، فالسلام لن يستطيع منعه . فكثير من المصريين لايحبون السادات . ومعارضوه من اقصى اليسار الى اقصى اليمين يعتقدون أنه عقد حلفا مع الشيطان ، والرأسمالية الغربية ،والفساد والانحلال . ومع ان مصر ليست ايران ، والسادات ليس الشاه ، الا أن السادات كان متخوفا من أن يحدث هنا ما حدث هناك . والسادات باقدامه على الصلح مع اسرائيل

وغرامه بالامريكيين يستخف بالقرآن وبالاسلوب الاسلامي في الحياة.

ولذلك فان السخط يغلي تحت الهدوء البادي على السطح في مصر. والسلام قد يؤدي بطريق مباشر أو غير مباشر الى عدم الاستقرار من الداخل والخارج. ولعل أصدق وصف للوضع بعد معاهدة الصلح هو ما عبر عنه احد اعضاء الحكومة بقوله: «لقد عالجنا من البرد، والآن علينا أن نعالج من سرطان الدم». وبكلمات اخرى. لن يكون هناك سلام في الشرق الاوسط ما لم يكن هناك وطن للفلسطينيين».

* * *

في يوم ٢٦ مارس ١٩٧٩، أي بعد عشرة ايام فقط من انتهاء آخر زيارة كارتر الى القاهرة، كنت في واشنطن لأشهد توقيع معاهدة الصلح بين مصر واسرائيل.

كان هذا حدثا اعلاميا جديرا بشد قلوب وعقول محبي السلام في كل مكان على الارض، اللهم الا اولئك الذين يعنيهم الأمر أولا وأخيرا.

ولعلني، مثل سائر المئات الذين تجمعوا في حديقة البيت الابيض ذلك الصباح، كنت اتمنى أن أصدق أنني أشارك فعلا في خطوة أولى، أو بداية تاريخية للسلام،وأنا أرى أمام عيني أنور السادات يعانق مناحيم بيجن ويشد على يده. ولكني كنت أكثر دراية بالحقيقة، كما كان زميلاي، سام دونالدسون مراسلنا في تل أبيب، وبيل سيمانز مراسلنا في واشنطن، ونحن واقفون على منصة خشبية نحاول من فوقها تحويل الواقع الذي نراه الى تغطية تلفزيونية على الهواء لآخر لقطة خيالية في فيلم السلام في الشرق الأوسط. فقد كان ما رأيناه بعيوننا وما سمعناه بآذاننا طوال الأشهر الاخيرة أكبر من أن يجعلنا نتغافل عن السلبيات الخطيرة لهذا الانجاز. فحتى ونحن نتحدث في الميكروفون أو تنظر من خلال العدسات التلفزيونية لم نكن نستطيع أن نتجاهل وجود مظاهرة للفلسطينيين الغاضبين عبر السياج.. خلفنا مباشرة.

هذا ،بينما كان بطل الغرب العربي الأنيق وهو يلقي كلمته البليغة مرددا عباراته عن الحب والسلام والأخوة يغفل - عن عمد أو سهو - صفحة كاملة من خطبته فلا ينطق منها حرفا.. الصفحة التي تتحدث عن ضرورة العدل للفلسطينيين.

ولكن شريكه في هذا السلام، المدافع العنيد عن الوطن اليهودي ذي الحدود المرنة أثبت أنه مناضل حتى النهاية. ولم يفته في كلمته أن يشير الى أن دراسته التاريخية تؤكد أن أرض «يهودا وسامريا» ستكون لاسرائيل في المستقبل.

وبين أنور السادات ومناحيم بيجن كان يقف الرئيس كارتر بادي الارهاق ولكن في حالة ابتهاج عارم. فلا يستطيع أحد أن ينكر الآن أن هذا الانجاز من صنعه، أو على الأقل الدور الكبير الذي قام به كي يتحقق.. الأمر الذي لم يستطع أي رئيس

أميركي قبله (ربما باستثناء نيكسون) أن يحققه، وأن كان السادات في الواقع هو صاحب الفضل في اهداء هذا الدور اليه. فلقد كان كارتر بالفعل يلقي ثقله كله من اجل انعقاد مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط تحضره كل الأطراف المعنية (اميركا والاتحاد السوفياتي والعرب والاسرائيليين والفلسطينيين) حتى قلب السادات الموقف كله بما سماه دبلوماسية الصدمة الكهربائية، انطلاقا من يقينه أن لا شيء سوى تدخل الولايات المتحدة مباشرة يمكن أن يقنع الاسرائيليين بالتخلي عن عنادهم. ووافقت هذه السياسة هوى الاسرائيليين الذين وضعوا نصب أعينهم هدفا أساسيا هو ابرام معاهدة صلح مع أقوى وأهم أعدائهم في العالم العربي، ألا وهي مصر.

ولقد كان واضحا منذ البداية أن بيجن لا يريد حلا للمشكلة الفلسطينية. ولما كانت هذه الحقيقة قد تجلت على نحو أكثر بروزا بعد مبادرة السادات مباشرة فان الفلسطينيين والسعوديين والأردنيين والسوريين رفضوا الدخول في مفاوضات السلام، وأصبح على جيمي كارتر أن يستكمل ما بدأه السادات سواء الى الأفضل أو الى الأسوأ. وكانت نتيجة ذلك اتفاقيتي كامب ديفيد ومعاهدة الصلح المصري - الاسرائيلي.

وبالنظر الى علاقة الولايات المتحدة التاريخية باسرائيل، والضغوط الهائلة التي تمارسها الجالية اليهودية القوية على كل رئيس اميركي منذ مولد «اسرائيل» في اي من وكل المحاولات الرامية مهما كانت بسيطة الى تناول النزاع العربي - الاسرائيلي، واخيرا بالنظر الى التركيبة التاريخية والنفسية لكل من بيجن والسادات، فان كارتر قد فعل أقصى ما بوسعه. أما أنه فشل في أن يتوصل الى شيء أفضل مما توصل اليه فان هذا راجع الى قدرة اسرائيل على ابتزاز اميركا في الشرق الأوسط، وحاجة السادات الماسة لكسب رضا الولايات المتحدة وليس الى قصور في ايديولوجية كارتر السياسية أو عجزه في قدرته الشخصية على الاقناع.

وهكذا، بينما كانت الكاميرات تلتقط المشاهد من ثلاث زوايا مختلفة، كانت لاتزال تصل الى أذني هتافات الاحتجاج القادمة عبر السياج.. ولكن الاداء على المسرح المنصوب كان يجري كما هو مطلوب.

وفي ذلك الحين كان السادات يشعر وكأنه بين قومه في واشنطن أكثر منه في القاهرة. فلقد أصبح باعتباره الزعيم العربي الوحيد الذي أوتي من «الشجاعة» و «القوة» ما يكفي لقلب مسار التاريخ والسياسة في الشرق الأوسط، أصبح الحبيب المعزز لدى أهل السلطة في الولايات المتحدة الذين اغدقوا عليه كل الحب والاعجاب والتأييد وما تسبغه أميركا على أصدقائها وحلفائها الأجانب الذين - متى ما أدوا المطلوب منهم - أصبحوا جديرين بكل المزايا والمكاسب التي تتفق وعضويتهم

في النادي الغربي الكبير.

وعلى هذا، فان زيارات السادات الثلاث السابقة للولايات المتحدة كانت مجرد تمهيد لزيارته اليوم التي ستضعه بالتأكيد في مكانه في التاريخ، أيا كان هذا التاريخ. وفيما كنت اتابعه عن كثب من استقبال حافل الى آخر لم أكن في وضع يتيح لي التفكير في عواقب هذا المهرجان من مهرجانات الحب الزائف بالنسبة الى زعيم انتهى به «البحث عن الذات» الى وزارة الخارجية الاميركية والبنتاجون وغرف التجارة وشاشات التلفزيون الاميركي، الأمر الذي لن يتضح كل الوضوح الا خلال الشهور القليلة التالية بعد أن يعود الى القاهرة.

فالسادات الآن يرفل في كل الأبهة التي يرفل فيها كيسنجر وروكفلر ومن على شاكلتهم من بارونات السلطة سواء في عالم السياسة أو المال والأعمال. وبالطبع فانه لن ينسى عندما يأتي اوان توزيع المعونات العسكرية والاقتصادية على الأصدقاء الذين يستحقونها. فما أن يضع توقيعه على معاهدة السلام حتى يجد بين يديه مئات ملايين الدولارات جزاء له على حسن سلوكه.

وفي الأوقات التي يكون فيها غير مشغول بوليمة هنا أو مأدبة هناك فانه لا بد أن يكون في اجتماع مع أكبر شخصيات دنيا المال والأعمال الذين يعرف جيدا أنهم المحركون الأساسيون لسياسة أميركا في الشرق الأوسط، والذين يشكلون أقوى لوبي في واشنطن، ألا وهم قادة الجالية اليهودية ذات الثقل الانتخابي القادر على اسقاط أو انجاح أي رئيس.

والآن ها هو السادات يتبادل الأحاديث الودية والمجاملات المبالغة في الكرم مع زعماء المؤتمر اليهودي العالمي والمنظمات الصهيونية الذين كانوا منذ شهور قليلة أعدى أعدائه. وها هي الدعوات تنهمر عليه من أرقى الجامعات لمنحه الدكتوراه الفخرية، ويهدي اليه مفتاح مدينة بتسبورج، ويستقبل ممثلي الطلاب الاسرائيليين الذين يدرسون في الولايات المتحدة، الأمر الذي لم يتيسر للطلاب المصريين في أميركا، الذين لم يحصلوا الا على مكالمة تليفونية. فلأمر ما كان هؤلاء مجتمعين في ولاية الينوي. ألا يمكن أن يجتمعوا في ضاحية كولومبيا؟ أو يشحنوا بالباص الى نيويورك؟ غير اني كنت أكثر انشغالا من أن أبحث عن رد على مثل هذين السؤالين.

ففي تلك الليلة كانت هناك مأدبة عشاء بغرفة التجارة تكريما للسادات - الظاهرة العربية الفذة! وفي هذا الجمع الحاشد الذي ضم ابرز رجال المال والأعمال في اميركا، اعرب السادات عن رؤياه لمصر ما بعد الحرب، فطلب من الحشد الذي تجاوز عدده المائتين من رؤساء أكبر الشركات الاميركية ألا يضنوا عليه بالتكنولوجيا أو المال. ودعاهم للاقبال على مصر باستثماراتهم الخاصة ومشاريعهم المشتركة

ليساعدوا على بناء مصر من القاعدة الى القمة. وقد كان لبعضهم تجارب سيئة الحظ في مصر، حيث ذهبوا وعادوا دون أن يحظوا بشيء سوى الاستقبالات الحافلة والوعود التي لم تتحقق. وعندما سأله أحدهم عن مساوىء البيروقراطية في مصر كان جوابه: «أنت محق في ذلك. نعم. اني أوافقك. ولا بد من صنع شيء في هذا الصدد. وسوف أتحدث مع مصطفى خليل فورا في هذا الأمر. ولسوف يعالجه بالتأكيد». قال هذا وهو يشير بيده الى رئيس وزرائه الجالس بجواره، والذي لا شك أنه أحس ساعتها بثقل المهمة التي يريد السادات أن يلقيها على عاتقه، ألا وهي أن ينسف مصر بالديناميت ثم يعيد بناءها في سبعة أيام!

ومن حسن الحظ أن كارتر أعلن تلك الليلة عزمه على تقديم العون السياسي والأدبي للرجل الذي سماه «اخي العزيز». ولكن كان واضحا أنه تجاهل احلام السادات عن اعادة بناء مصر، وفقا للخطة التي اطلق عليها اسم «مشروع كارتر» على منوال «مشروع مارشال»، بتكلفة قدرها ١٥ الف مليون دولار.

فقبل ذلك بنحو شهر واحد، وبينما عملية السلام قد تجمدت كجثة هامدة لاتتحرك، أعلن السادات أنه يريد من الولايات المتحدة والمانيا الغربية واليابان أن يخصصوا لمصر ١٥ مليار دولار على مدى خمس سنوات لاعادة تعمير مصر. ولكن التجاهل الجماعي لهذه الخطة الطموحة جعل السادات يلغي زيارة موعودة لليابان. أما بالنسبة للولايات المتحدة والمانيا الغربية فيبدو أن التزاماتهما السابقة كانت أكبر من أن يستطيع الاقتصاد المصري استيعابها. فقد كان هناك أكثر من مليارين ونصف مليار دولار منها نحو مليارين أي نصف المعونة الاميركية على مدى السنوات الاربع السابقة لازالت مجمدة دون استثمار بسبب عدم استكمال المشاريع،أو عدم البدء فيها اصلا، نتيجة سوء حال البنية التحتية (المرافق والخدمات)، ونقص الادارة المدربة والعمالة الماهرة التي هاجرت بالجملة الى السعودية وبلدان الخليج.

ولكن السادات كان مصمما على السير وراء أحلامه سواء مع مشروع كارتر أو بدونه، على نفس طريقته التي واصل بها السير في عملية السلام: أي وهو غارق في وهم لا علاقة له بالحقيقة.

غير أن مصطفى خليل كان لديه مهمة اخرى لا تقل صعوبة قبل أن يشرع في صنع المعجزة التي يطالب بها الرئيس، الا وهي بيع معاهدة الصلح المصري الاسرائيلي الى نواب النظام المختارين على الفرازة في مجلس الشعب. ففي حديثه للهيئة البرلمانية للحزب الحاكم اخذ يردد أن اتهام المعاهدة بأنها صلح منفرد «لا أساس له، ومجرد افتراءات»، وأنه وفقا لبنود المعاهدة فان العرب «سوف يستعيدون القدس الشرقية» لأن اسرائيل «سوف تسحب قواتها الى حدود ١٩٦٧ والقدس الشرقية سوف تعود جزءا من الضفة الغربية».

ولكن الواقع كان غير ذلك. فمستقبل القدس الشرقية كان قد وضع على الرف تماما بحكم اتفاقيتي كامب ديفيد ومعاهدة الصلح. ومع ذلك استطرد مصطفى خليل قائلا: «نعم. ان المعاهدة انتصار عظيم لمصر وللفلسطينيين. فسوف تعيد الينا كل أراضينا،.. كل حقوقنا، وحقوق الفلسطينيين» أما فيما يتصل بالمستوطنات التي تحاشى وصفها بأنها غير مشروعة فان«واشنطن تؤيد مصر في اصرارها على ضرورة ازالة جميع المستوطنات الاسرائيلية» حتى يمكن اقامة الدولة الفلسطينية في مكانها.

ولكن دفاع مصطفى خليل الحار عن المعاهدة لم يصل الى آذان نواب الحزب الحاكم فقط، وانما سمعه ايضا مناحيم بيجن الذي لم يكن مستعدا بالمرة لتفويت أية فرصة ليؤكد فيها نواياه غير مبال بالحرج الذي يسببه لشركائه في عملية السلام. ففي اليوم التالي مباشرة شجب رئيس الوزراء الاسرائيلي حجة مصطفى خليل لبيع صفقة السلام لنواب الحزب الحاكم، قائلا في الكنيست بأعلى صوته، موجها حديثه الى رئيس الوزراء المصري:

«يا دكتور خليل. يا عزيزي المحترم دكتور خليل. أرجو أن تذكر هذا جيدا. ان القدس الموحدة، الواحدة، والوحيدة، هي العاصمة الأبدية لاسرائيل. ولن تقسم ابدا. ولسوف تبقى كذلك جيلا بعد أجيال. يا دكتور خليل! لن تقوم أبداً دولة تسمى فلسطين على أرض يهودية وسامريا وغزة».

وردّ الاسرائيليون على «الاصرار» الأميركي - المصري على ازالة المستوطنات بالموافقة على مشروع لبناء عشر مستوطنات جديدة. وكان هذا القرار الاستفزازي الذي جاء عشية توقيع المعاهدة شيئاً متناقضاً تماماً مع الأفراح والزينات المقامة في واشنطن للسلام.

ولكي تزداد الأمور سوءاً، أعلنت اسرائيل عن تفسيرها الخاص «للحكم الذاتي الفلسطيني». فالحكم الذاتي المنصوص عليه في معاهدة الصلح انما ينطبق على «السكان» وليس على «الأرض» التي ستظل تحت سيطرة اسرائيل ومعها المياه، والأمن، والضرائب والمكوس وكل شيء له مضمون سياسي أو اقتصادي. يعني باختصار ان السكان الفلسطينيين سيسمح لهم بجمع قماماتهم وما الى ذلك من بعض شؤون حياتهم اليومية. وكانت هذه الرسالة واضحة كل الوضوح. فالحكم الذاتي لن يكون له علاقة بالسلطة، أي سيكون بدون أي معنى، باختصار لن يكون هناك حكم ذاتي كامل بالضفة الغربية وغزة، سواء كانت هناك معاهدة أو لم تكن.

اذن، فالتنازل الوحيد الذي قدمه بيجن في حياته من أجل السلام انه سيعيد سيناء الى مصر بشرط أن يحتفظ بالضفة الغربية وغزة. هذه هي الصفقة باختصار،

وهذه هي الصفقة التي خطط لها منذ البداية. واذا كان السادات والمصريون لا يحبونها، فان الوقت قد فات ولم يعد هناك جدوى من أي اعتراض.

* * *

بعد أيام قليلة، تم توقيع وابرام الصفقة في وواشنطن، ووجد بيجن نفسه أخيراً في القاهرة، وجهاً لوجه مع عشرات ألوف المصريين المحبين للسلام، والذين لم يخطر ببالهم لحظة ان مثل هذا اليوم قد يأتي. وكان واضحاً حتى بدون تدخل الحكومة ان معظم المصريين يرحبون بالسلام وبالضيوف الاسرائيليين. فمعنى هذا لديهم انه لا حرب بعد الآن، وان مصر قد استعادت سيادتها على كل أراضيها لأول مرة منذ ١٢ عاماً. وكان هذا أمراً طيباً بالنسبة للجميع، وللسادات وبيجن بالذات اللذين دخلا الآن في شهر عسل جديد، وأتيحت لهما فرصة جديدة لمحو ١٦ شهراً من المرارة وانعدام الثقة. ولما كان بيجن هو المسؤول الأول عن حزازات الفترة الماضية فقد حاول تحسين صورته بالموافقة على اعادة العريش، عاصمة سيناء، الى مصر قبل الموعد المحدد ببضعة أشهر.

وفي ختام زيارته، كان من حقه ان يقول مبتهجاً «ان لي من الأصدقاء في مصر الآن أكثر مما لدي في اسرائيل». ولكن الذي لا شك فيه ان الدكتور مصطفى خليل، لم يكن يعد من هؤلاء الأصدقاء، ولعل ذلك ما جعله يجد لنفسه مخرجا معقولاً يبيح له عدم حضور كل المآدب والحفلات التي أقيمت لبيجن، بحجة المرض. ولم يشف من علته الا بعد انتهاء مراسم الوداع لبيجن في مطار القاهرة.

* * *

لم يكن رئيس الوزراء المصري مصطفى خليل هو الوحيد الذي نأى بنفسه عن استقبال بيجن. واذا كان عشرات الألوف قد خرجوا أو أخرجوا للترحيب بمناحيم بيجن فان عشرات الألوف أيضاً لم يكونوا أقل اشمئزازاً من مصطفى خليل. ولكنهم على عكسه لم يكن في نيتهم أبداً أن يظلوا صامتين. واذا كان المجتمع المصري الحديث يتنازعه الولاء للقومية العربية من جانب، والوطنية المصرية من جانب آخر، فان سائر العرب ليسوا كذلك. فما فعله السادات بالنسبة لهم كان صلحاً منفرداً. وبذلك يكون قد خان عائلته ووجب عليه أن يدفع الثمن.

وفي قمة بغداد الثانية، انضمت السعودية والأردن الى المتشددين في ادانة «الأخ» الذي أقدم على صنع الشيء الذي أقسم ألف مرة انه لن يصنعه. وكان العقاب هو قطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر، وتركها لتحالفها الجديد... وهكذا أغلقت السفارات. ورحل الدبلوماسيون. وكان هذا الصدع التاريخي في الصف العربي واسعاً

وعميقاً، وتجاوزت عواقبه المجال الدبلوماسي حيث أثر تأثيراً بالغاً في حياة ملايين المصريين.

وفي خلال مايو ١٩٧٩، أرسلت العديد من التقارير المصورة التي توضح بالوثائق مدى عزلة مصر السادات في العالم العربي. ومن أمثلة ذلك، هذه الرسالة التي تعتبر من أقصر الرسالات التي بعثت بها في ذلك الحين، حيث لم تزد مدة بثها عن ثلاث دقائق وست ثوان ضمن برنامج «أنباء العالم الليلة».

صوت (مصحوب بلقطات بانورامية لمشاهد من القاهرة). القاهرة، عاصمة مصر التي كانت على مدى ألف عام قلب وعقل العالم العربي، ومركزه السياسي والدبلوماسي والديني والثقافي والحضاري. اليوم، أصبحت رمزاً للخيانة في أعين العرب. والسادات هو الخائن الذي تصالح مع العدو واحتضن اسرائيل ونبذ العرب. وهكذا اصبحت مصر اليوم معزولة، ومثل اسرائيل هدفاً للمقاطعة العربية.

• (لقطة لمبنى الجامعة العربية من الداخل). الجامعة العربية... المنظمة التي تضم اليوم ٢٢ دولة والتي أسستها مصر في عام ١٩٤٥، هذا هو مقرها الرئيسي بالقاهرة وقد أغلقت أبوابه، ولم يعد أمام موظفيها ومعظمهم مصريون ما يعملونه.

• (لقطة لجامع الأزهر من الخارج). الأزهر، قلعة التعليم الاسلامي. انه الآن يقاسي من استبعاد مصر من المؤتمرات الاسلامية، والأسرة الاسلامية.

• (مكتب منظمة التحرير الفلسطينية من الخارج). مكتب منظمة التحرير الفلسطينية، ومع ذلك فما أصعب القول هنا، ان علمه منكس. وممثله، سعيد كمال موقوف. وقد تقدم أخيراً بطلب تأشيرة زيارة للولايات المتحدة.

• (نموذج لمصنع أسلحة). الهيئة العربية لصناعة الأسلحة، المؤسسة التي يبلغ رأسمالها ألف مليون دولار. اليوم تريد السعودية تصفيتها، والمعروف ان مصر تساهم فيها مع السعودية وقطر ودولة الامارات العربية بتقديم المصانع والتكنولوجيا و١٥ ألف عامل.

• (مطار القاهرة من الخارج، وطائرات شركات الطيران العربية رابضة على الممر). مطار القاهرة الدولي، صدرت الأوامر بوقف نشاط جميع شركات الطيران العربية. وحظر تحليق طائرات شركة مصر للطيران في الأجواء العربية منذ لمست قدم رئيس الوزراء الاسرائيلي مناحيم بيجن أرض مصر. شركات الطيران لا تريد قطع رحلاتها، ولكن ليس لها خيار.

• (كشك بيع صحف). الجرائد والمجلات والكتب والأفلام ومسلسلات التلفزيون المصرية ممنوعة في السعودية والأردن.

• (مبنى جريدة «الأهرام» ثم الجريدة نفسها). «الأهرام» أعظم الصحف انتشاراً في العالم العربي. تم الغاء صفقة ميكروفيلم مع الكويت قيمتها ٢٢ مليون دولار.

• (فندق قاهري من الخارج). الفنادق، موسم الصيف المزدهر بفضل الزوار العرب أصبح قاحلاً هنا الآن.

• (مبنى فاخر)، مئات الشقق المفروشة الفخمة الآن خالية.

• (طائرة «اف ـ ٥»). ٥٠ طائرة «فانتوم» وافقت الولايات المتحدة على بيعها لمصر، ولكن السعودية قد لا تدفع الفاتورة بعد كل هذا.

• (لقطات للقاء الذي تم في استراحة القناطر). المستثمرون الأميركيون فيما يبدو قلقون، وفي اثناء لقائهم مع السادات في استراحة القناطر كانت معظم اسئلتهم حول مقاطعة العرب لمصر. (لقطة للسادات وهو يتحدث).

• (دورين كايز في الطريق أمام المقر الرئيسي لشركة طيران الشرق الأوسط). السؤال الآن هو ما اذا كانت مصر ستستطيع أن تدفع الثمن الغالي الذي تفرضه عزلتها عن العالم العربي اقتصادياً أو نفسياً. وواضح ان هذا يتوقف على طول المدة التي يمكن أن تستمر فيها هذه المقاطعة، وأيضاً مدى أبعادها، ولكن كثيرين - ومنهم السادات نفسه - يعتقدون انها ستكون مقاطعة جزئية ولن تستمر طويلاً. فالأمر كله لا يعدو خصاماً عائلياً لا يلبث أن ينتهي على الطريقة العربية. أو هذا على الأقل هو رأي القائمين على شركة طيران الشرق الأوسط. وهم الآن يعتزمون انتهاز فرصة وقف عمليات طائراتهم هنا لاعادة طلاء مكاتب الشركة بالقاهرة. واضح جداً ان أولي الأمر في طيران الشرق الأوسط يعرفون اتجاه الريح في الشرق الأوسط.

ولكم كان بودي أن أضيف أكثر الى ما ذكرته حول مشكلة من الذي سيدفع الآن ثمن صفقة الطائرات المقاتلة الأميركية. وكان النص الأصلي المرسل لنيويورك يتضمن العبارة الآتية:

«الرئيس السادات ينوي الاستعانة بالتلفزيون الأميركي لكي يناشد شعب الولايات المتحدة التبرع لهذا الغرض تحت شعار (الطائرات من أجل السلام)».

ولكن أولي الأمر فيما يبدو شكوا كثيراً في أن السادات ينوي بالفعل شراء اعلان تلفزيوني لمدة ٦٠ ثانية، يقف خلاله الرئيس السادات تحت جناح طائرة «أف ـ ٥» وهو يدعو كل فرد أميركي بالتبرع بدولار واحد لسداد ثمن الطائرات. غير اني كنت اعتقد ان الشعب الأميركي سيستجيب لهذا الاعلان اذا ما صدر.

غير ان الشيء الأكثر اهمية كان أن السادات تظاهر بأنه لا يبالي بالمرة بمقاطعة العرب لمصر، واتهامهم له بالخيانة والاستسلام، بينما كان الواضح انه كلما أمعن في تذكير «الأقزام والمشلولين والمنافقين» بأنه لم يعد في حاجة اليهم الآن وقد أصبح له أصدقاء حقيقيون (لا يقلون غنى)، كلما كشف ذلك عن حقيقة مشاعره وطبيعته. فالواقع أنه كان يحس بعمق الجرح، ولذلك أخذ يحاول تضميد جراحه، وهو ينفث غضبه السام في اتجاه العرب. وهكذا، بعد سنوات طويلة من الحملات الضارية ضد الصهيونية واسرائيل، ها هو السادات يحول هجماته ضد العرب الذين أصبح يعتبرهم أكثر خلق الله دناءة وحقارة... وهي نفس الأوصاف التي اعتاد من قبل أن يصف بها البريطانيين والأميركيين والروس والاسرائيليين وفق ما كان يتراءى لمزاجه أو طموحاته.

وعلى هذا النحو، تحولت خطب السادات التليفزيونية المطولة الى معلقات تكيل

المديح لاسرائيل التي كانت حتى الأمس القريب ألعن الأعداء، وتهيل التراب على العرب الذين لم يعطوا المبادرة العظيمة حقها «انطلاقاً من حسدهم وحقدهم وغبائهم»... واذا كان هذا التحول الحاد قد أشاع البلبلة في أوساط المصريين حتى فقد معظمهم الاتجاه فانه لم يفض الى نتيجة ملموسة سوى مزيد من عزلة السادات ومهما حاول استثارة النزعة المصرية الاقليمية في مواجهة الانتماء العربي فان الشيء الذي أخذ ينمو في داخل المصريين هو ان هذا الرجل قد اسكرته خمرة اميركا والغرب الى حد جعل صورته تخبو أمام المواطنين - سواء كانوا متعلمين أم أميين - الذين رغم اعتزازهم بمصريتهم لم يكونوا على استعداد للتنكر لانتمائهم العربي من أجل عيون «مخلّص» أجنبي -.

ولم تفلح كل محاولات الأميركيين وأعوانه الأقربين في ثنيه عن المضي في هجومه العلني على العرب، وخصوصاً السعوديين، الأمر الذي كان يضر به استراتيجياً ومنطقياً على حد سواء، لأنه وهو يبرز عداوته لهم كل هذا العداء، كان يسعى بأقصى جهده لكي يصبح شرطي اميركا الجديد في الخليج، وكلب الحراسة ضد السوفيات في المنطقة، بينما هو في نفس الوقت يوجه الاهانات للعرب، وفي الجملة التالية مباشرة يقول انه سيهب الى نجدتهم سواء طلبوا ذلك أو لم يطلبوا.

والذي حدث هو ان المصريين أنفسهم بدأوا منذ ابرام الصلح مع اسرائيل ينصرفون عنه، فاصبحوا لا يأخذون خطبة المفوهة مأخذ الجدية، وهكذا كان ميله العام الى التطرف هو الذي عجل بنهايته، لأنه ببساطة لم يكن على استعداد لمعرفة النقطة التي يجب أن يتوقف عندها فلا يتعداها. وبذلك ظل يخلق وحوشاً الواحد بعد الآخر، حتى انتهى أخيراً الى خلق الحية ذات التسعة رؤوس التي افترسته والتهمت نفسها معه.

* * *

واذا كانت أفلام رعاة البقر هي شغل السادات في أوقات فراغه، فان هوايته الكبرى كانت اللعب بالديمقراطية. ولكم كان شغفه بهذه اللعبة، ربما لأنها أميركية في الأساس. وكان بوسعه بعد ان أدخل بعض التعديلات البسيطة أن يبتكر صورة ممتعة، تختلف نوعاً ما عن النموذج المعمول به في أميركا أو غيرها من الديمقراطيات الغربية. ولكنه كان أكثر تمسكاً بالتعديلات التي أدخلها، والتي تغنيه عن «التعقيدات» التي تغرق فيها الديمقراطيات الأخرى.

وهكذا أصبحت لعبة ديمقراطية السادات شيئاً فريداً. فهي ليست ديمقراطية غربية ولا شرقية ولا عربية ولا مصرية. بل الحق انها كانت «ديمقراطية» موجهة بالكامل ضد المصريين. فهي تقوم على أساس أن شعباً بدأ يبني صرح الحضارة منذ

سبعة آلاف سنة ـ كما كان يحلو للسادات أن يذكر دائماً اصدقاءه واعداءه على السواء ـ لم يشب بعد عن الطوق الى مستوى المسؤولية، ولا ينبغي تعريضه لخطر التفكير بنفسه لنفسه. فالمصريون ـ في رأيه ـ أكثر سذاجة وبراءة من أن يختاروا بأنفسهم حكومتهم وقياداتهم ومستقبلهم. وما دام المصريون ليسوا مهيئين للحرية والديمقراطية، وما داموا غير قادرين على أداء اللعبة وفقاً لأحكامه، فانه مضطر بين الحين والحين لاسكات أولئك اللاعبين الذين يصل بهم الطيش الى تصور أن اللعبة حقيقية. أما المراقبون ـ وهم أكثر من ٤٠ مليوناً ـ فانهم يتعين أن يعطوا جرعة ثقيلة من الدعاية المخدرة على أمل الا يلاحظوا تلك «الانحرافات» التي تسيء استخدام الديمقراطية، وان يقتنعوا ان الهدف من هذا «الاسكات» هو الحيلولة دون تحول الديمقراطية الى فوضى.

هكذا قيل لنا.

ولنعترف انها كانت لعبة غير نظيفة، فالسادات هو وحده المسموح له بالغش في اللعب. فاذا خطر لأي واحد من اللاعبين الآخرين ان ينتقد بعض حركاته أو يتحدى بعض تحولاته المفاجئة فانه سرعان ما يلقي خطبة عصماء عن تلك الحفنة من التافهين، غير المسؤولين، الذين يسيئون اليه والى ديمقراطيته. وفي نهايتها يعلن الغاء المسرحية بأكملها. ثم يبدأ من نقطة الصفر مرة أخرى، بقواعد جديدة ومجموعة جديدة من اللاعبين. ويطرح الأمر على الشعب في استفتاء لا يكاد يشارك فيه الا بضع مئات. ولكن النتيجة دائماً معروفة سلفاً، ٩٧ ـ ٩٩ بالمائة من الشعب قالوا نعم!

واذا كان السادات لا يستطيع لأسباب موضوعية أن يمنع سائر العرب ـ الناكرين لأفضاله ـ من أن يلعنوه، فهو على الأقل قادر على كتم أفواه أهل بلده عن مناقشة سلطاته وأفعاله، وبالذات معاهدة الصلح مع اسرائيل.

فمجلس الشعب، المنتقى بعناية، يتخذ قراراً بتحويل المعاهدة الى قانون. ولم يعترض على ذلك سوى ١٣ نائباً من بين نحو ٤٠٠ نائب، ١٣ نائباً فقط هم الذين أوتوا الجرأة على نقد المعاهدة واعتبروها صلحاً منفرداً. ولكن ان يكون هناك ١٣ يقولون لا كان أمراً لا يستطيع السادات ان يغفره أو يطيقه. فهؤلاء ال ١٣ مارقاً من نواب الشعب قد جعلوا مجلس السادات شيئاً لا يطاق. وهو غير مستعد بالمرة أن يتسامح مع وضع كهذا. فالمعارضة في شؤون الحرب والسلام، والخبز والزبدة، امر يشكل تهديداً خطيراً للسلام الاجتماعي وأمن الدولة. ولا ينبغي أن يسمح لهذه الخيانة بالاستمرار وتخريب المصالح الوطنية والارادة الوطنية كما يراها الرجل الوحيد القادر على تبيان الصالح والطالح. ولذلك، كان لا بد من اسقاط هؤلاء الـ ١٣ عضواً وعدم السماح لهم بالمرة بالتواجد مرة أخرى في مجلس الشعب...

مجلس السادات.

ولكي يثبت السادات للولايات المتحدة ولاسرائيل ان ديمقراطيته الفريدة يمكن أن تعطي ما هو أكثر من الخيال، وحتى يؤكد للدولتين وللعالم الغربي ان شعبه يؤيد معاهدة الصلح، ما عليه الا ان يطلب من وزير داخليته ان يعد استفتاء للشعب. وفي ١٩ ابريل ١٩٧٩ طلب من الشعب المصري أن يقول «نعم» أو «لا» للصلح مع اسرائيل. وكانت النتيجة التي اعلنها وزير الداخلية انه من بين قرابة ١٣ مليوناً من الناخبين توجه الى صناديق الاقتراع ٩٠٫٢ بالمائة، وكانت نسبة الذين قالوا نعم ٩٩٫٩٥ بالمائة.

غير ان الصحف والاذاعات الأجنبية فضلت ان تتجاهل هذه الارقام الرسمية ذات الطبيعة السحرية. وأعربنا في تقاريرنا عن شكنا على اساس خبراتنا السابقة، وملاحظاتنا الشخصية، وما شاهدناه بأنفسنا في لجان التصويت واحاديثنا مع شهود العيان ورجل الشارع. وكان رد فعل القارىء والمشاهد الغربي الذي لم يقتنع أبداً بأرقام السادات على غير ما توقع. فالرجل زاد أو نقص كان مجرد دكتاتور صديق، لا يقل أو يزيد عن عشرات من أمثاله في العالم الثالث.

* * *

ولكن الشيء الجدير باثارة الاحساس بالقلق بنوع خاص كان ان السادات لم يكن بحاجة الى تزوير الاستفتاء - هذه المرة على الأقل - على هذا النحو الفاضح الذي جعله مجرد مهزلة. فمعظم المصريين كانوا فعلاً تواقين الى السلام. وأي استفتاء حقيقي كان كفيلاً بأن يأتي بأغلبية معقولة لصالح المعاهدة. ولكن تزييف النتيجة بهذا الشكل أفقد الاستفتاء مصداقيته. وكشف عن مدى عدم ثقة السادات في شعبيته. وكانت وجهة نظر السادات انه لا يستطيع أن يخاطر باحتمال ان يرفض المعاهدة الشعب - البدائي جداً في اعتقاده - الى حد لا يعرف معه أين مصلحته. وهذا يتضمن في جوهره ان احتقار السادات لشعبه لا يقل كثيراً عن احتقاره لسائر العرب.

والا فكيف نفسر مغزى الانتخابات العامة التي طبخت طبخاً فور الاعلان عن نتيجة الاستفتاء؟ فاذا كان ٩٩٫٩٥ بالمائة من الناخبين قد قالوا نعم لمعاهدة الصلح، فان ٩٩٫٩ بالمائة قد وافقوا على حل البرلمان. واذا كان رأي الجميع ان الاستفتاء كان تزييفاً يدعو للسخرية فان الانتخابات التي تلته كانت عارراً لا يسهل اخفاؤه. ولم يكن ذلك فقط لأن السادات حال دون عودة أي من الـ ١٣ نائباً الذين قالوا لا الى البرلمان، وانما لأنه أصدر قانوناً بمنع اي مناقشة لمعاهدة الصلح في اثناء الحملة الانتخابية. وكانت الحجة الدامغة التي برر بها الرئيس المصري هذا القانون انه ما

دام كل المصريين قاطبة - ٤٠ مليوناً حينذاك - قد وافقوا على المعاهدة ما عدا حفنة قليلة لا تزيد على خمسة آلاف موتور أو حقود، فاذن ليس هناك ما يناقش في هذا الأمر !!

ولم يقتصر لـيّ ذراع الديمقراطية على كل ذلك. وانما تلاه اجراء آخر من اجراءات الاصلاح الديمقراطي عندما سلب السادات آخر ما تبقى للحزبين المعارضين من قوة عن طريق اغلاق صحفهما. وان هي الا أيام حتى خرج من تحت قبعة السادات حزب معارض مستأنس تحت اسم «حزب العمل الاشتراكي». وكانت أعجوبة الأعاجيب ان يدعو السادات نفراً من نواب حزبه الديمقراطي الوطني للدخول في الحزب المعارض حتى يستوفي النصاب القانوني اللازم لتأسيسه، بل زاد على ذلك فأعلن انه هو نفسه سيرأس قائمة تأسيس الحزب. وأقدم على ذلك بالفعل. واذا كانت هناك وجوه كثيرة احمرت في ذلك اليوم، فإن وجه السادات لم يكن من بينها.

ولكن بعد فترة قصيرة من الوقت، تبين ان حزب العمل الاشتراكي لا يسير على الصراط المستقيم الذي تخيله السادات. فلم يكن يتصور أبداً ان اعضاءه سيأخذون المسألة بجد، ويحاولون المعارضة بشرف وأمانة. واذا كان الحزب - في انتخابات مايو ١٩٧٩ - لم يكن قد تحول بعد الى شوكة حادة في خاصرة السادات الا ان الرئيس وحرمه كانا مصممين على التخلص من أحد أهم اعضائه، ألا وهي الدكتورة ليلى تكلا، نائبة رئيس حزب العمل، والسيدة التي كانت جيهان السادات لا تطيق سماع صوتها، أو أي حديث عنها لأسباب لا تخفى على أحد. ولكن ليلى تكلا فضلت عدم خوض الانتخابات، حتى تحرم السيدة جيهان من متعة الشماتة باسقاطها.

وأسفرت الانتخابات عن ابعاد ١٢ من الـ ١٣ نائباً الذين قالوا «لا» عن مجلس الشعب. وكان من بين هؤلاء المبعدين خالد محيي الدين عضو مجلس قيادة الثورة وأحد قادة الضباط الأحرار الذين أطاحوا بالملك فاروق، ورئيس حزب التجمع الوطني الذي ضايق السادات كثيراً بملاحظاته الحادة حول معاهدة الصلح مع اسرائيل.

وكان المعارض الوحيد الذي أفلت من مفرمة وزير الداخلية نبوي اسماعيل الانتخابية هو القاضي السابق ممتاز نصار الذي استخدم أنصاره القوة لمنع تغيير صناديق الاقتراع.

* * *

والآن، وقد أصبح للسادات برلمان جديد، و«تفويض» شامل جديد، فانه يستطيع أن يعطي نفسه اجازة من لعبة الديمقراطية لفترة من الوقت. ويبدو انه قد مل اللعبة، أو أنه أصلاً لم يجد فيها البريق التلفزيوني الذي وجده في لعبة السلام، فآثر

أن يعود لهذه الأخيرة، ولم يضيّع وقتاً طويلاً في اختيار مكان اللعب. فقد كان المسرح جاهزاً فوق رمال سيناء.

فالآن، وقد ابرمت معاهدة الصلح المصرية ـ الاسرائيلية، فان مصر لم تعد مصدراً للأخبار المثيرة مثلما كانت طوال الأشهر السابقة. ولكن القصة الغرامية في نهاية الأمر، لم تكن بين مشاهدي التلفزيون الأميركي ومصر البلد أو مصر الشعب، وانما كانت بينهم وبين السادات. ولذلك فقد استمرت متابعتنا له على أمل أن يفاجئنا ذات يوم باحدى صدماته الكهربائية فتطفو اخبارنا على السطح وتحتل مكاناً بارزاً من نشرات الأنباء. حتى اذا ما أصابنا الملل جاءت حكاية الرهائن الأميركيين في ايران فكانت نجدة، وكلفنا بالتوجه الى طهران للتغطية ولكن لم تمض ثلاثة أسابيع حتى تم طرد كل المراسلين الأجانب من ايران.

ثم كلفت من نيويورك بالتوجه الى تركيا التي كانت حينذاك تترنح على حافة الفوضى. وقضيت هناك أسبوعاً ركزت فيه اهتمامي بثلاثة أشياء: الارهاب السياسي، والافلاس الاقتصادي، والوضع الاستراتيجي لذلك البلد من بلدان حلف الأطلسي، الذي كان يوشك أن يغرق في حرب أهلية.

وبعد سبعة أشهر، مدت مرة أخرى الى تركيا لتغطية حدث جديد، ذلك هو استيلاء العسكريين على السلطة.

وفي خضم ذلك العالم المضطرب خلال عام ١٩٨٠، كان في استطاعة الغرب أن يعول على الأقل على «واحة واحدة للهدوء والاستقرار»، في المنطقة، كما كان السادات يحب أن يتباهى في خطبه المطولة لثلاث ساعات أو أكثر، وقد أصبحت كلها الآن مكرسة للهجوم اللاذع ضد العرب والخميني والسوفيات أيضاً بالتأكيد. وبعد شهرين من دخول السوفيات أفغانستان، أراد السادات ان يعاقبهم بطرد معظم ما بقي من وجودهم في مصر، وكانوا نحو ٢٠٠ ـ ٣٠٠ خبير، ولم يبق من دبلوماسييهم سوى سبعة أشخاص، وفي نفس الوقت دعم تأييده للولايات المتحدة ومبدأ كارتر بأن كرر مرة أخرى عرضه بتقديم التسهيلات العسكرية من أجل مكافحة الخطر السوفياتي على الخليج.

واذا كان عام ١٩٧٩ هو عام السلام في مصر، فان عام ١٩٨٠، في خطب السادات سيكون عام الرخاء «الذي تنتهي فيه كل متاعبنا»، ولكن للأسف لم يحدث شيء من ذلك. بل أن اليوم الذي كان يفترض فيه أن يكون بداية «انتهاء كل المتاعب»، وهو يوم تبادل العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل، كان شديد الحرج بالنسبة للمصريين لدرجة انهم تحاشوا الاشارة اليه. ومر دون أن يتم شيء من ذلك.

وفيما يلي التقرير الذي أرسلته حول ذلك اليوم التاريخي:

قال التلفزيون المصري كل شيء، تحدث كثيراً عن جلاء اسرائيل عن ثلثي سيناء. ولكنه لم يذكر شيئاً عن تطبيع العلاقات مع اسرائيل. ولا كلمة واحدة، وواضح ان الرئيس السادات ومعظم المصريين يفضلون عدم الكلام بل حتى عدم التفكير في هذا الموضوع. ووسائل الاعلام تعكس مشاعر القاهرة ازاء الاقتراب اكثر من اسرائيل. والتناقض هنا واضح كل الوضوح. فصحيفة «جيروزاليم بوست» تباع جنباً الى جنب مع «الأهرام» التي لم ترد فيها كلمة واحدة عن هذا اليوم التاريخي. أما السبب في تجاهل المصريين لهذه الخطوة الأخيرة في عملية السلام فهو غضبهم وضيقهم بعدم التقدم في ما يتصل بالقدس والمشكلة الفلسطينية.

فالحدود المفتوحة وخطوط الطيران المباشر، وتبادل التجارة والمشاريع المشتركة وباختصار اكثر علامات تطبيع العلاقات لا زالت تتعثر بسبب ممانعة المصريين وليس الاسرائيليين المتلهفين.

واذا كان نيازي مصطفى، وهو مليونير كبير بالقاهرة ويرأس غرفة التجارة المصرية ـ الأميركية المشتركة، يعترف بأن الطرفين يتحدثان في شؤون المال والتجارة الا انه لا يلبث أن يضيف انه لا يمكن قيام علاقات تجارية عادية بينهما الا بعد اقرار سلام شامل في الشرق الأوسط.

واذا كان المصريون يشعرون بعدم الارتياح فان الاسرائيليين أولى بنفس الاحساس وهم يجدون البحث عن سفارة لكي يفتتحوها يوم الاثنين، بعد ان منعتهم تدابير الأمن والسياسة من استئجار مقر مؤقت في احد الفنادق بوسط المدينة. ومع ذلك، فلا زال هناك أمل في امكانية استئجار فيللتين متجاورتين في احد الأحياء القريبة.

ولا تزال خطوط الهاتف مقطوعة بين القاهرة وتل أبيب. وربما يمكن علاج ذلك في الأسبوع المقبل كما يقول العاملون في التلفونات، ولكن الاتصال بالتلكس ممكن. وقد استخدمناه نحن بالفعل عندما أردنا الاتصال مباشرة مع مكتب تل أبيب.

* * *

وبينما كان اول سفير اسرائيلي لا يزال مشغولاً بحزم حقائبه قبل التوجه للقاهرة، قدمت اسرائيل أول احتجاج دبلوماسي ضد مصر، وكان السبب أن واحداً من كبار أعوان السادات وهو حسن التهامي أدلى بحديث لصحيفة كويتية قال فيه ان اسرائيل انشئت فوق أرض اسلامية منهوبة، وتنبأ بانهيارها بعد بضع سنوات. اما عن اليهود فقد وصفهم التهامي بأنهم قوم غدر ونفاق. وكان هذا في مجال تعليقه على كتاب «عام الحمامة» الذي الفه ثلاثة من الصحافيين الاسرائيليين، من بينهم مراسل التلفزيون ايهود يعاري الذي كان على صلة قريبة من حسن التهامي. وكان مما قاله أيضا ان الكتاب يعتبر اهانة لمصر خصوصاً وهو ينسب الى بيجن قوله عن السادات انه «شخص منحط». وعندما قيل للتهامي ان اسرائيل احتجت رسمياً على حديثه هذا، كان جوابه «لعنهم الله! اعتقد انني سأرفع عليهم دعوى قضائية، نعم، سوف القنهم درساً».

وأخيراً، مع آخر فبراير، تقدم السلام خطوة الى الأمام مع فتح أول سفارة اسرائيلية بالقاهرة، ووصول السفير الياهو بن اليسار. والغريب ان السادات وهو يتلقى أوراق اعتماده، أذهل كل الحاضرين بقوله له «ايلي! انك الرجل المناسب في المكان المناسب في الوقت المناسب»!! مع ان الصحافة المصرية المملوكة للحكومة ووزارة الخارجية وكافة دوائر المثقفين في مصر كان رأيهم انه الرجل غير المناسب، في المكان غير المناسب. فالمعروف عن بن اليسار، الذي كان حينذاك في أواخر الأربعينات من عمره يشارك بيجن في صفته كصقر متطرف. وزاد الطين بلة انه عشية وصوله ادلى بتصريح استفزازي بالنسبة للمسؤولين المصريين ردد فيه مزاعم اسرائيل حول حقها في اقامة المستوطنات بالضفة الغربية، وهو الأمر الذي كان - على الأقل - لا يزال محل مناقشة في المفاوضات الجارية حول الحكم الذاتي.

وكان واضحاً ان اختيار بن اليسار ليكون رئيساً لأول بعثة دبلوماسية اسرائيلية في مصر انما يمثل مدى تعنت اسرائيل وسوء نواياها تجاه القضية الفلسطينية، ومن ثم فقد كان اختياراً سيئاً بكل المقاييس وكفيلاً بأن «تطبيع العلاقات» سيواجه منذ البداية مناخاً معادياً قارص البرودة.

ولعل البحث المضني عن مكان للسفارة كان مجرد عينة. وأخيراً اضطر الاسرائيليون الى الاقامة في فيلا ضيقة في شارع مزدحم بحي الدقي. وفي اليوم الذي رحب فيه السادات بالسفير الاسرائيلي واصفاً اياه بأنه شخصية رائعة أحرق المتظاهرون في مصر الاعلام الاسرائيلية في الشوارع ورفعوا آلاف الأعلام الفلسطينية. وضمت المظاهرات حشوداً من أنصار المعارضة الرسمية (حزب العمل الاشتراكي) والتجمع الوطني والأخوان المسلمين والنقابات المهنية، الأطباء والمحامين والصحافيين فضلاً عن آلاف من طلبة الجامعات. كل هؤلاء أعلنوا مقاطعتهم لأية علاقة عادية أو دبلوماسية مع اسرائيل. كما أعلن مئات الفنانين والأدباء رفضهم لأي تعامل من أي نوع كان من الاسرائيليين سواء على الصعيد المهني أو الشخصي. وعندما أقامت مجلة «تايم» الأميركية حفلاً بفندق «النيل هيلتون» لتقديم رئيس مكتبها الجديد بالقاهرة ظهر في الحفل اثنان من موظفي السفارة الاسرائيلية، ولكن أحداً من المصريين لم يقترب منهما.

ولعل أبلغ وصف لشعور المصريين ازاء هذا التطبيع الدبلوماسي للعلاقات المصرية - الاسرائيلية هو قول زميلة مصرية تنتمي للطبقة المتوسطة: «اني احس وكأنني اغتصبت اغتصاباً». واستقال واحد من أبرز الصحافيين في جريدة «الأهرام» حتى لا يضطر الى رفض القيام بمهمة باسرائيل. ولم يمكن أبداً تجنيد مراسلين مصريين دائمين للصحف المصرية في تل ابيب. ومن ناحية أخرى، فان ايهود يعاري وهو اول اسرائيلي يعمل مراسلاً تلفزيونياً مقيماً في القاهرة اصبح اليوم في شك مما اذا كان

المصريون يقبلون وجوده بينهم. فقبل تبادل السفيرين كان يتمتع بقدر أكبر من حرية الحركة والاتصالات الرسمية. ولكن بعد فتح السفارة وجد مشقة غير قليلة في تجديد تأشيرة الاقامة وحرية بث التقارير والأنباء والأفلام المصورة.وكانت النتيجة انه قرر الا يقيم في القاهرة اقامة ثابتة مفضلاً التنقل بالتناوب بين بيته في القدس وبعض الفنادق بالعاصمة المصرية.

ولقد مضى شهر كامل بعد وصول بن اليسار وزوجته دون ان يدعوهما احد من المصريين الى داره. ولما عجزا عن استئجار مكان مناسب اقاما في فندق شيراتون مكتفين بتبادل العلاقات فيما بينهما ودون أن يستضيفا أحد سوى ابناء جلدتهما.

أما السفارة نفسها فلم تشهد سوى عدد ضئيل جداً من المصريين الذين يريدون تأشيرات زيارة لاسرائيل. وبينما كان السفير لا يكاد يجد شيئاً يعمله فان بطرس غالي وزير الدولة للشؤون الخارجية كان مرهقاً بالعمل لأن احداً في وزارة الخارجية لم يكن مستعداً بالمرة للتعامل مع السفارة الاسرائيلية.

وهكذا، في مارس ١٩٨٠، كان هناك سفارتان وسفيران في القاهرة وتل أبيب. وتم فتح الحدود ومدت خطوط التلكس والهاتف والبريد وبدأت رحلات شركة طيران «العال» للقاهرة وجاء السلام كطفل شقي يرفس بأقدامه ويصرخ بأعلى صوته. ولكنه ظل دائماً سلاماً هشاً حتى بعد أن غادرت مصر في أواخر ١٩٨١، سلاماً رسمياً بارداً مفعماً بالشك وعدم الثقة والنقائص. ولم تكن الحياة في القاهرة سهلة أبداً بالنسبة للدبلوماسيين الاسرائيليين وعائلاتهم.ففضلاً عن الصعوبات التي يلقاها أي دبلوماسي وهو يحاول تكييف نفسه مع البلد الجديد الذي نقل اليه، كان عليهم الآن أن يكيفوا أنفسهم مع بلد عربي معزول عن جميع اشقائه العرب، ولا يحس أحد فيه بأي ود ازاء الاسرائيليين بعد كل هذه السنوات الطويلة من العداوات والحروب.

* * *

ولقد حاولت أن أقدم للمشاهد الأميركي قصة تلفزيونية تسجيلية عن مدى العزلة التي يعيشها الدبلوماسيون الاسرائيليون في القاهرة عن طريق تصوير «يوم في حياة السفير»، ولكن المسؤولين في نيويورك كانوا أكثر اهتماماً بشاه ايران الذي كان حينذاك قد تملكه اليقين أن مضيفيه في بناما سوف يقتلونه في غرفة العمليات أو يسلمونه للخميني، هذا اذا لم تسبقهم الـ «سي. آي. ايه» وتدس له السم في الطعام.

والواقع ان مستقبل الشاه المخلوع كان قد أصبح مشكلة ذات أبعاد بالغة العمق والحرج بل والجنون الى حد استهوت معه السادات الذي وجه فيها فرصة جديدة

لاستعادة مجده التلفزيوني. فعندما استبدت بالدكتاتور الايراني فكرة ان حياته معرضة للخطر طالما هو في بناما، استجاب لدعوة السادات القديمة لأن يعالج في مصر ويقيم بها كلاجىء سياسي. وكانت أول اشارة الى انه في الطريق الى مصر صورة نشرتها جريدة «الأخبار» يوم ٢٣ مارس ١٩٨٠ بالصفحة الأولى يظهر فيها الشاه كرجل بائس أعياه مرض السرطان واستبد به الخوف على حياته التي - اذا نجت من السرطان - فقد لا تستطيع النجاة من شيء أو أحد آخر يهددها. وقالت الصحيفة ان العملية الجراحية اللازمة لاستئصال الورم السرطاني لا يمكن اجراؤها في أية مستشفى في بناما.

وبدا لي ان الصحيفة تريد بذلك ان تهيء اذهان القراء الى احتمال استضافته في مصر. فأبرقت الى نيويورك بتوقعاتي. وفي نفس المساء علمت من مكالمة تلفونية مع مراسلنا في بناما ان هناك طائرة بالفعل تستعد لنقل الشاه وأسرته الى جهة غير معلومة. فاتصلت من فوري بالدكتور مصطفى خليل - رئيس الوزراء - في منزله وكذلك بالسكرتير الصحافي للرئيس ولكن الاثنين رفضا نفي أو تأييد توقعاتي التي قدمتها لهم كمعلومات أنا واثقة منها. وشجعني هذا على الاتصال بمصدرين لا يرقى اليهما الشك، احدهما في مكتبه والآخر في حفل كوكتيل كان يشهده زاعمة في كل من الاتصالين ان تلفزيون «ايه. بي. سي» سوف يذيع الليلة نبأ ان الشاه في طريقه للقاهرة. وكانت النتيجة دعوة سريعة الى فنجان من القهوة التركية بمكتب أحد المصورين. وهناك أكد لي صحة النبأ، بعد ان اخبرته اني أنوي القيام باجازة ابتداء من الغد فقال: لو كنت مكانك لما فعلت ذلك، فالثمان وأربعون ساعة المقبلة ستكون حافلة بالأحداث ثم أضاف «انه قادم فعلاً للقاهرة».

كنت أحتاج الى مزيد من التأكد ولذلك فقد عاودت الاتصال بالمصدر المشغول في حفل الكوكتيل وكان رده «الخبر صحيح لسوء الحظ. سوف يصل الشاه غداً في تمام السابعة صباحاً».

وكانت خبطة تلفزيونية من الدرجة الأولى حيث انفردنا بقصة الشاه المزودة بشريط فيديو يصور الساعات الأخيرة للشاه في بناما. ولكن لم يكن لدي وقت لمراجعة برقيات المديح والتقريظ القادمة من نيويورك، فالشاه، - آخر مشكلة يثيرها السادات لنفسه - على وشك الوصول. وعندئذ ينتهي انفرادنا بالنبأ وسيعرف به كل الصحافيين ومراسلي التلفزيون والاذاعة في العالم عندما ينضمون الينا في مستشفى المعادي.

وفي ذلك الصباح، بدا الشاه وهو يسير برفقة السادات في البهو الرئيسي، وكانما شاخ عشر سنوات مرة واحدة منذ رأيته في أسوان آخر مرة. وبدا واضحاً ان السرطان قد استبد به كثيراً خلال الأربعة عشر شهراً التي مرت منذ بدأ دوراته في

المنفى بعد رحيله عن طهران. ولم يعد شك يذكر في أنه سيقضي بقية عمره هنا في مصر.

وبعد يومين، شهد حرم جامعة القاهرة مظاهرة كبيرة نظمتها الجامعات الاسلامية ضد الشاه «العدو اللدود لشعبه وللاسلام». وأذكر يومها ان احد الأصدقاء قال لي «ان ما حدث في ايران يمكن أن يحدث في مصر لأن حكومة السادات تستخدم نفس أساليب الشاه في كبت مشاعر المصريين المسلمين».

وقد اعتقل رجال الشرطة السرية بضع عشرات من المتظاهرين واحتجزوا زميلنا حسن بهجت، بهدف عرقلة تصويرنا للمظاهرات. ولعل ذنبه الوحيد هو ان ملامحه المصرية كانت واضحة. وقد اتصلت في الحال بوزير الاعلام الذي استاء لما حدث وأمر في الحال باخلاء سبيل زميلنا وفي نفس المساء شاهد الجمهور الأميركي المظاهرات المصرية على شاشة تلفزيون «ايه. بي. سي».

غير ان ما حدث في جامعة القاهرة، لم يكن سوى البداية. فبعد يومين اثنين، جاءت الأنباء ان اضطرابات واسعة تشمل مدينة أسيوط عاصمة الوجه القبلي. وكان الليل قد بدأ يزحف عندما بدأ مصورونا رحلة الأربع أو الخمس ساعات الى أسيوط أكبر معقل للجماعات الاسلامية المتطرفة وأسخن مواقع التوتر بين المسلمين والأقباط في مصر.

وفي نفس الليلة، علمنا من مصادرنا المطلعة الموثوق بها ان الشاه تجرى له الآن عملية جراحية عاجلة لاستئصال الورم السرطاني. وان حراسة مشددة غير عادية قد فرضت حول مستشفى المعادي. وان الدكتور ميشيل الدبيكي - الأميركي اللبناني الأصل - قد وصل من قبل بناء على طلب السادات. ولذلك فقد قررنا، حسن بهجت، وزميلتنا هانزاده فكري، وأنا أن نبقى مرابطين بالمكتب حتى نتأكد مائة في المائة من صحة معلوماتنا. وأبرقت الى مقرنا الرئيسي في نيويورك ان يكونوا جاهزين لتلقي أنباء هامة. وفي الساعة الواحدة صباحاً، أي السادسة مساء (بتوقيت نيويورك)، موعد اذاعة النشرة الأولى «لأنباء العالم الليلة» تلقت هانزاده النشرة الطبية التي أذاعها المركز الصحافي بوزارة الاعلام عن حالة الشاه. وفيما كانت تترجمها من العربية الى الانجليزية، كنت أنا أحرر الموضوع لأرسله بالهاتف الى نيويورك حيث أذيع في نفس النشرة بصوتي مباشرة ومرفقاً به بعض اللقطات الثابتة.

وجرى حديثي كما يلي:

«أجريت الليلة عملية جراحية للشاه السابق الذي دخل مستشفى المعادي يوم الاثنين الماضي. وقالت النشرة الطبية الرسمية التي أعلنت في التو، أن الدكتور ميشيل الدبيكي جراح مستشفى هوستون هو الذي أجرى العملية التي استأصلت الورم

السرطاني من جسم الشاه. وقالت مصادرنا العليمة أن الدبيكي أجرى العملية بمساعدة ستة من أمهر الاخصائيين المصريين والأميركيين.

كذلك قالت النشرة الطبية الرسمية أن حالة الشاه السابق بعد العملية مرضية. وذكرت مصادرنا أنه الآن في غرفة العناية المركزة، حيث سيعالج بالأشعة لمدة شهر واحد، وبعدها ببعض العقاقير الكيماوية التي لم تعرف بعد.

وبهذا النبأ، حققنا سبقاً صحافياً فريداً اهتزت له شبكات التلفزيون المنافسة. وفي اليوم التالي، عاد زملاؤنا من أسيوط ومعهم عدة لقطات كانت كفيلة بانهاء المنافسة تماماً لصالحنا، واغضاب السادات. وفي نفس الليلة، السبت ٢٩ مارس ١٩٨٠، سجلنا آخر اهدافنا في مباراة «الشاه» بهذا التقرير.

دورين كايز تتحدث عن مظاهرات أسيوط:

في أسيوط، عاصمة الوجه القبلي، خرج آلاف المتظاهرين وهم يهتفون مطالبين بطرد الشاه من مصر. وقد استخدم بوليس الأمن المركزي القنابل المسيلة للدموع لتفريق المتظاهرين في اللحظة التي بدأت فيها المظاهرات، وقد كانت بمحض الصدفة هي نفس اللحظة التي بدأ فيها اجراء العملية الجراحية الخطيرة للشاه في مستشفى المعادي على بعد ٢٥٠ ميلاً شمالي أسيوط.

وقد اندفعت جموع المتظاهرين خارجين من حرم الجامعة بعد ساعتين من الاستماع الى سلسلة من الخطب النارية ضد وجود الشاه بمصر، وتنديداً بأنور السادات الذي يتصدى لحمايته. وأخذ المتظاهرون يهتفون بسقوط الاثنين. غير أن قنابل الغاز نجحت في تفريق المظاهرة التي لم تستمر اكثر من ١٠ دقائق. واحتجز رجال الشرطة طاقم مصوري تلفزيون «ايه. بي. سي» بعض الوقت بينما كانوا يقومون بالتصوير. ويبدو ان السلطات المصرية شديدة الحساسية بالنسبة للعناصر المعادية للشاه والتي طفت على السطح منذ وصول الامبراطور الايراني الى مصر يوم الاثنين الماضي.

هذا، ويبدو ان الطبيب الجراح الدكتور الدبيكي، الذى أجرى العملية الناجحة للشاه، لم يجد ما يطريه سوى المساعدة القيمة التي تلقاها من الجراحين المصريين الذين شاركوا معه في اجراء العملية، والشعب المصري بوجه عام لحسن ضيافته.

ويقول الدبيكي، ان الشاه يستطيع الآن بعد ازالة الورم السرطاني ان يعيش الى اجل غير مسمى، بالرغم من وجود السرطان الليمفاوي، وانه يستطيع ان يعيش حياة طبيعية ويلعب التنس كما كان يفعل، بعد أن يخرج من المستشفى في غضون عشرة أيام.

غير ان الأطباء المصريين كانوا أقل تفاؤلاً من الجراح الأميركي المشهور، حيث اعترفوا ان السرطان قد استشرى وانتشر في كل الجهاز الليمفاوي بجسد الشاه، وهذا معناه انه لن يعيش لأكثر من بضعة أسابيع أو أشهر معدودات.

وإذا كان هناك بين المصريين نفر من الناس شاركوا السادات تعاطفه مع الشاه، باعتباره عزيز قوم ذل، فان الأغلبية الساحقة من المثقفين بالاضافة الى الجماعات الاسلامية قد وجدوا في ترحيب السادات بالشاه مادة جديدة للتنديد به وبسياسته. ولم يكن غريباً أن كل الذين عارضوا «كامب ديفيد» ومن قبله مبادرة القدس، ومن بعده تطبيع العلاقات مع العدو الاسرائيلي، كانوا هم الآن الذين يحتجون بشدة ضد «كرم السادات».

* * *

والواقع ان «كرم السادات» تجاه الشاه كان مغامرة سياسية غير مأمونة الجانب، خصوصاً وان متاعبه الداخلية وعزلته العربية كانت تشكل خطراً قائماً بالفعل. ذلك انه من بين جميع الفئات والقوى التي تناوىء السادات لم يكن في وسع السادات في هذا الوقت بالذات، أن يسيطر أو يسكت الجماعات الاسلامية. وليس معنى هذا انه لم يحاول.

فمع ان اضطرابات أسيوط، أسفرت عن عشرات من القتلى والجرحى والمعتقلين الا أن الصحافـــة والتلفزيون والاذاعة تجاهلت الأمر تماماً من منطلق أن ما لا يعرفه الأهالي - غير الناضجين في رأي السادات - لن يسبب أي أذى. ولكن تغطية تلفزيون «ايه. بي. سي» للحدث وصلت أميركا ثم ارتدت بالتالي لمصر، فلم يعد من الممكن تجاهلها. وكان لا بد من ادانة التلفزيون الأميركي ونفي مزاعمه بطريقة أو أخرى.

ووقعت هذا العبء الثقيل على عاتق وزير داخليـة السـادات نبـوي اسمـاعيـل، فوقف هذا في مجلس الشعب ليعلن كذب كل ما قاله تلفزيون «ايه. بي. سي»، واصفاً ما حدث بأنه كان مجرد فتنة طائفية بين المسلمين والأقباط. وبهذا الأسلوب الرخيص، كان السادات يلعب بالنار وينفخ في لهب مشكلة كانت بوادرها قد بدأت بالفعل. فعلى مدى السنوات السابقة، كان أقباط مصر يشكون من بعض المضايقات الناجمة عن تصرفات الجماعات الاسلامية المتطرفة والتي وصلت في بعض الأحيان الى حد احراق كنيسة هنا أو هناك، دون تدخل جدي من الأجهزة الحكومية لوقف مثل هذه التجاوزات. الأمر الذي حدا بالأب شنودة، بابا الأقباط الأرثوذوكس، للاحتجاج على عدم قيام الحكومة بواجبها في حماية الأقلية، وذلك بأن أعلن مقاطعة عيد الفصح في ذلك العام، والانعزال مع عدد من الرهبان بأحد الأديرة البعيدة في الصحراء، حيث لم يعد من الممكن أن يتلقوا دعوة السادات السنوية التقليدية لحضور احتفالات العيد. وقد تشكلت حينذاك لجنة مشتركة من عدد من المسلمين والأقباط لبحث شكوى هؤلاء، ولكن نقاد السادات اتهموه بأنه هو الذي ينفخ في

الفتنة الطائفية عمداً ليتخذ منها حجة لضرب الجماعات الاسلامية المتطرفة.

ولقد استشاط السادات غضباً وحرجاً وهو يرى هذه المشكلة تهدد صورته بينما هو يستعد للتوجه الى واشنطن، للقاء قمة مع الرئيس كارتر. وهي قمة كان هدفها انقاذ السادات نفسه من خطر اكثر الحاحاً، الا وهو انهيار مفاوضات الحكم الذاتي. فاذا كانت المشاكل الداخلية قد نجحت مؤقتاً في صرف الأنظار بعيداً عن صلحه المنفرد مع اسرائيل، فان الذكرى الأولى لمعاهدة الصلح التي وقعت في ٢٦ مارس كان لا يمكن أن تمر دون أن يتذكرها نقاد السادات في الداخل والخارج. ثم ان يوم ٢٦ مايو، هو موعد انتهاء مهلة السنة التي يجب ان تتم فيها المحادثات لقيام سلطة الحكم الذاتي الفلسطيني بالضفة الغربية، اي انه لم يبق سوى شهرين دون أن تتقدم هذه المفاوضات خطوة واحدة منذ بدأت. ومعنى هذا انه بالفعل في مأزق لا يحسد عليه، وها هو الآن بعد عام كامل من توقيعه لمعاهدة الصلح في واشنطن يعود اليها فلا يجد سوى رائحة زهور المانوليا لتذكره بالأيام الحلوة التي مضت.

ومع انه بدا كالمعتاد متفائلاً معتداً بشخصه، وهو يتنقل من استقبال حافل الى آخر أكثر حفاوة، محاطاً بكل مظاهر الحب والتكريم، الا انه كان في الحقيقة غير واثق لا من الأميركيين ولا من نفسه، بل كان عصبياً وقلقاً. ولم يكن هذا بلا سبب. فصديقه وشريكه في عملية السلام لديه هو الآخر مشاكله التي كان لا بد وان تنعكس على السادات. ونتيجة للضغوط التي كان يتعرض لها كارتر حينذاك، وهو يخوض معركة انتخابات الرئاسة للمرة الثانية وقع في ورطة دبلوماسية معيبة وهو بصدد قرار للأمم المتحدة يدين سياسة المستوطنات الاسرائيلية بالضفة الغربية المحتلة، فأخذ يتذبذب بين نعم ولا للقرار، الأمر الذي أضر كثيراً بمصداقيته في الداخل والخارج على حد سواء.

اما وقد أدرك السادات انه يواجه الآن قيادة ضعيفة بل عاجزة في الولايات المتحدة فان أقصى ما يمكن أن يأمله هو أن تستمر مفاوضات الحكم الذاتي على أي وجه كان بعد انتهاء الموعد المحدد لاستكمالها يوم ٢٦ مايو. ومهما كانت عيوب جيمي كارتر باعتباره مؤلف ومصمم اتفاقيات «كامب ديفيد» فان من مصلحته على الأقل الحفاظ على النجاح الوحيد الذي حققه في السياسة الخارجية، وهو التزام لا يستطيع السادات أن يضمنه اذا فاز ريجان.

لذلك فقد قضى السادات معظم يومي زيارته في الدعاية لصالح مرشحه المفضل، الأمر الذي أطلق من العقال احدى النكات الظريفة التي اشتهر بها المصريون حيث يقول: «ان افضل طريقة يستطيع بها أنور ان يضمن نجاح جيمي كارتر ان يوفد اليه وزير داخليته نبوي اسماعيل». ولكن السادات لسوء الحظ لم يسمع هذه النكتة. كان قد انعزل تماماً في برجه العاجي فلم يعد قادراً على الاحساس بنبض شعبه.

وفضلاً عن ذلك، فان تلاعب السادات بالديمقراطية كان يهدد باضافة المزيد من الغبار على زيارة الرئيس المصري. فقد شنت الجالية القبطية المصرية في الولايات المتحدة، حملة مؤذية ضد السادات نيابة عن أخوانهم في مصر، فنشروا اعلانات كبيرة في صحف واشنطن، ونظموا مظاهرة معادية له أمام البيت الأبيض. وعندما سألت بعض المقربين عن رد الفعل لدى السادات، علمت ان البابا شنودة قد انتهى. وان اسمه الآن أصبح لدى الرئيس الذي أقسم الا يتحدث معه أو يسمع منه بعد هذه الاهانة الكبيرة. وهكذا ضم البابا شنودة الى قائمة اعداء الدولة «أي الأعداء الشخصيين للسادات» وكان هذا دليلاً آخر ان «التسامح الاسلامي» عند السادات كانت له حدود، مثل كل شيء آخر كان ينسبه لنفسه.

وفي كل مكان ذهب السادات اليه اثناء تلك الزيارة كان يجد نفسه في مواجهة مظاهرات بني وطنه الذين تزايدت جرأتهم في تحديه امام أعين مضيفيه. ولذلك، فقد ألغى زيارة لبعض المدن الأميركية كانت مقرره في برنامج الرحلة، وأسرع بالعودة الى مصر ليعنى بمشاكله التي كان من بينها الشاه المريض. وان كان قد حرص قبل مغادرته على منح بعض وقته لتلفزيون «ايه. بي. سي» في حديث شيق مع بربارا والترز، وأقول حديثاً شيقاً لأنه كشف من خبيئة أنور السادات ما لم تكشفه كل الأحاديث التي جرت معه من قبل مجتمعة، ألا وهو ان السادات لم يكن يعرف الحقيقة، ولا يريد أن يعرفها، وليس من المحتمل أبداً أن يعرفها.

كانت قمة واشنطن، مجرد محاولة لكسب الوقت أسفرت عن مد الوقت المحدد لاستكمال مفاوضات الحكم الذاتي الفلسطيني الى اجل غير مسمى. وهو أمر يستطيع السادات أن يتحفظ به كورقة حتى نوفمبر التالي، موعد الانتخابات الأميركية، ويعاد انتخاب كارتر كما كان يأمل، ليدخل البيت الأبيض لفترة ثانية كرئيس قوي يمكنه أن يتعامل بقوة مع الاسرائيليين. ومعنى هذا انه اذا كان ثمة أمل أمام السادات لكي يتم كسر الجمود على أي وجه في مفاوضات الحكم الذاتي، فانه لن تسنح له فرصة أخرى الا بعد عام كامل. وحتى يحين الوقت على السادات ان يعتمد على نفسه، بعد أن أصبح رهينة للشلل الذي يصيب السياسة الخارجية الأميركية كل أربع سنوات «بسبب انتخابات الرئاسة» ووجود رئيس شبه عاجز عليه أن يكافح باستماتة من اجل البقاء في منصبه. اما ماذا يستطيع أن يفعل السادات لمساعدة صديقه في ورطته الانتخابية، فلم يكن أمامه الا ان يجدد تأييده الأدبي لكارتر، وان يعرض أية تسهيلات عسكرية يمكن أن تحتاجها الولايات المتحدة اذا فكرت في انقاذ الرهائن الأميركيين في ايران بالقوة. ولم يمض سوى أسبوعين بالفعل بعد قمة واشنطن حتى وقعت محاولة انقاذ الرهائن وفشلت الفشل الذريع المعروف.

ففي صباح يوم ٢٥ ابريل، استمعت كما استمع الملايين الى محطة الاذاعة البريطانية، وهي تذيع نبأ المحاولة الفاشلة، والقصة المأساوية التي جرت في صحراء ايران، والكارثة المهينة التي شاركت فيها العواصف الرملية وعطل طائرات الهليوكبتر والعديد من المناسبات وانتهت بموت ثمانية أميركيين. ولم يكن هناك على الأرض من هو أكثر حزناً واحساساً بخيبة الأمل من أنور السادات الذي وضع قاعدة قنا الجوية لتكون جسر الوثوب ومسرحاً لاعداد العمليات ومركزاً لادارة العملية الفاشلة. واذ وصف ما حدث بأنه مجرد سوء حظ قال انه يرجو ألا يكون ذلك مدعاة لعدم تكرار المحاولة، وأكد ان مصر ستظل دائماً مستعدة للمعاونة اذا قرر الأميركيون محاولة أخرى.

وقد حسم فشل هذه المحاولة الى جوار ما جرى للرهائن مصير كارتر السياسي، وهز كثيراً من مصداقية الولايات المتحدة كحليف عسكري يعتمد عليه. وزاد الطين بلة استقالة سايروس فانس من منصبه كوزير الخارجية، وقد كان من البداية معارضاً في المحاولة الفاشلة التي أسفرت عن مصرع ثمانية من العسكريين الأميركيين.

* * *

أما وقد أوقف «كامب ديفيد» على اقدامه، فان السادات الآن يستطيع العودة للعناية ببعض ما يعنيه في الداخل. وبعد ان اطمأن تماماً الى نجاحه في تقليم أظافر المعارضة، وجد ان الوقت قد حان لكي يقدم على استفتاء آخر، استفتاء يطلب فيه من الشعب أن يوافق على بضعة اجراءات جديدة، أو بمعنى أصح، جرعة جديدة من القيود على الديمقراطية، لم يدل بصوته في صفها سوى نسبة ضئيلة، ومع ذلك، كانت النتيجة كالمعتاد أكثر من ٩٨ في المائة.

* * *

وصف السادات اجراءاته الجديدة بأنها تعديلات دستورية. ولكن المعارضة ادانتها باعتبارها تدابير معادية للدستور. ولعل أسوأها سمعة وادعاها للسخرية كان قانون العيب الذي سماه المعارضون «قانون العار». فذلك القانون كما صاغه برلمان السادات المطواع كانت مهمته «حماية حقوق الشعب السياسية والاقتصادية والاجتماعية» وكذلك «القيم التقليدية للعائلة المصرية». فأي شخص يدعو أو يروج لأية افكار أو مبادىء تتعارض مع التعاليم السماوية او يشجع الشباب ضد القيم الدينية أو الاخلاقية المصطلح عليها في المجتمع، وأي شخص يعطي مثلا سيئا في مكان عام، واي شخص يذيع أو ينشر انباء زائفه أو مضللة يمكن أن تثير الرأي العام، وتبعث على الحسد أو تثير الاحقاد أو تهدد الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي، وأي شخص يذيع أو ينشر كلمات بذيئة أو صورا خارجة تثير الرأي

العام أو تستفز احساسه بهدف تقويض هيبة الدولة، وأي شخص يعتدي على الملكية العامة أو يبدد المال العام أو يسيء استخدام السلطة أو يتلاعب مباشرة أو بشكل غير مباشر في أسعار السلع الاساسية أو يقبل رشوة - سيكون مدانا بجرائم معيبة ويتعين تقديمه الى المدعي الاشتراكي - الذي اختاره السادات بعناية من بين اخلص معاونيه - ولا يسأل الا امام مجلس الشعب ولجنة القيم المنبثقة منه. وبحكم هذا القانون يكون في وسع الاخ الأكبر ان يحرم المذنبين من الحياة السياسية والاقتصادية أو يحدد اقامتهم حيث يشاء، أو يمنعهم من مغادرة البلاد لفترة من خمس الى عشر سنوات. أما النصوص الوحيدة الجديرة بالاحترام في هذا القانون، وهي الخاصة بالرشاوي والسوق السوداء فلم تثر سوى ضحكات الجمهور.

وليت الأمر اقتصر على ذلك - بل كان هناك المزيد، وجرعة أكبر لكل فئة. ومن أجل ارضاء الجماعات الاسلامية أعلن الالتزام بالشريعة، وانشاء مجلس شورى من ١٣٢ عضوا لكي يضمن عدم تجاهل الشريعة الاسلامية في أي قانون يصاغ. وتوج السادات هذا كله باعلان نفسه رئيسا مدى الحياة.

غير أن قانون العيب الذي وصفه السادات بأنه يعادل اعلان حقوق الانسان الاميركي لم يخدع أحدا، حتى المعارضة «الشريفة» الممثلة في حزب العمل الاشتراكي، والتي قاومت قانون العيب بكل قوتها قبل وبعد اضفاء الشرعية عليه بالاستفتاء.. هذا فضلا عن الاقباط الذين يبلغ عددهم نحو سبعة ملايين والذين لم يشعروا بالارتياح ازاء الحديث عن فرض العمل بالشريعة الاسلامية. وكان من العسير ان تجد احدا في القاهرة على الاقل سعيدا بتنصيب السادات رئيسا مدى الحياة.. ومع ذلك كانت نتيجة الاستفتاء ٩٨٫٥٦ في المائة.

وكان واضحا للجميع أن الهدف الحقيقي لقانون العيب ليس حماية المصريين من أنفسهم، وانما حماية السادات من المصريين. ولكن حتى هذا لم يكن يستحق ان يرد في عرض انباء المساء بالولايات المتحدة. فالقصة الحقيقية على اية حال لم تكن الاستفتاء المزعوم، ولا حتى مخاوف السادات ومشاكله المتزايدة التي اضطرته الى احكام مبغته حول الرقاب، ولكن القصة الحقيقية بالنسبة للغرب كان يجب أن تكون حول لماذا اصبح السادات في هذا الوضع المتفجر للغاية؟.. وماذا يعني ذلك بالنسبة لمستقبله ومستقبل مصر والسلام في الشرق الأوسط؟ ولم يكن من الممكن أن تكفي الاجابة تسعون ثانية أو ثلاث دقائق على شاشة التلفزيون ضمن نشرات الأنباء. كان الأمر يستدعي وقتا طويلا على الهواء، وعلى الأرض. ولم أكن أنا أملك الوقت أو التفويض لكي اضع تقريرا مصورا وثائقيا يستمر ساعة أو أكثر عن البطل وما صار اليه. كما أن تقريرا كهذا يبرز الوجه المعتم للبطل لم يكن كفيلا بجذب الاعلانات، ولذلك لزم التنويه!

بصراحة، مع حلول ربيع ١٩٨٠ كنت قد وصلت الى حالة من الضيق وخيبة الأمل حتى أصبح كل ما أتمناه في الوجود أن أخرج من القاهرة، وانفض عن نفسي غبار قصة السادات المتداعية.. ولكن اولي الأمر في نيويورك كان لهم رأي آخر. ويبدو أنهم كانوا يأملون أن استقر في القاهرة ما بقي لي من العمر. فمدوا عقدي سنتين جديدتين، واضافوا الى المرتب علاوة كبيرة.. وهكذا، بقيت في مصر، ولكن على مضض، ولولا أملي في أن انقل الى مكان آخر، آجلا أو عاجلا لكنت قدمت استقالتي في الحال.

اما السادات فلم يكتف بأن أصبح رئيسا لمدى الحياة. وانما وجد من الانسب أيضا أن يضيف الى رئاسته للجمهورية رئاسة الوزراء، حتى يتاح له أن يعطي خمسة وتسعين بالمائة من وقته لمشاكل مصر الملحة التي اعترف بها اخيرا. وفي سبيل تهدئة الجماهير ولو لفترة الصيف قدم مكافأة خاصة لعمال القطاع العام وعلاوة قدرها ١٠ بالمائة من المرتب للعاملين بالقطاعين العام والخاص، ورفع الحد الادنى للاجور من ١٥ الى ٢٠ جنيها شهريا. وخفض رسوم الجمارك على عدد من السلع مثل اجهزة الفيديو كما خفض اسعار اكثر من مائة سلعة، معظمها لا يصل في العادة الى متناول الجماهير العريضة.. واعلن الغاء قانون الاحكام العسكرية الذي ظل ساري المفعول منذ حرب ١٩٦٧. وفي نفس الوقت حذر المتطرفين من المسلمين والمسيحيين على حد سواء ان يخلدوا للهدوء مقسما أنه سوف يضرب بيد من حديد جميع الجماعات المتعصبة وخصوصا في الجامعات. وجاء كل هذا في خطاب جامع شامل استغرق القاؤه اربع ساعات، لم تنل منه اسرائيل سوى عشر دقائق على شكل نوع من العتاب الرقيق.

* * *

قبل اسبوع واحد من انتهاء مهلة العام المقرر لاستكمال مفاوضات الحكم الذاتي الفلسطيني، قدم الى الكنيست مشروع قرار بهدف اضفاء الصفة الشرعية على فرض السيطرة الاسرائيلية على القدس بأسرها، بما فيها القدس العربية المحتلة. وكان السادات قد أوقف المفاوضات قبل ذلك في اوائل مايو عندما توقفت تماما في طريق مسدود. ولكنه عاد فاستأنفها بناء على طلب كارتر بعد يومين اثنين. والآن، مع خطوة اسرائيل الهادفة الى ضم القدس العربية، اوقف السادات المفاوضات مرة اخرى متهما الاسرائيليين بتخريب الجو اللازم للتوصل الى حل عادل، وكذلك وجه برقيات عاجلة حول الموضوع الى كل من الرئيس كارتر ورئيس الوزراء الاسرائيلي مناحيم بيجن.

وعندما سألته ما اذا كان يعتقد ان الاجراء الاسرائيلي الأخير انما هو «صفعة على الوجه»، وجدها فرصة للتنفيس عن غضبه واحباطه قائلا كأنما هو يزأر في

الميكروفون «كلا. أنا لا أراه صفعة على الوجه كما تقولين. ولو كان الأمر كذلك لفعلت شيئا ازاءه».

وفيما كنت لا أزال اتساءل ما اذا كان السادات قد فهم العبارة التي استخدمتها، اذا به يهدأ فجأة كأنما يريد أن يتخلص من الأمر برمته. وبعد فاصل من الوأوأة والمأمأة راح يعاتبني برفق لأني أحاول «أن أجر رجله» قائلا: «أجل.. أنا أعرف أنك تحاولين جر رجلي» وكرر الجملة أكثر من مرة وهو يقهقه مشيرا اليَّ بأصبعه كما يفعل الأب المرح مع طفلته الشقية، قائلا: «لا يجوز أن تفعلي ذلك».

وأدركت أن الرئيس لم يفهم المقصود من عبارتي، فقررت أن أقولها بصراحة أكبر «أرجو ألا تؤاخذني يا سيادة الرئيس، فأنا لم أكن أحاول أن أجر رجلك، بالعكس، لعلني كنت أريد ليّ ذراعك». وهنا تعاقب على وجه الرجل خليط من الذهول، ثم الدهشة، فالحيرة.. وواضح ان معرفته بأوجه الكناية والتورية في اللغة الانجليزية كانت ضئيلة، فآثر أخيراً أن يطرح الموضوع كله بعيداً. أما أنا فكان من حسن حظي أن أفلت من الموقف بلا صفعة حقيقية على وجهي.

وفي آخر مايو ١٩٨٠ استؤنفت مفاوضات الحكم الذاتي مرة اخرى، بحجة ان السادات لا يريد أن يعتبره العالم مسؤولا عن تعطيل السلام، وان يكون اللوم من نصيب بيجن وحده. غير أن هذا لم يفد الوضع في مصر من قريب أو بعيد، لا في الداخل ولا في الخارج. وفي ذلك اليوم قلت في برنامج «صباح الخير يا أميركا».

«في منتصف الطريق خلال معركة مصر من أجل السلام توقف أنور السادات لحظة ليحول ناقل السرعة».

ولما كان مقتنعا كل الاقتناع أنه لن يحدث أي تقدم حقيقي في الحكم الذاتي الفلسطيني حتى ما بعد انتخابات الرئاسة، فان اهتمامه الآن مركز على الجبهة الداخلية، الأمر الذي يعني في الواقع معركته من أجل الاستقرار. المعركة ضد فقر الأغلبية والتطرف الديني لدى الأقلية. حيث كل من الأمرين قنبلة موقوتة تهدد بالانفجار في أية لحظة.

وفي محاولة لمنع الانفجار ـ ولو لبعض الوقت على الأقل ـ اتخذ السادات عدداً من القرارات بهدف تخفيض الاسعار ورفع الأجور والغاء بعض الضرائب وحظر نشاط الجماعات الدينية المتطرفة في الجامعات والمساجد والكنائس.

ومن أجل تهدئة الجماعات الاسلامية المتطرفة (الاصوليين) أخذ يهاجم قادة الكنيسة القبطية ويتهمهم بتضخيم الاضطرابات الأخيرة، وفي نفس الوقت أعلن أن الشريعة هي المصدر الرئيسي للتشريع في البلاد.

ولكن معركة السادات من أجل الاستقرار لا تنتهي عند حدود مصر، وانما تمتد جبهتها للخارج. والذي لا نزاع فيه أن السادات يحس ـ بالاضافة الى التعنت الاسرائيلي في ما يتصل بالمسألة الفلسطينية ـ أنه مهدد أكثر بسبب العجز الأميركي،

والتغلغل السوفياتي في المنطقة، وعزلة مصر عن العالم العربي.

ولقد عرض بالفعل على الولايات المتحدة تسهيلات عسكرية حتى تستطيع أن تتدخل في حالة حدوث اضطرابات بالخليج. أو الشرق الأوسط، وفي المقابل تعجل الولايات المتحدة بتسليم شحنات من العتاد العسكري تقدر قيمتها بآلاف ملايين الدولارات.

غير أن الزعيم المصري سيظل مشغولا بالخطر الداخلي الى أن يستطيع الغرب والولايات المتحدة واسرائيل أن يقدموا له عوناً أكبر في ما يتصل بالخطر الخارجي. وهو بذلك يسابق الزمن، ويحاول جهده أن يحافظ على نفسه في مكانه حتى تنتهي سنة الانتخابات الأميركية.

* * *

كان اعوان السادات يتساقطون من حوله كما تتساقط أوارق الشجر، والآن جاء الدور على الدكتور مصطفى خليل. ويبدو أن الرجل ناء بعبئه كرئيس للوزراء ووزير الخارجية. فطلب اعفاءه من المنصبين معاً. فأسند السادات وزارة الخارجية الى كمال حسن علي، وزير الدفاع سابقا، وتسلم هو نفسه رئاسة الوزارة. وللأسف، مع وجود السادات على الدفة انحرف الاقتصاد المصري نحو مزيد من الفوضى، وأصبح فريسة أسهل للبيروقراطية سيئة السمعة.

وهكذا، مع صيف ١٩٨٠، لم يعد حول السادات من الشخصيات ذات الوزن في الحياة السياسية سوى حفنة تعد على أصابع اليد الواحدة، هم نائب الرئيس حسني مبارك، ووزير الدولة لشؤون الرئاسة منصور حسن، واسامة الباز ووزير الخارجية الجديد كمال حسن علي، واخيرا بطرس غالي. وحتى هؤلاء كثيرا ما كان السادات يفضل عليهم الركون الى حلقة أخرى غير رسمية يحس معها بالارتياح ويلتمس منها المشورة، وعلى رأسها صهره الملياردير المعروف عثمان أحمد عثمان. وعلى هذا النحو لم يعد لمصطفى خليل وأمثاله مكان هنا أو هناك.

وفي الوقت الذي آوى فيه الى مقره الصيفي بالاسكندرية لم يكن السادات أكثر من رجل لا حول له ولا قوة، بلا أصدقاء، وضحية لأعوانه واعدائه ونفسه على حد سواء. وفي وحدته وعزلته لم يعد يستطيع اخفاء غضبه وحنقه على الدنيا الغدارة التي لم تتكشف له على النحو الذي كان يتصوره. وأصبح سلوانه الوحيد هو أحفاده، وبالذات شريف الذي ولد يوم قام بمبادرته وزار القدس، هذا بالطبع الى جانب التلفزيون الأميركي الذي لم يتخل عنه أبداً، حتى بعد أن ولى زمان الدبلوماسية التلفزيونية.

وذات يوم من أيام الصيف، وبينما كان الملك حسين يزور الرئيس كارتر في واشنطن أعد لنا لقاء مع السادات في قصره الصيفي. فأدركنا أنه لا بد لديه شيء يريد أن ينفثه عن صدره. فذهبنا، وبعد أن فرغنا من اعداد الكاميرات في مواقع

مختلفة من الحديقة الواسعة، ظهر السادات مقبلاً وفي يده حفيده شريف. فتقدمت منه وكأني جارة طيبة تلقى جارها صدفة في الصباح. وبعد التحية والسلام والسؤال عن صحة الأولاد والأحفاد وطيب الجو في الاسكندرية، تدرج الحديث الى مشاكل الشرق الأوسط التي بدا أن نفور الرئيس منها لا يقل عن نفوره من حافظ الأسد أو الامام الخميني. وكان مجرد ذكر زيارة الملك حسين لواشنطن كافيا لكي تفلت أعصابه وينفجر غضبه. وكان مما قاله أن محادثات حسين في البيت الأبيض لن تفضي الى شيء، لأن حسين كما وصفه «مزايد وانتهازي». وانه كان يود لو يشاركه في «كامب ديفيد» ولم يمنعه من ذلك «سوى المال، وملايين الدولارات التي أغرقه به بعض الحكام العرب».

ولقد كان هذا الحديث عملاً جيداً من الناحية التلفزيونية. ولكن أيام دبلوماسية التلفزيون - كما قلنا - كانت قد مضت الى غير رجعة. ولقد كان السادات يعلم جيدا أن ما منع الملك حسين من الانضمام لـ«كامب ديفيد» أنه لم يكن مخولا للتحدث باسم الفلسطينيين، ثم أن اتفاقيات «كامب ديفيد» ثبت مع الأيام أنها لم تحقق للفلسطينيين لا الحكم الذاتي ولا حق تقرير المصير. وكان الاسرائيليون انفسهم هم الذين قاموا بمهمة اثبات ذلك منذ لحظة توقيع «كامب ديفيد». أما اللجوء الى أسلوب الاهانة والسباب والاتهامات في تلك اللحظة بالذات فلم يكن له اي جدوى، وانما كان دليلا جديداً على أن من أمامنا الآن انما هو رجل يائس وفي الوقت نفسه عاجز عن الاعتراف بأنه كان مخطئا، ولا يريد الاعتراف علنا بما هو مقتنع به في أعماقه، ألا وهو أن الأميركيين، وبالذات جيمي كارتر، قد تخلوا عنه، ولم يفعلوا ما فيه الكفاية لانقاذه من المهانة في بلده وفي العالم العربي.

فلقد سمح الأميركيون للاسرائيليين بأن يجعلوا منه سخرية. هذا بالتحديد ما كان يدور في خلده دون أن يجرؤ أو يجد في نفسه الشجاعة للافصاح عنه. ومع ذلك، فقد كانت اقدامه قد غاصت في المستنقع الى حد لم يعد يستطيع معه الا أن يجاهد من أجل الاحتفاظ بحظوته لدى الأميركيين بعد أن القى كل بيضه في سلتهم، وان يواصل تأييده لجيمي كارتر الذي كان فوزه بمدة رئاسة ثانية الآن يشكل الأمل الوحيد أمام السادات للخروج من ورطته.

ومرت ثلاثة ايام، وفي حركة يائسة أخرى، قفز السادات فوق رأس رئيس الوزراء الاسرائيلي مناحيم بيجن متوجها الى «شعب اسرائيل» ليناشدهم مباشرة المساعدة على انقاذ السلام. وفي حديث مع ايهود يعاري مراسل التلفزيون الاسرائيلي بالقاهرة أخذ يحث الاسرائيليين على مواجهة امكانية وضرورة وجود دولة فلسطينية قائلا:

ان العالم كله مع الفلسطينيين في ضرورة قيام دولة لهم، وفي حقهم في تقرير المصير، أما اقامة المستوطنات على اراضي الغير فهو امر مرفوض من العالم أجمع.

انكم أمام أحد خيارين، أما أن تقفوا ضد العالم أجمع بما فيه الفلسطينيين وتحاولوا الافلات من هذا القرار الصعب، واما - وهذا ما أطالب به - أن تجلسوا وتفكروا كيف نستطيع العيش معاً في هذه المنطقة، كيف ستعيشون أنتم، وما هي الضمانات التي تحتاجها اسرائيل عندما تقام الدولة الفلسطينية. ولكن اذا كنتم تريدون تحدي ارادة العالم، فليس لدي ما أقوله لكم.

* * *

وفي يوم ٢٧ يوليو مات الشاه، وكان تلفزيون «ايه. بي. سي» أول من أذاع النبأ على العالم. وفي برنامج «مساء الخير يا أميركا» اذيعت لي رسالة أخرى وصفت فيها اللحظات الأخيرة في حياة الشاه، وكيف ان آخر كلماته كانت «أرجوكم.. افعلوا شيئا لانقاذي»... وتحدثت عن السادات والذي قطع اجازته في الاسكندرية طائرا الى القاهرة ليكون الى جوار عائلة صديقه الحميم «التي اصبحت الآن عائلتي».. وقلت انه تقرر اعداد جناز رسمي وشعبي يوم الثلاثاء، حيث سيتم دفن الشاه في ضريح مسجد الرفاعي الذي يضم رفات والده.

وفي اليوم الموعود، الثلاثاء ٢٩ يوليو شهد الطريق من قصر عابدين الى مسجد الرفاعي الجنازة المهيبة، يتقدمها السادات ببزة عسكرية رسمية مغطاة بالأوسمة والنياشين، وراء عربة النعش التي تجرها الخيول، والمغطاة بألوان العلم الايراني، والى جواره الأرملة فرح ديبا متشحة بالسواد، يحف بها من الجانبين الرئيس الاميركي الأسبق ريتشارد نيكسون وملك سابق هو ملك اليونان قسطنطين، وكان رئيس الدولة الوحيد في الموكب هو السادات، والدول الوحيدة التي حضر عنها ممثلون كانت فرنسا وبريطانيا والصين والمغرب والولايات المتحدة واسرائيل. ولكن الظاهرة التي استرعت الانظار كانت مقاطعة الشعب المصري للجنازة رغم الحشد الكبير من الأسماء المشتركة فيها وطول الطريق من سراي عابدين حتى مسجد الرفاعي.

وفي رسالة الى نيويورك تحدثت عن «شجاعة» السادات الذي لم يتردد في استضافة الشاه مرتين خلال ١٤ شهرا، في وقت تكرر رفض الشاه من بلد الى بلد، من المغرب وجزر البهاما والمكسيك وتكساس ونيويورك واخيرا بناما.

وقد يحلو للبعض أن يصدقوا أن شجاعة السادات في استضافة الشاه كانت نابعة فقط من دوافع «الصداقة والوفاء والرحمة الاسلامية والامتنان» كما زعم السادات. ولكن هذا الرجل كان أكثر ميكيافيلية من أن تحركه هذه العوامل الانسانية وحدها. والأقرب الى الصدق أنه كان يريد مساعدة الأميركيين الذين كانوا في ورطة حرجة

بسبب الشاه، وكان يعتقد أنه بذلك يفوز بحظوة أكبر لدى واشنطن. ولم يخطر بباله لحظة ولم يمنعه ان واشنطن ربما كانت تفضل أن يكون أقل كرماً، وانها لا ترغب في أن تحل مشكلة على حساب خلق مشكلة أخرى، وان الرئيس كارتر نفسه كان معارضا بشدة في قرار الشاه بالذهاب الى مصر. ذلك أن السادات كان يقدر أن لفتته الشجاعة سوف تزيد من محبته لدى الجماهير الأميركية. وقد كان تقديره في هذه النقطة صحيحاً، فالشارع الأميركي بات الآن مولعا بالسادات أكثر من أي وقت مضى.

* * *

مع انشغال السادات بأموره الداخلية، وانغماس الرئيس كارتر بمعركة انتخابات الرئاسة قرر رئيس الوزراء الاسرائيلي مناحيم بيجن ان يملأ الفراغ بالاعلان رسميا عن ضم القدس العربية. فبعد أربعة ايام فقط من تشييع جنازة الشاه دفعت حكومة اسرائيل بقانون يجعل من القدس العاصمة الموحدة الأبدية لاسرائيل. وعندما قدم القانون للكنيست قبل ذلك بشهرين هدأت واشنطن الرئيس السادات بقولها أن هذا مجرد اجراء رسمي سيوضع على الرف الى أجل غير مسمى وليس هناك ما يدعو للجزع.

ولكن مع صدور القانون ـ بينما الشريك الاميركي مشلول سياسيا عن الحركة ـ كان رد السادات الغاضب ان طلب من الاسرائيليين أن يبقوا في تل ابيب ولا يحضر منهم احد للاسكندرية في الموعد المقرر لمحادثات السلام. ولقد كان الاستفزاز الاسرائيلي الاخير مبررا كافيا للسادات لكي يعلن تجميد أو وقف أو قطع هذه المفاوضات المزعومة التي جعلت من السلام و«مستقبل الضفة الغربية المحتلة بما في ذلك القدس العربية مجرد اضحوكة». بل كان يستطيع أن يرد بدعوة السفير المصري من تل ابيب أو بقطع العلاقات العادية مع اسرائيل. ولكنه بدلا من ذلك امتنع عن اتخاذ اي اجراء من هذا النوع، وذلك لثلاثة أسباب رئيسية هي: انه لا يريد أن يضر بقضية ترشيح كارتر عن الحزب الديمقراطي وحملته الانتخابية من أجل فترة رئاسة ثانية، ولا يريد أن يعطل اعادة الثلث الباقي من سيناء الذي لا يزال في قبضة الاسرائيليين، وكذلك لأنه لا يريد أن يشوه صورته كصانع للسلام، مؤثرا ان يترك دور الشرير لمناحيم بيجن.

لذلك ، كان ما فعله هو مجرد «ارجاء» محادثات الحكم الذاتي الى أجل غير مسمى. فارسل الى بيجن رسالة من عشر صفحات يطلب فيها ضمانات علنية أو سرية بألا يتجاوز القانون مناقشة المشروع دون اقراره، فاذا حدث ذلك فان المفاوضات يمكن أن يكون لها معنى، حتى ولو بمعايير السادات. والمسؤولية الآن تقع على اسرائيل، ففي وسعهم أن يقتلوا عملية سلام «كامب ديفيد» أو ينقذوها.

ولكن لم يكن هناك امل في ضمانات، على الاقل في المنظور القريب.

وبعد شهر واحد فقط، عاد السادات فوافق على استئناف المحادثات، وذلك بعد ساعة واحدة من تصريح له أمام اساتذة الجامعات المصرية بأنه لن يستأنف المفاوضات حول الحكم الذاتي الفلسطيني طالما اسرائيل لم تغير سياساتها ازاء القدس والضفة الغربية. كما قال نفس الشيء اثناء اجتماع له مع صول لينوفيتش السفير الاميركي الجوال بالشرق الأوسط الذي خلف روبرت شتراوس.

وفي محاولة لتفسير هذا التذبذب العجيب في موقف السادات قال معاونوه ان ما حدث ليس استئنافا للمفاوضات. وانما هو مجرد محادثات تمهيدية لقمة ثلاثية تضم كارتر والسادات وبيجن تقرر انعقادها في نوفمبر بعد اعادة انتخاب كارتر، كما كان السادات واثقا من توقعاته. وفي نفس الليلة قلت نقلا عن مصدر رسمي رفيع المستوى أن الأمر برمته لا يعدو «ان أنور السادات يؤدي خدمة علاقات عامة على المستوى السياسي لجيمي كارتر».

وبالرغم من نفي صول لينوفيتش الحاسم لحديث القمة فقد تأكد على لسان كارتر نفسه دون الناس جميعا، حيث تلقف بابتهاج فكرة القمة الثلاثية ليعلن عنها كورقة انتخابية، على اساس انها دليل بأن عملية سلام «كامب ديفيد» لا زالت على قيد الحياة. وكان واضحا ان السادات لن يتورع عن أي عمل من اجل الرئيس الاميركي. وفي نفس الوقت صدرت الأوامر الى الصحف المصرية بالكف عن تشبيه مناحيم بيجن بهتلر.

غير ان المصريين العاديين في سبتمبر ١٩٨٠، كانوا مشغولين بمستقبلهم أكثر من انشغالهم بمستقبل القدس أو الفلسطينيين أو مناحيم بيجن. ففي هذا البلد الذي لا ينتج من الطعام ما يكفي ابناءه، وحيث أن ١٠ بالمائة من أهله يستهلكون سوى ٩٠ بالمائة من انتاجه بينما الفقراء ونسبتهم ٩٠ بالمائة لا يستهلكون سوى ١٠ بالمائة، كانت عملية المتاجرة بأقوات الشعب قد تصاعدت بدرجات مخيفة، وسماسرة السوق السوداء لا يفعلون في الواقع الا السرقة من أفواه الفقراء والبيع للأغنياء.

وفي محاولة لتخفيض اسعار المواد الغذائية ـ وخاصة اللحوم ـ والحد من الفساد المستشري في السوق امر السادات بحظر ذبح الماشية ومنع بيع جميع انواع اللحوم طوال شهر سبتمبر. وقد كان نتيجة ذلك اغراق محلات الجزارة بمزيد من الديوك الرومي والأرانب والحمام والبيض التي لا يستطيع المستهلك الفقير شراءها، وارتفاع اسعار هذه الاصناف البديلة الى ارقام خيالية، وانصراف جهد الوسطاء الجشعين الى نزح هذه السلع وغيرها من السلع الغذائية المعانة من مخازن القطاع العام الى محلات القطاع الخاص. هذا فضلا عن ان حظر بيع اللحوم لم يكن بدون استثناءات. فالسياح والاجانب وأغنياء المصريين كان باستطاعتهم دائما الحصول على

اللحم من الفنادق الفخمة ومطاعم الدرجة الأولى، وحتى في منازلهم انطلاقا من مبدأ أنه حيث توجد النقود فكل شيء ممكن.

أما بالنسبة لجمهور المصريين، فلم يكن للحظر قيمة تذكر. ذلك أن شهر سبتمبر مر مثل كل ما سبقه من شهور لم يروا فيها اللحم الا في الصور، ومحلات الجزارة.

وكان هذا موضوعا لبعض رسائلي من القاهرة.

* * *

واندلعت الحرب العراقية - الايرانية في اوائل سبتمبر، وما كان من الممكن أن تندلع في وقت أفضل من ذلك بالنسبة للسادات. فقد كان عاجزا عن صنع أي شيء في موضوع السلام حتى تنتهي انتخابات الرئاسة الاميركية. كما انه غير راغب - أو ربما غير قادر - على تناول مشاكله الداخلية من جذورها. والآن ها هي فرصة قد سنحت للدخول في لعبة الصراع العالمي بين الشرق والغرب، وانتزاع دور شرطي المنطقة الذي خلا بذهاب الشاه.

وبالرغم من ان السادات كان يود أن يؤدب العراق وينتقم من الرئيس العراقي صدام حسين الذي قاد الحملة ضد المبادرة وكامب ديفيد الا أن الحرب العراقية - الايرانية في رأيه كانت الطريق الوحيد أمام الولايات المتحدة للخلاص من آية الله الخميني. وفي مقابلة مع ممثلي التلفزيون الاميركي بقرية ميت أبوالكوم بالمنوفية - مسقط رأسه - حذر السادات الادارة الاميركية قائلا «بحق الله .. كونوا يقظين هذه المرة ولا تقدموا كل شيء للاتحاد السوفياتي على طبق من ذهب».

وكان حديثه تكرارا لما سبق ان قاله عدة مرات الا وهو ان الولايات المتحدة ما زالت اسيرة لعقدة فيتنام، التي لا تعني سوى العزلة ولا تليق بدولة عظمى. ولم يتردد في القول ان واشنطن ضعيفة ومترددة. ولكنه من أجل علاج الوضع السيء في المنطقة يعلن وهو يواجه عدسات الكاميرا ان مصر «مستعدة للقيام بمسؤولياتها من أجل الحفاظ على الأمن وتوازن القوى في المنطقة».

وكان مما قاله أن مصر والولايات المتحدة تتشاوران معا في هذا الصدد. ومع أنه لم يتطرق الى التفصيلات الا انه اعترف بأن هناك خطة طوارىء تجرى الآن دراستها في حالة ما اذا شكلت الحرب العراقية - الايرانية تهديدا لأمن الخليج.

ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

الفصل الثامن

الموت على المنصة، وجنازة بطل غربي!

لم يكن في وسع السادات ولا حتى عفاريت الجن انقاذ جيمي كارتر من الهزيمة في الانتخابات. وفي يوم ٤ نوفمبر ١٩٨٠ سقط صديق السادات وشريكه في مبادرة السلام من حالق ليتحول بين ليلة وضحاها الى مجرد «نجم آفل» عفى عليه الزمن ولم يعد له حضور على الشاشة، خصوصا وان نظرته الى العالم كانت لا ترى الا اللونين الابيض والاسود مثل افلام الاربعينات.

واذا كانت تعقيدات مشكلة الشرق الاوسط اكبر مما تستطيع قدرات الرئيس ريجان أن تستوعبه، فان السادات يستطيع على الاقل أن يطمئن الى أن ساكن البيت الابيض الجديد مقاتل عنيد في ميادين الحرب الباردة، وعدو لدود للاتحاد السوفياتي والشيوعية. بل لعله يفوق السادات نفسه في ذلك. واذا كان جيمي كارتر قد التزم والزم نفسه بقضية السلام، فان ريجان ملتزم بقضية احتواء الخطر السوفياتي. وبذلك فهو بديل جيد ومقبول لدى السادات الذي كان دائما يعيب على الادارة الاميكية تساهلها مع السوفيات.

ومن ثم فان الشيء المهم الآن لدى السادات هو الحفاظ على العلاقة الوثيقة مع الادارة الاميركية. وان يجعل من مصر حليفا لا غنى عنه لاميركا في الصراع بين الغرب والشرق. حتى لو كان كارتر قد فاز، فان السادات يدرك الآن جيدا ان فرصة امتداد السلام لما هو ابعد من الحدود المصرية الاسرائيلية بعيدة وغير منظورة. وانه اولى به أن يركز اهتمامه ونشاطه على أن يجعل من مصر شريكا عسكريا

لاميركا يعتمد عليه مثل اسرائيل. وكانت فكرته انه وقد اصطلح مع اسرائيل - أقوى حلفاء اميركا في المنطقة - فانه اصبح جديرا بالاحترام الاستراتيجي! وواشنطن لن تضن عليه بما يساوي بلايين الدولارات من العتاد العسكري المتقدم. وطائرات اواكس الاستطلاعية تحلق في مهماتها انطلاقا من قاعدة قنا الجوية. والتسهيلات العسكرية المصرية وفي مقدمتها قاعدة رأس بناس على البحر الأحمر تحت امر البنتاجون. والقوات الجوية الاميركية والمصرية تجرى مناورات مشتركة. ولن تلبث المقاتلات المتقدمة مثل اف - ١٦ ان تنضم للترسانة المصرية لتحل محل طائرات الميج السوفياتية التي لم تعد تلقى من السادات سوى الاحتقار.

وفي منتصف نوفمبر ١٩٨٠ شاركت قوات برية وجوية من قوة الانتشار السريع المشكلة حديثا مع القوات المصرية في مناورات النجم الساطع التي تضمنت نقل ١٤٠٠ جندي واطنان من المعدات والمؤن مباشرة من الولايات المتحدة في غضون اربعة ايام ونصف يوم. ولم يكن هذا انجازا طيبا من ناحية السرعة ولكنه كان درسا قيما في ما يتصل بتطوير قوة التدخل السريع خصوصا اذا استدعى الامر نقل آلاف الجنود للدفاع عن الخليج والشرق الاوسط ضد اي تهديد سوفياتي او اضطرابات اقليمية.

والواقع ان قوة التدخل السريع التي بدأ كارتر تشكيلها في اعقاب الثورة الايرانية وازمة الرهائن والغزو السوفياتي لافغانستان، ومناوراتها الاولى بالاشتراك مع القوات المصرية كانت استعراضا مثاليا للوضع الجديد للسادات. واذا كان الاميركيون قد ادهشوا المصريين بتفوق سلاحهم وادائهم، فان هؤلاء من جانبهم قد علموا الاميركيين كيفية التعامل مع الاراضي الصحراوية والظروف الجوية المشابهة للجزيرة العربية، ومن ذلك مثلا كيفية الهبوط بطائرات الهليكوبتر فوق الرمال الناعمة، الأمر الذي كان يشكل صعوبة بالنسبة للطيارين الاميركيين الذين اعتادوا الهبوط في اماكن صحراوية مميزة بالعلامات كما هو الحال في الصحراء الجنوبية الغربية بالولايات المتحدة.

غير ان الاميركيين تعلموا شيئا آخر. ذلك أن احتضان السادات الجامح للعسكرية الاميركية كان ينتهي تماما على ابواب الثكنات. وان جنرالات مصر وقادتها العسكريين مهما بلغ ترحيبهم واستقبالهم الودي للاميركيين الا انهم حساسون جدا بالنسبة للأجانب ولا زالوا متأثرين بتجربتهم المرة مع السوفيات. والآن وقد اصبحوا سادة انفسهم، وسيطرتهم كاملة على قواعدهم فانهم لا يرغبون في هذه المناورات المشتركة خصوصا وهي مصحوبة بكل الضجة الاعلامية التي يؤثرها الاميركيون بل ويطرب لها السادات نفسه.

وكانت نتيجة ذلك ان تغطية وصول قوة التدخل السريع للقاهرة اقتصرت على

المصورين العسكريين الذين صوروا ووزعوا اشرطتهم تحت رقابة مشددة من العسكريين المصريين. اما عن المناورات ذاتها فلم يتح لنا أن نغطي سوى يومين اثنين من اربعة عشر يوما. وكان هذا من وجهة نظري كافيا جدا. وعلى وجه العموم فان القوات الزائرة كانت تدرك حساسية الوضع السياسي ولذلك فقد التزموا جانب التواضع قدر الامكان.

ولكن مع نهاية ١٩٨٠ لم يعد من السهل اخفاء حجم الوجود الاميركي في مصر. فالبعثة الدبلوماسية الآن في القاهرة اكبر بعثة من نوعها في العالم، ونما عدد افرادها في سبع سنوات من ستة افراد الى ثمانمائة، اكثر من نصفهم يعمل في المعونات العسكرية والاقتصادية. ولم يعد مبنى السفارة ـ الذي يقع على بعد امتار من مقر السفارة البريطانية بحي جاردن سيتي ـ لم يعد كافيا لاحتواء كل هذا العدد من العاملين والمشروعات. وبدأ التفكير في بناء مجمع ضخم للسفارة لايواء الوجود الاميركي الكبير الامر الذي اثار الى حد ما عددا من الدبلوماسيين المحترفين مثل هيرمان الينس الذي مان سفيرا للولايات المتحدة بالقاهرة من ١٩٧٤ حتى منتصف ١٩٧٩. وكانت وجهة نظره أنه ـ وان كان يعترف أن مصر ليست ايران ـ الا اننا يجب الا نتجاهل الدروس التاريخية، والاخطار التي يمكن ان تنجم عن مثل هذا الوجود الاميركي المبالغ فيه.

غير انه مع نهاية العام كانت مشاكل مصر السادات قد انزاحت جانبا لتغطي عليها بعض عواقب الاخطاء القاتلة للسياسة الاميركية في ايران، والتزام الولايات المتحدة السابق نحو رجل آخر ونظام مشابه في ولائه لاميركا. ويبدو أن حكومة الثورة الايرانية كانت قد استوفت غرضها من احتجاز الرهائن وبدأت المفاوضات بالفعل بوساطة من الجزائر من اجل اخلاء سبيلهم، حتى بات هذا متوقعا ان يتم يوم ٢٠ يناير أي يوم تولي الرئيس الاميركي الجديد سلطاته الدستورية وانتهاء عهد كارتر.

وهكذا، تركت السادات في القاهرة يشارك كارتر احزانه رغم بعد المسافة، وشددت الرحال الى الجزائر لأغطي الحدث الأهم. وقد حرص الايرانيون على اطالة المفاوضات عن طريق الجزائر وتأخير اخلاء سبيل الرهائن الى ما بعد خروج كارتر من البيت الابيض حتى لا يكون له شرف الزعم بأن الازمة قد انتهت في عهده. وبالفعل بعد نصف ساعة من دخول ريجان البيت الأبيض كان الرهائن في طريقهم الى بلدهم.

وعدت بدوري للقاهرة لأجد مفاجأة في انتظاري. فبعد عام ونصف العام من الضغط من جانب والممانعة من جانب آخر وافق المسؤولون في نيويورك على نقلي كمراسلة دائمة لتلفزيون «ايه. بي. سي» بالعاصمة الفرنسية باريس.

واعترف اني لم ابتهج كما كنت اتوقع للنبأ العظيم بل وجدت نفسي نهبا لاحساسين متناقضين كل منهما يشدني في اتجاه.

فأنا من ناحية، بعد ثلاث سنوات بذلت فيها كل ما يمكن من جهد في القاهرة، واحرزت اكثر من هدف في مرمى المنافسة مع الشبكات الاخرى اجدني قد شبعت ولم اعد ارغب في المزيد. كما ان نقلي الى باريس كان امنية ناضلت طويلا من اجل تحقيقها. غير اني من ناحية اخرى كنت احس ان القصة التي شاركت في بدايتها، واسهمت كمراسلة لتلفزيون «ايه. بي. سي» في حبكتها لم تصل الى نهايتها. لم تصل بعد الى لحظة انزال الستارة.

ورغم ذلك فقد تغلبت على مشاعري. وفي فيض من الذكريات الحلوة والمرة حزمت حقائبي وبعد حفل وداع مثير رحلت الى باريس.

وبعد ان استقر بي المقام في العاصمة الفرنسية، انتهزت فرصة لقاء عشاء مع المدير الجديد لمكتب باريس ـ اف ويستين ـ وكان هو نفسه الذي فاتحني منذ اكثر من ثلاث سنوات للعمل بالقاهرة، الا وهو اعداد برنامج شامل عن تجربتي في مصر واوضاعها الآن مدته ٤ ساعات، مؤيدة بالوثائق والصور، ومنها ساعة كاملة عن السادات الذي جعلته سياسته بطلا بالنسبة للغرب بقدر ما هو شرير مبغوض في وطنه. باختصار كنت اريد للبرنامج ان يعطي صورة حقيقية متعددة الابعاد للسادات، عن طريق جهاز الاعلام الذي كان شغوفا به اكثر من اي شيء آخر، ألا وهو التلفزيون الاميركي. ثم كيف ولماذا غاصت مصر في هذا الوضع السياسي والاقتصادي اليائس، كيف ولماذا حل اليأس محل الأمل في السلام، وكيف ولماذا تحول السادات من دكتاتور معتدل الى طاغية جبار، وماذا يعني هذا الوضع المتفجر بالنسبة لمستقبل السادات، ومصر، والسلام، والشرق الأوسط، والمصالح الاميركية في المنطقة. وكان لا بد بالطبع من اجل استكمال البرنامج ان يتضمن مقابلات واسئلة واجابات.

سأل ويستين:

ـ هل تستطيعين حمل المعارضة على الكلام امام الكاميرا؟

قلت، نعم. اعتقد اني استطيع. ان عشرات منهم مستعدون لقول كل ما لديهم رغم مناخ القهر السائد وما يمكن أن يتعرضوا له من مخاطر.

سأل مرة اخرى:

ـ هل يمكنك تقديم صور موثقة عن الفساد؟

اعترفت ان هذا قد يكون مشكلة أكبر، خصوصا وان الحديث عن الفساد، قد يتناول «السيدة الأولى»، واقرب المقربين الى السادات سواء من العائلة أو من الحلقة الحاكمة. فأهل القمة عادة يعرفون كيف يمحون آثار ما يرتكبون وخصوصا في

مجتمع مغلق محكوم بالبوليس.

«غير أني اعتقد على وجه العموم أني قادرة على تناول جانب (الفساد) من خلال سياق البرنامج الذي اعتقد أنه سيفي بالمطلوب».

تحمس ويستين للفكرة. وفي مايو ١٩٨١ كنت في مطار القاهرة لأجد زملائي وزميلاتي السابقين يستقبلونني بالاحضان. وكان أمامي اسبوعان لأستكمل مادة البرنامج الموعود، غير أني ما لبثت أن غرقت في دوامة الأخبار الساخنة. فالسادات ومناحيم بيجن يلتقيان لأول مرة منذ ١٧ شهرا في شرم الشيخ، حيث وافق السادات على الاجتماع برئيس الوزراء الاسرائيلي لسبب واحد هو أن يرجوه عدم تصعيد ازمة الصواريخ السورية في البقاع التي كانت تهدد بالتحول الى حرب شاملة، وان كان هذا لا يعني ابدا انها تهدد معاهدة السلام بين مصر واسرائيل. فقد اكد له السادات انها لن تفعل. وانما كل ما يريده هو أن يحذر بيجن من الاقدام على عمل قد يضاعف حدة التوتر ويزيد فرص عدم الاستقرار في المنطقة ويجهز على اي بصيص من الأمل في اقامة سلام اكثر اتساعا.

وفي عشية قمة السادات ـ بيجن اذاع التلفزيون الاميركي رسالتين لي. وفي اليوم التالي توجهت رغم أنفي الى شرم الشيخ لأغطي القمة التي كان مقررا لها يوم واحد. وبعد أن غطيت الخبر من هناك طرت الى تل ابيب ومنها على ظهر طائرة العال الى القاهرة.

وطوال هذه الفترة كان خليفتي في مكتب القاهرة موجودا في مهمة بلبنان. وجعلني هذا اطمئن الى انني استطيع الآن أن ابدأ العمل الذي جئت من اجله دون عقبات أو تدخلات.

غير اني لم اكد انتهي من مناقشة خطوات العمل مع مكتب لندن الرئيسي، مستخدمة لغة شفرية خاصة، حتى فوجئت بزميلي حسن بهجت يقول انني اضيع وقتي في استخدام الشفرة لأن مسؤولي الأمن في مصر قد اتصلوا به منذ اسابيع وابلغوه بالفعل اني عائدة الى مصر، مستفسرين عن الغرض من عودتي.

واتفقنا ـ حسن وأنا ـ أن نمضي في العمل كالمعتاد. فليس لدينا ما نخفيه. واذا كان السادات وحكومته يريدون فرض مقص الرقيب على ما ارسله من تقارير ومعلومات، او تقييد حريتي في التعبير أو الحركة، أو وضعي تحت المراقبة، أو التهديد بسحب اوراق اعتمادي، أو طردي من البلاد، فان هذا سيكون دليلا دامغا يؤكد صحة وجهة نظري، الا وهي أن السادات، ومصر، في ازمة بالغة العمق.

* * *

ولعل من المناسب هنا ان اشير الى ان زميلي المصري حسن بهجت لم يكن معجبا بالمرة بالسادات، ولم يكن مقتنعا باسلوبه في الحكم، بل كان يشمئز من كل ما

بقوله أو يفعله. وكان من رأيه منذ فترة طويلة أن التلفزيون الاميركي مسؤول عن تحويل السادات الى شبه اله يطأ ابناء بلده بالنعال دون أن يسأل عما يفعل، واننا لم نكن منصفين كما يجب في تغطيتنا الشاملة كما ينبغي ان تكون. واننا في التلفزيون مسؤولون فعلا، تماما مثل الولايات المتحدة واسرائيل والسادات نفسه عن كل السوء الذي وصلت اليه الأمور في مصر. وأعترف انه كان على صواب تماما. وكان من حقي أن أثق في أنه سيكون خير عون لي في اعداد برنامجي المنشود.

وبعد ثلاثة أيام من البحث والاستكشاف طرت الى باريس لأنهي الى ويستين تقديري العام للموقف. وكنت قد انتهيت من فوري من اجراء مقابلات سريعة مع عدد من قادة الجماعات الاسلامية المتطرفة. وقد ابدوا جميعا استعدادهم للحديث بصراحة مطلقة امام الكاميرا. وزادني هذا اقتناعا بأن البرنامج سيكون عملا ناجحا. وقد اقتنع ويستين ايضا، غير أني فضلت الانتظار حتى ينتهي فصل الصيف القائظ، مفضلة ان يبدأ التصوير في سبتمبر. ولم يكن لدى ويستين سوى شرط واحد، هو أن ابلغ خلفي في مكتب القاهرة بما أنا بسبيله حتى لا يكون هناك مجال لسوء الظن أو الاحساس بأني «اغزو» مجاله الحيوي.

***

غير أن صحافة العالم كانت مشغولة حينذاك بآخر قنبلة فجرتها اسرائيل. فبعد ثلاثة أيام فقط من قمة السادات وبيجن في ٧ يونيو ١٩٨١ اغارت تسع قاذفات اسرائيلية على بغداد، والقت قنابلها فوق مفاعل نووي عراقي ببعض ضواحي العاصمة، وتمكنت من الفرار تاركة المفاعل كومة من رماد، وتاركة السادات ايضا كالابله أكثر من أي وقت مضى.

وكنت قد انتهيت لتوي من كتابة «نظرة عامة» حول قمة السادات ـ بيجن، تستغرق اذاعتها من راديو «ايه. بي. سي» ١١ دقيقة، فأسرعت باعادة كتابتها على ضوء الغارة الاسرائيلية. ولما كانت هذه «النظرة العامة» لا تتعلق بما حدث فقط، وانما تتناول أيضا توقعاتي للمستقبل، فاني اجدها هنا تستحق التدوين بالكامل، حيث جرت كما يلي:

كان قد مضى ١٧ شهرا منذ التقيا لآخر مرة، والآن ها هما يلتقيان من جديد. ها هما، انور السادات ومناحيم بيجن يحتضن كل منهما الآخر بحرارة بالأسلوب المعتاد في الشرق الأوسط، على أرض ممر للطيران الحربي في شرم الشيخ، تحت الشمس الساطعة التي تلهب اشعتها رمال سيناء. وهذا الجزء من سيناء لازال تحت الاحتلال الاسرائيلي، ولكن مصر تطمع في استعادته في العام المقبل. وبالتالي فهو مكان مناسب جدا للقمة العاشرة بين الرجلين التي دعا اليها بيجن واستجاب لها السادات متلهفا من أجل مناقشة بعض «الاهتمامات المشتركة الملحة»، وهي عبارة غامضة

المقصود بها في الحقيقة أزمة الصواريخ السورية في البقاع بلبنان التي كانت تهدد بتفجير حرب شاملة بين اسرائيل وسوريا .

ولقد كان السادات من قبل يقول انه لن يحضر أية قمة اثناء معركة الانتخابات الاسرائيلية حتى لا يتهم بالتدخل في الشؤون الداخلية لاسرائيل. ومع ذلك فها هو الآن يلتقي بالرجل الذي كان يأمل ألا يضطر للتعامل معه بعد ٣٠ يونيو . ولكن السادات - مثل أي شخص آخر - كان يتابع ولا شك استطلاعات الرأي العام في اسرائيل وكلها تشير الى تزايد شعبية بيجن. ومن ثم، يبدو أنه آثر مواجهة الواقع. ثم انه في نهاية الأمر لازال ينتظر استعادة الثلث الباقي من شبه جزيرة سيناء، ولا يريد ان يعطل ذلك أي اعتبار. ومعنى هذا أن أهم شيء في نظره حتى ابريل ١٩٨٢ هو الا يستفز اسرائيل، والا يسمح بمزيد من زعزعة الاستقرار في المنطقة.

وهكذا، بعد الأحضان الحارة تحت شمس سيناء المحرقة بالمطار اصطحب بيجن الرئيس السادات في جولة بالهيلكوبتر فوق الأرض التي سيستردها هذا بعد عام، بما عليها من مطارات ومنشآت سياحية مقامة على واحد من أجمل الشواطىء المرجانية في العالم..

ولعله كان يريد أن يقنع السادات بحجم التضحية التي يتنازل بتقديمها. ومن اجل مزيد من الاقناع كانت هناك جماعة من المستوطنين يعبرون عن غضبهم بسبب تخلي حكومتهم عن هذه الأرض بكل ما عليها من جمال.

وبعد ساعة ونصف بدأت المحادثات، لتنتهي باتفاق الرجلين تماما حول أزمة الصواريخ السورية في لبنان. فسوريا هي الملومة - هكذا قال السادات - وهو يؤيد بيجن في مطالبته الرئيس حافظ الاسد بأن يسحب قواته من لبنان. والغريب ان السادات - وليس بيجن - كان هو الذي استخدم اعنف الكلمات ضد سوريا والاسد. فقد اتهم سوريا بأنها ادخلت قواتها منذ ست سنوات الى لبنان بحجة المساعدة على اعادة السلام لهذا البلد، ولكن الاسد لم يكن يهدف الا الى استيعاب لبنان في سوريا الكبرى. كما اتهم الاسد بأنه باستفزازه اسرائيل على هذا النحو انما يريد أن يحرف الانتباه بعيدا عن الحرب الاهلية المستعرة في داخل بلده. أما عن احتمال نشوب الحرب بين اسرائيل وسوريا فقد قال السادات انه لا يصدق ذلك لأن كلا الطرفين لا يريدان الحرب، ولأنها بالنسبة لسوريا بالذات ستعني نهاية حافظ الاسد. وعلى أية حال فهو يستطيع أن يؤكد أن معاهدة الصلح المصرية - الاسرائيلية ستظل قائمة.

وأكد الاثنان - السادات وبيجن - ان حرب اكتوبر ١٩٧٣ هي آخر الحروب بينهما. وقد اعلن السادات بوضوح ان مصر ستحافظ - عسكريا على الاقل - على الحياد في اي صدام يقع مستقبلا بين العرب واسرائيل، الأمر الذي اثار ثائرة العرب الذين اتهموه بأنه بهذا التصريح قد أعطى الضوء الأخضر لاسرائيل لكي تشن الحرب ضد سوريا أو ضد أي بلد عربي آخر.

وفي مقابل تأييد السادات، وتمسكه بموقف الحياد وافق بيجن على اتاحة مزيد من الوقت امام المبعوث الاميركي فيليب حبيب - وبلا اجل مسمى - لكي يحل مشكلة الصواريخ بسلام. وهو قرار كان معظم المراقبين والمسؤولين يعتقدون أنه معد سلفا

بدون ما حاجة الى تدخل السادات . ولكن السادات الآن اصبح له الفضل ولو علنا على الأقل . واستطاع ان يعزز صورته في نظر الغرب كداعية للسلام ، ولكنه في نظر العرب ونقاده المصريين كان قد ذهب خطوات أبعد في طريق الاستسلام .

فقمة شرم الشيخ في نظر هؤلاء كانت فكاهة من النوع السخيف والموجع معا . ومجرد مناورة انتخابية ناجحة من جانب رئيس الوزراء الاسرائيلي .

وقد اشتعل كثير من المصريين غضبا . غير اني اشك كثيرا ان السادات كان في كامل وعيه وهو جالس الى جوار بيجن بينما هذا يؤكد موقفه الذي لا يتزعزع من قضية القدس ، ربما لما سيجر هذا عليه من فوائد انتخابية ، لأن موضوع القدس اصلا لم يكن داخلا في محادثات الرجلين في ذلك اليوم . ثم تكرر ذلك في المؤتمر الصحافي التالي ، حيث تناول بيجن موضوع القدس مرة اخرى مؤكدا أنها ستظل الى الابد العاصمة الموحدة لدولة اسرائيل . قال هذا وهو يعلم تماما ان السادات قبل ايام قليلة تحدث بدوره عن ضرورة الحفاظ على وحدة القدس ولكن على أن يكون لها ادارة مشتركة من العرب والاسرائيليين .

وكان واضحا ان بيجن - باثارة موضوع القدس بهذه الصورة - انما يتعمد الاستفزاز . والحق ان سلوكه هذا لم يكن يتنافى فقط مع قضية السلام بل كان ينم عن قلة الذوق . وقد نظرت الى وجه السادات في هذه اللحظة لألتقط أية علامة تدل على الغضب أو الاستياء ولكن وجهه ظل جامدا بلا أي تعبير . وعندما استعدت الى ذاكرتي عدد المرات التي صفعه فيها بيجن على وجهه منذ نوفمبر ١٩٧٧ أيقنت أن السادات قد اكتسب مع الزمن مناعة خاصة ضد استفزازات بيجن ، وان هذا الاستفزاز الأخير لن يؤدي الا الى مضاعفة الهجوم ضد السادات من جانب العرب ونقاده المصريين .

غير أن هناك وجها آخر لعدم الاتفاق طفا على السطح اثناء الجانب الرسمي من محادثات الاثنين . فقد طلب السادات من بيجن أن يوقف الغارات الجوية الاسرائيلية على مواقع الفلسطينيين في لبنان . ولكن طلبه رفض ، على اساس أن هذه الغارات ضرورية لأمن اسرائيل . وواضح ان السادات كان يتوقع هذا الرفض ، وكما قال لي اسامة الباز قبل القمة « نحن لا نتوقع ان يوقف الاسرائيليون غاراتهم ضد الفلسطينيين ، وانما سوف يستمرون كما كانوا دائما يفعلون » .

وهكذا انتهى لقاء شرم الشيخ الذي تبنته الولايات المتحدة ، ان لم تكن هي التي رتبته ، بنفس الطريقة التي بدأ بها ، أي بالأحضان . ولكنني احسست هذه المرة أن ما شهدته لم يكن مؤتمر قمة بقدر ما كان عرضا من عروض العلاقات العامة من جانب السادات ومحاولة لكسب الاصوات الانتخابية من جانب بيجن . وقد قدم كل من الرجلين خدمة سياسية لصاحبه . واذا أمكن تفادي الحرب بين سوريا واسرائيل فان التاريخ في اعتقادي لن يعطي الفضل في ذلك لقمة شرم الشيخ .

ولم يكن أحد منا يعلم في هذه اللحظة ان اسرائيل ستقوم بعد ثلاثة ايام فقط بمغامرة جديدة تزيد معها فرص السلام ضعفا على ضعف ، مغامرة لا ضد سوريا ، وانما ضد العراق .

ففي يوم الأحد ٧ يونيو، القت تسع قاذفات قنابل اسرائيلية قنابلها على المفاعل النووي العراقي في بعض ضواحي بغداد. وبهذه القنابل اجهز بيجن على ما بقي من ماء وجه السادات، وعراه من اي اثر للكرامة السياسية والشخصية. ولا يوجد هنا من يستطيع تقدير ابعاد هذا الاذلال الجديد الذي حل بالسادات. ولكن علينا أن ننتظر ما ستقوله كتب التاريخ والمذكرات. وكل ما يمكن قوله الآن ان رئيس الوزراء الاسرائيلي قد نجح في اظهار السادات بمظهر الأبله الذي دأب نقاده العرب والمصريون على تصويره.

وينبغي ان اعترف هنا انني وجدت الاسلوب الذي استغل به بيجن ضعف السادات خسيسا للغاية. فقبل ان يضرب المفاعل العراقي كان يدرك جيدا أن الرئيس المصري لن يكون في وضع يسمح له بأن يرد الضربة بأكثر من مجرد كلمات. كان يعلم ان السادات يريد استرجاع الثلث الباقي من سيناء بأي ثمن، وانه حتى ابريل المقبل لا يستطيع حتى الاحتجاج. وكان يعلم ايضا ان السادات رجل كريم صبور، اقام كل سمعته على مدى ثلاث سنوات ونصف كرجل سلام، ومن ثم فلن يجعل معاهدة السلام التي عقدها معه تذهب ضحية لقصفه المفاعل العراقي. وكان يعلم ايضا ان العرب سوف يصبون على السادات كل مدفعيتهم، وان الولايات المتحدة سوف تستاء كثيرا خصوصا وان طائرات اميركية الصنع قد استخدمت في الغارة على بغداد. وكان يعلم ان السادات سيزداد عزلة عن اشقائه العرب وان الهجوم على المفاعل العراقي سيكون آخر مسمار في نعش محادثات الحكم الذاتي ويقضي على آخر أمل في سلام حقيقي بالمنطقة.

كان بيجن يعلم كل هذا، ومع ذلك فقد تغافل عن مراعاة العواقب بعيدة المدى لغارته من اجل مكاسب محدودة مؤقتة. ولعل مجرد اعترافه علنا بأنه لا يهمه ما يقوله الآخرون دليل كاف على عدم احساسه، ليس فقط بالنضال المرير من اجل السلام، ولكن ايضا بالرجل الذي قدم له يده المرة بعد المرة، وكما لم يفعل احد من قبل، من اجل السلام.

لقد دأب السادات على حمل غصن الزيتون الى بيجن. فكان جزاؤه ان يحطم هذا اسنانه ويجدع انفه. وها هو الآن أصبح اضحوكة في نظر العرب جميعا، وفي داخل مصر بنوع خاص. ومن حق اصوات المعارضة المصرية اليوم ان ترتفع صارخة به ان «كفى.. كفى.. كم قلنا لك ذلك». وقد دعت قوى المعارضة بالفعل الى معاقبة اسرائيل بقطع مبيعات النفط لها، ووضع حد لتطبيع العلاقات واستدعاء السفير المصري من تل ابيب.

ولكن الرئيس المصري رفض دعوة المعارضة . وكل ما فعله هو التوسل الى الولايات المتحدة والدول المحبة للسلام ان تضغط على اسرائيل «كي توقف ما تأتيه من اعمال العنف والعدوان في المنطقة وان تحترم القانون الدولي وميثاق الامم المتحدة». ووصف الغارة الاسرائيلية بأنها تصرف غير مسؤول، ولا مبرر له، ويستحق اللوم.

ولكن الاتجاه العام في مصر كان الاحساس بمزيج من الغيظ والمهانة والاحباط. وكما عبر صديق مصري من أهل القاهرة: ان ما حدث هذه المرة اكثر مما نستطيع أن

تحتمل !! ولكن يبدو أنه طالما السادات على رأس الحكم فانه سيتعين على مصر أن تحتمل هذا وأكثر. والسؤال الوحيد الآن هو كم مرة سيتعين على مصر أن تدير خدها الأيمن لمن يضربها على الخد الأيسر؟ الى أي حد يمكن دفعها في هذا الاتجاه؟ وحتى متى يستطيع السادات أن يبقى في مكانه؟

* * *

ومع منتصف يوليو كانت مشاكل السادات قد اتسعت وتضخمت لتصل الى الدائرة التي طالما ساعدت على تلميعه وتعظيم مكانته على الصعيد الدولي، الا وهي دائرة وسائل الاعلام الغربية وبالذات الاعلام الاميركي على صعيد الصحافة والتليفزيون والاذاعة. فلم تمض ايام على اذاعة رسالتي من راديو «اي. بي. سي» حتى شهدت القاهرة اسوأ صدامات طائفية بين المسلمين والاقباط في حيين من احيائها الفقيرة. ونجم عن الصدام مصرع نحو ستين شخصا واصابة عدة مئات.

ومع أن هذه الصدامات - رغم عنفها - لم تكن تشكل خطرا داهما على النظام، الا انها كانت دلالة على مدى عمق السخط لدى الجماهير بسبب روابط السادات الجديدة مع الاميركيين واسرائيل، واستعدادها للانفجار لدى اي سبب. اما الرئيس المصري فقد وجد فيها مادة يستطيع أن يحتفظ بها لكي يستخدمها في ما بعد.

وقد فعل.

* * *

والآن، حان الوقت للالتقاء مع الوافد الجديد على البيت الأبيض. ففي أوائل اغسطس توجه الرئيس المصري الى واشنطن ليسحر بشخصيته الرئيس الاميركي الجديد والذي كان بلا شك في حاجة ماسة الى بعض الدروس. واغلب الظن ان محاضرة السادات عن «النزعة المغامرة لدى السوفيات» (وكانت محاضرة مزودة بالخرائط) كانت اكثر قبولا لدى ريجان من عرضه للنزاع العربي - الاسرائيلي و«لب مشكلة الشرق الاوسط»، الا وهو مصير الفلسطينيين ومستقبل الضفة الغربية وغزة.

واقترح السادات في لقائه الأول مع ريجان ان تمسك الولايات المتحدة بزمام المبادرة وتنتهز فرصة وقف اطلاق النار في لبنان بين اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية - وقد جرى الاتفاق عليه تحت رعايتها - لكي تدفع بعملية السلام الى الامام. وطالب الرئيس ريجان بأن يغير سياسة الولايات المتحدة وان يبدأ التعامل مباشرة مع منظمة التحرير الفلسطينية. ولكن ريجان رده خائبا، وذلك لسبب بسيط هو أنه أخذ بوجهة نظر بيجن في أن المنظمة لا تزيد عن كونها تنظيما ارهابيا. ولعل السادات وجد أنه ليس من الملائم أن يذكّر الرئيس الاميركي بماضي بيجن الارهابي. هذا

بالاضافة طبعا الى أن صديق السادات العزيز هنري كيسنجر بالذات كان هو الذي تعهد في عام ١٩٧٥ بأن الولايات المتحدة لن تتفاوض ابدا مع منظمة التحرير الفلسطينية الا اذا اعترفت هذه أولا بحق اسرائيل في الوجود.

كذلك يبدو ان السادات احس ان الاميركيين يتلكأون في تسليم ما وعدوا به من عتاد عسكري مثل طائرات اف ـ ١٦، ودبابات ام ـ ٦٠، وصواريخ هوك المضادة للطائرات وغيرها من الاسلحة التي يرى انها ضرورية من اجل رفع معنويات قواته المسلحة. ولكن الادارة الاميركية فيما يبدو بدورها لم تكن متحمسة للتعجيل بتذليل الصعوبات التي تواجه السادات، حيث انها لم تكن قد صاغت بعد سياستها ازاء سلام الشرق الاوسط. وحتى تفعل ذلك لم يكن امام السادات الا ان يظل معلقا في الفضاء.

ولعل أهم ما خرج به السادات من قمة واشنطن هو أنها اتاحت له فرصة زيارة صديقة القديم جيمي كارتر في مزرعته بولاية جورجيا. ولم أكن في حاجة لتغطية هذا اللقاء. بقدر ما كنت في حاجة الى تغطية قمة السادات ـ بيجن الحادية عشرة التي تمت في الاسكندرية بعد بضعة ايام.

وفي هذا اللقاء الاخير سأل بيجن مضيفه السادات عما اذا كان مستعدا لاستئناف مفاوضات الحكم الذاتي بعد توقفها منذ خمسة عشر شهرا بسبب ضم اسرائيل للقدس العربية في محاولة لفرض الأمر الواقع.

وكان جواب السادات المعهود «بالتأكيد يا مناحيم... في اية لحظة تشاء يا عزيزي!.. ولماذا لا يكون ذلك في الحال؟». وهكذا اتفق الاثنان على استئناف مفاوضات الحكم الذاتي على مستوى الوزراء في أواخر سبتمبر التالي بمجرد عودة بيجن من لقائه مع الرئيس ريجان في واشنطن.

وكان من الطبيعي ان يتقدم بيجن خطوة اخرى. فشكا الى السادات من تعثر تطبيع العلاقات الذي دعت اليه معاهدة الصلح. فالذين ينتقلون من الجانب المصري الى اسرائيل اقل من القليل، سواء كان هؤلاء سياحا أو رجال أعمال أو على سبيل التبادل الثقافي. والاسرائيليون لا يذكرون الا بالنقد الجارح في الصحافة المصرية.

واجاب السادات على ذلك بأن ذكّر بيجن بأنه لا بد من مراعاة المعارضة ضده في الداخل. وان معارضيه يجدون مادة خصبة لمعارضتهم بسبب عدم تحرك القضية الفلسطينية والتعنت الاسرائيلي بوجه عام. ولكن بيجن لم يبد اي تعاطف مع موقف مضيفه. وانما أوضح بغير خفاء أنه ما لم يتحسن المناخ المتبادل، وما لم يرتب السادات بيته في الداخل فانه ـ أي بيجن ـ قد لا يكون في ابريل المقبل في وضع يمكنه من اعادة الجزء الباقي من سيناء لأن عامة الاسرائيليين سيكونون في شك مقيم حول مدى التزام مصر بالسلام.

ولم يكن الامر مع السادات يحتاج الى سماع ما هو أكثر من ذلك. فقد أكد هذا التهديد المبطن شكوكه في أن الاسرائيليين يتطلعون الى اية حجة حتى لا يعيدون الثلث الباقي - مع أهميته الاستراتيجية - الى مصر. لذلك فقد بادر بالقول ان وزير خارجيته كمال حسن علي سوف يحل بالتأكيد كل مشاكل التطبيع في الحال.

وكان هناك ايضا مسألة الجماعات الاسلامية المتطرفة التي اخذت تنمو بسرعة وتنمو معها معارضتها لسياسات السادات. ولكن موقف الرئيس المصري هنا هو أنه افضل له ان يغضب المصريين الذين يستطيع قمعهم من ان يفعل ذلك مع الاسرائيليين الذين لا يستطيع شيئا معهم. ومن اجل سيناء، وايضا من أجل مستقبله باعتباره الزعيم العربي الوحيد الذي تمكن من استعادة كل ارضه المحتلة من اسرائيل، فانه لا بد وان يحسن تطبيع العلاقات. ولكي يفعل ذلك، قرر ان يشن ضربة وقائية قاضية يسكت بها جميع معارضيه في الداخل، سواء منهم الجماعات الدينية المتطرفة او غيرهم من مختلف الاتجاهات، ان لم يكن الى الابد فعلى الاقل لمدة الشهور السبعة المقبلة، حتى ابريل، موعد الانسحاب الاسرائيلي من بقية سيناء.

* * *

وهكذا، ذات ليلة في اوائل سبتمبر، وفي غضون ساعات قليلة من منتصف الليل حتى السادسة صباحا، قام السادات بأكبر عملية اعتقالات كاسحة في تاريخه منذ تولى الرئاسة، وشملت قادة الجماعات الاسلامية المتطرفة ونحو ١٥٠ من ابرز قادة الكنيسة القبطية. ولكن الاعتقالات لم تقتصر على هؤلاء مع ان الحجة كانت «الفتنة الطائفية» وانما امتدت لتشمل عمليا اية شخصية سياسية بارزة عرفت بعدائها لسياسة السادات او له شخصيا. وكان من هؤلاء نائب رئيس وزراء سابق، و٨ وزراء سابقين، وعشرات من قادة اليسار واليمين، واساتذة جامعات ومحامين وصحافيين. وكان من هؤلاء ايضا الصحافي الكبير محمد حسنين هيكل، وامام المسجد الاعمى الشيخ عبدالحميد كشك، ونائب رئيس حزب المعارضة الرسمية محمد حلمي مراد، ورئيس حزب الوفد الجديد فؤاد سراج الدين، وبطريرك الاقباط ورأس كنيستهم الانبا شنوده الثالث الذي حرم من سلطاته وتحددت اقامته في دير بعيد بقلب الصحراء، ولم ينج من كل «المنشقين» سوى شخص واحد تصادف أن كان بالخارج.

وبنفس الضربة الكاسحة تم اغلاق سبع صحف سياسية ودينية ومن بينها صحيفة الشعب لسان المعارضة الرسمية. واعلن حظر اي نشاط سياسي بالمساجد والكنائس، وضم نحو ٤٠ الف مسجد لوزارة الاوقاف، واستبدل عدد كبير من ائمة هذه المساجد بموظفين حكوميين. كما تقرر حظر النشاط السياسي والديني ومنع ارتداء الجلاليب

وتربية الذقون ولبس الحجاب بالجامعات، وتم حل ١٣ جمعية دينية وصودرت اموالها، كما ابعد ١٢٥ من الصحافيين والمذيعين واساتذة الجامعات عن مناصبهم.

ولكن الدواء فيما يبدو كان أسوأ من الداء الذي وصف رسميا باسم «الفتنة الطائفية». ولم يخف على احد ان السادات انما يعلن الحرب ليس على «الصدام بين المسلمين والاقباط» الذي اندلع منذ ثلاثة اشهر، وانما على حركة الجماعات الاسلامية ومعارضيه السياسيين جميعا من اليمين واليسار ممن كان يخشى ان يثيروا الشعب ضده أو يدبروا انقلابا يطيح به وبنظامه. والحق ان القاسم المشترك بين هؤلاء الذين شملتهم قائمة الاعتقالات كان معارضتهم للصلح مع اسرائيل واحتجاجهم على التضخم والفساد واسلوب السادات في الحكم والحياة، الذي توجه اخيرا باستضافته للشاه.

ولعل هؤلاء كانوا يشكلون خطر محتملا على السادات في المستقبل. ولكن المؤكد ان هذا الخطر كان من الصعب اعتباره خطرا داهما يستحق كل هذه التدابير. وكان اجماع الرأي لدى المراقبين السياسيين، المصريين منهم والاجانب، ان السادات قد بالغ كثيرا في تضخيم ما سماه الفتنة الطائفية لكي يتخلص من كل معارضيه القياديين بضربة واحدة. وكانت نظرة واحدة الى قائمة الاعتقالات كفيلة بكشف النزعة الانتقامية السافرة لدى السادات، الأمر الذي نجمت عنه موجة من النقد والهجوم في الصحف الاميركية والبريطانية والفرنسية، وكذلك في الاذاعة والتليفزيون.

واذا كان السادات قد واجه بعض المظاهرات اليائسة التي خرجت للاحتجاج في الشارع بشرطة الامن المركزي والقنابل المسيلة للدموع، فانه مع الصحافة الاجنبية فضل اللجوء الى اسلوب الاقناع والملاينة. فدعا المراسلين الاجانب الى لقائه باستراحة القناطر لكي يستمعوا الى محاضرة مطولة عن «الحقائق» التي يبدو مرة اخرى ان اصدقاءه المراسلين لم يروها!!

وامام رد الفعل القوي في وسائل الاعلام الغربية ازاء ضربته الوقائية العنيفة، والتشويه الذي لحق صورته «كبطل للسلام والحرية والديمقراطية»، لم يسع السادات سوى الاعتراف بأن ما فعل كان حركة تطهير، ولكن هدفها هو القضاء على مؤامرة سياسية دينية وهي في المهد، مؤامرة جيدة التدبير والتنسيق كانت تشكل تهديدا خطيرا لاستقرار نظامه وبالتالي استقرار المنطقة كلها. ولما اكتشف ان حديثه لم يقنع احدا يذكر، عاد يكرر بالحاح ان نظامه يقوم على اسس ديمقراطية، ولكن على ممثلي الصحافة الغربية ان يذكروا «ان للديمقراطية مخالب قد تكون اكثر ضراوة من مخالب الدكتاتورية»، لأنها «ديمقراطية تدافع عن الاغلبية الساحقة لأهل البلاد».

وهذه الاغلبية الساحقة سوف توافق بالطبع، باغلبية تزيد على ٩٩ بالمائة - بحساب السادات - على الاعتقالات والدعوة الى الوحدة الوطنية في آخر استفتاء

مزيف اجراه نبوي اسماعيل .

وعندما سأل مراسل تلفزيون «ان. بي. سي» بالقاهرة الرئيس عما اذا كان قد استشار الرئيس الاميركي ريجان سلفا قبل ضربته الساحقة انفجر السادات غاضبا لوقاحة السؤال قائلا له بلهجة هي خليط من الجد والهزل انه لو تكرر منه ذلك لاطلق عليه الرصاص «وهو اجراء اقل ديمقراطية». والذي حدث يومها ان السادات اخطأ مراسل «ان. بي. سي» فظنه مراسل «ايه. بي. سي» الذي كان على وشك الطرد لارتكابه خطايا افدح .

ثم جاءت قنبلة المؤتمر الصحافي: الدليل العملي المزعوم على ان بعض المراسلين الاجانب يناصبونه العداء ويشوهون صورة مصر بالخارج، عن طريق مقابلات صحافية «مشحونة بالاكاذيب». وفي حركة مسرحية، وهو ينفخ غيظا ويتصبب عرقا، رفع السادات بيديه شريطي فيديو من اشرطة «ايه. بي. سي» كان رجال الامن قد صادروهما بالمطار. وقد تم الحصول على الشريطين وهما في طريقهما الى لندن وكانا عبارة عن لقاء صحافي اجراه خليفتي مراسل «ايه. بي. سي» بالقاهرة كريس هاربر مع الصحافي البريطاني المعروف ديفيد هيرست مراسل «الجارديان» لمنطقة الشرق الاوسط، وكان قد انتهى لتوه من اعداد كتاب عن السادات لم يراع فيه اصول المجاملة! وقد طرد هيرست من القاهرة عقب احداث ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ عندما تحدث في صحيفته عن الفساد في الجهات العليا وخاصة في اسرة السادات ذاته وتنبأ بقرب سقوطه .

وفي هذين الشريطين وصف هيرست السادات بانه ممثل من النوع الكوميدي وانتهازي ويعاني من عقدة نقص خصوصا في ما يتعلق بعبد الناصر، وهي اتهامات لم تكن في الواقع بغير اساس. كذلك كان رأي هيرست ان نظام السادات لم يعد قابلا للاستمرار تماما مثل نظام الشاه عشية سقوطه. وتساءل عن مدى صواب «استثمار» الولايات المتحدة للسادات، مع ان هذا في رأيه لن يؤدي الا الى كارثة. وكان مما قاله هيرست ايضا ان المعارضة ضد السادات وان كانت قوية الا انها لازالت في دور التكوين .

ولما كان اللقاء قد سجل في بيروت وصودر في القاهرة فان السادات اكتفى بالاشارة الى المتهمين الاساسيين وهما هيرست وهاربر قائلا: «انهم يقولون لا تتعاملوا مع السادات. انه الشاه رقم اثنين» ولم يخطر ببال السادات لحظة واحدة انه بذلك يسيء الى ذكرى صديقه الشاه ويناقض نفسه بنفسه. واذا كان حديثه في ذلك اليوم مثلا صارخا لاسلوبه في المبالغة ورد الفعل الغريزي البعيد عن المنطق، فان السادات الذي يتحدث الان لم يكن الرجل الذي يحس بالخطر، وانما كان حديثه حديث الرجل اليائس الذي يتخبط، وهو يحاول انقاذ سمعته في الخارج. ولكن

الامر كله انقلب عليه، وزاد من قسوة الانقلاب اقدامه على طرد رئيس مكتب تلفزيون «ايه . بي . سي » من القاهرة في غضون ٢٤ ساعة .

وبعد ٢٤ ساعة كنت في القاهرة .قابلني حسن بهجت في المطار.وكان هناك ايضا كالمعتاد ممثل لمصلحة الاستعلامات،الامر الذي طمأنني الى انني لن ارحل في اول طائرة مغادرة .

وعلى مدى الشهر التالي كانت القاهرة وكأنما تعيش في كابوس ثقيل كابوس مفعم بالضفادع والعقارب، ورائحة الخوف والشك والخداع والمكائد واليأس تنذر بأحداث دونها مسلسلات والت ديزني .

* * *

كل ما كنت اعرفه حينذاك ان خطأ فادحا رهيبا قد وقع في القاهرة خلال الفترة من فبراير حتى سبتمبر. وكان علي ان اكتشف هذا الخطأ، وان اقوله لمشاهدي التلفزيون الاميركي حتى ولو كنت على يقين ان ما سأقوله لن يكون مقبولا من السادات بل لعله سيكون اقسى مما فعله هاربر وأدى الى طرده من مصر .

وعندما اقترح عليَّ بعض المسؤولين المصريين ان اعود لرئاسة مكتبنا بالقاهرة قلت لهم بصراحة انه بالرغم من كل الايضاحات التي قدمتها الحكومة لتبرير ابعاد كريس هاربر فان رأيي الثابت انه لا يوجد اي شيء يمكن ان يبرر رد فعل السادات الهستيري الذي شوه صورته اكثر من اية اهانة سببها حديث ديفيد هيرست.ومع ان معظمهم بدا ميالا الى تأييد هذا الرأي الا ان القليلين منهم كانت لديهم الجرأة على الاعتراف علنا بذلك.وكان من هؤلاء القليلين وزير الاعلام والثقافة حينذاك منصور حسن .

كان منصور حسن قد اصبح في فترة وجيزة من اقرب المقربين الى السادات.وقد توثقت العلاقة بينه وبيني حتى قبل ان يبرز نجمه كواحد من الصفوة في قمة السلطة.واذكر اني قلت له قبل اسناد وزارة الاعلام اليه ان صعوده للقمة كان سريعا جدا،ربما اسرع مما يجب، وانه بالنظر الى طبيعته في التعبير عما في ذهنه بصراحة وعدم التواء فان سقوطه من القمة قد يكون بنفس السرعة التي صعد بها، لان السادات لن يكون راضيا عن صراحته.فضحك وقال انه سيقبل المخاطرة.وفعل.ولم تمض شهور حتى ثبت اقدامه في السلطة واصبح مكانه باستمرار المقعد الاول على يمين الرئيس.ولعل لقاءاتنا قلت بعد ذلك لانه كما توقعت كان مشغولا بالحفاظ على توازنه في خضم الصراعات المحيطة بالسادات.وها انا الان ونحن نتحدث عن عملية طرد كريس هاربر اجده متعبا مرهقا غير راض.ولكن لا زال في عينيه قبس من ذلك الضياء الذي عهدته في سالف الايام .

وبعد اسبوع واحد كان قد ذهب بتعديل وزاري لم يفقد فيه احد مقعده سواه. فقد ابعده السادات بعد ان رفض الاستماع الى نصيحته بعدم الاندفاع في تدابيره الاستبدادية. وكان معروفا لدينا ان منصور حسن عارض في انقضاض السادات على المعارضة واعتقال زعمائها واغلاق صحفها. كما عارض في طرد المراسلين الاجانب وكان اخرهم جان بيير بيرونسيل هوجو مراسل صحيفة «لوموند» الفرنسية.

اما عن مكتب «ايه. بي. سي» بالقاهرة فقد استطاع ان يتجاوز الازمة. وبدلا من ان يطير واحد من كبار مسؤوليه الى القاهرة للاعتذار للسادات كما كان مطلوبا اكتفى باجتماع مصالحة بين اشرف غربال، السفير المصري بواشنطن، ونائب رئيس تلفزيون «ايه. بي. سي». ومن اجل تأكيد المصالحة طلب مني ان ارتب لقاء مع مسؤول مصري كي يذاع ضمن برنامج «خط الليل» المسائي الذي يخصص نصف ساعة لالقاء مزيد من الاضواء على احد الاخبار المنتقاة في النشرة المسائية عن طريق اسئلة يختار لتوجيهها بعض المهتمين بالقضية موضوع الخبر.

ووقع الاختيار على مدير مصلحة الاستعلامات الشافعي عبدالحميد الذي وافق مرحبا، حيث كان واضحا ان الحكومة تواقة الى نقل وجهة نظرها الى الاميركيين.

ولكن اللقاء لسوء الحظ أُرجيء الى اليوم التالي لاسباب فنية بحته. وقبل الرجل الامر ببساطة. وفي اليوم التالي رافقته الى ستوديو تلفزيون القاهرة دون ان تكون لدي اية فكرة عن تفاصيل البرنامج او من الذي سيشترك في المناقشة وتوجيه الاسئلة اليه عن طريق القمر الصناعي. وبعد خمس دقائق فقط من بداية التسجيل والبث المباشر على الهواء كان واضحا من تعابير الرجل والعرق المتصبب من وجهه انه يحس بنفسه كساقط من هاوية.

فقد وجد المسكين نفسه لا يجيب على اسئلة مضيفه في واشنطن فقط وانما ايضا على اسئلة اخذت تتدفق كطلقات الرصاص من مكتب لندن الذي ادخل في الخط، ومن من؟ لا احد سوى مراسل «ايه. بي. سي» المطرود من القاهرة وبجواره واحد من ابرز معارضي السادات الا وهو لطفي الخولي الذي نجا من حملة الاعتقالات بسبب وجوده اثناءها في مهمة بالخارج.

وفي نفس المساء طرد الشافعي عبدالحميد من منصبه ليعود الى مكانه الاصلي سفيرا بوزارة الخارجية.

وبعد يومين التقيت مصادفة برئيس تحرير «الاخبار» موسى صبري، الذي قال لي في شبه عتاب اني قتلت الشافعي عبدالحميد، فاجبته ببساطة:

- كلا يا موسى. بل هو الذي انتحر.. بعضهم دفعه الى الانتحار.. غير ان الشافعي عبدالحميد لم يكن الضحية الوحيدة. فقد تعرضت العلاقة الوثيقة التي تجمع بين العاملين في مكتب «ايه. بي. سي» بالقاهرة الى ازمة ثقة حادة. وبينما كان

حسن بهجت في اجازة فهمت من المسؤولين في تلفزيون «ايه . بي . سي» انهم يتهمونه بأنه وراء تسليم شريطي الفيديو اللذين تضمنها حديث ديفيد هيرست الى السلطات المصرية. ودعم هذا الاتهام ان حسن كان هو المسؤول عن شحن الرسائل بالمطار. وقد تمت مصادرة شريطي الفيديو في مطار القاهرة قبل ان يأخذا طريقهما الى لندن كما كان مفترضا.

وكانت نتيجة هذا الاتهام ان ساءت العلاقات بل توترت مع المصريين العاملين بالمكتب. ولم يكن سهلا ان اتصور ان حسن بموقفه الصريح المعادي للسادات يمكن ان يفعل شيئا كهذا، ولذلك فقد رحت احاول ان اجد تفسيرا اخر لمصادرة الشريطين. وبعد تفكير في الظروف والملابسات اهتديت الى تفسير معقول.

ذلك ان هاربر كان في لندن عندما وصل الشريطان المسجلان الى القاهرة. وفي اليوم نفسه شهدت القاهرة مظاهرة لبعض الجماعات الاسلامية، فتوجه حسن بهجت بحسه الصحافي لتصويرها. ولكنه اصطدم مع سلطات الامن، وتدخل مسؤول عسكري لكي يخلي سبيله وسبيل المصورين وكذلك فيلم الفيديو قائلا لمرؤسيه بصوت عال «دعوهم الان».

وبعد عودة حسن بهجت والمصورين للمكتب تحدث هاتفيا مع مكتب لندن قائلا انه سيرسل فيلم المظاهرات الليلة. فطلب منه هاربر ان يوافيه ايضا بشريطي حديث ديفيد هيرست. وعندما ذهب مساعد حسن بهجت للمطار فوجىء بوجود الرقيب الذي صادر كل ما معه من اشرطة وكان واضحا ان المسؤول العسكري وراء هذا حيث كان المقصود مصادرة شريط المظاهرات. ولكن حديث ديفيد هيرست وقع في ايدي السلطات بمحض الصدفة. غير ان كل هذا التحليل لم يجد نفعا. فالثقة قد اهتزت ولم يعد شيء يستطيع اعادتها.

* * *

ومثلما يفعل الملاكم حينما يفقد توازنه على الحلقة، راح السادات يطوح بقبضتيه في كل اتجاه، ليتلقى ردود فعل اكثر سوءا من الصحافة الاجنبية. وفي محاولة اخيرة لاسترداد دور الاعلام الغربي اخرج من جعبته الكارت السوفياتي، زاعما ان السوفيات يتآمرون لاسقاطه، وانهم المدبر الحقيقي وراء الفتنة الطائفية. ولكي يثبت ذلك ذهب الى التليفزيون مسلحا بخطاب مطول آخر، استمر ثلاث ساعات، مصحوبا بلقطات مصورة تبين «اللقاءات السرية» بين الاشباح السوفيات واصدقائهم المصريين. ولكي يعاقب الاتحاد السوفياتي اعلن طرد السفير، وستة دبلوماسيين آخرين، ومراسل وكالة «تاس»، ومراسل سوفياتي آخر، فضلا عن الف من الخبراء الروس وعائلاتهم.

ثم بدأ جولة في ارجاء القطر، لينعم بالاستقبال الحافل من جماهير اعد ترتيبها وحشدها بمعرفة الحكومة. وكان الهدف أن يؤكد للغير الشيء الذي لا يثق فيه هو نفسه، ألا وهو أنه آمن، مطمئن الى التفاف الشعب حوله، وان الأمن مستتب تماما في مصر، ولا يوجد خطر حقيقي يهدده.

وفي محاولة اخرى لتبرير ضربته ضد خصومه اعلن في خطاب له بمؤتمر الحزب الديمقراطي الوطني الحاكم - اذيع على الهواء بالتلفزيون - انه انما فعل ذلك لكي يجنب مصر حمام الدم الذي اصيبت به ايران ولبنان. واضاف ان لديه قائمة بأسماء ٧ آلاف عضو بالجماعات الاسلامية المتطرفة وسوف ينكل بهم جميعا اذا تجددت الاضطرابات.

ولفت النظر في هذا الخطاب انه خص واحدا بالذات - لم يذكر اسمه ولكنه اشار اليه - قائلا انه افلت من الاعتقال في الجولة الاولى و«لكنني اعرفك جيدا. وسأظل اطاردك حتى اصطادك».

غير ان ذلك لم يمنعه من التأكيد في الجملة التالية مباشرة ان مصر بخير، وانه ليس مهددا بخطر الاطاحة. الا انه لا بد من سحق المتطرفين من اجل حماية الاجيال القادمة. وهؤلاء الذين أسكتهم ليسوا خصومه وانما هم اعداء لمصر، ومجرد مجموعة من الحاقدين الذين استغلوا نافذة الحريات الديمقراطية.

غير ان هذا الحديث فيما يبدو فجر من التساؤلات اكثر مما ادى الى الاقناع. وكان من الطبيعي ان يسأل المصريون الاذكياء انفسهم: اذا كان النظام لا يشكو من خطر يتهدده، فلماذا اذن كل هذه الحملة التطهيرية الضارية؟ الجواب، هو أن ما يحدث انما هو من أجل ارضاء الاسرائيليين الذين لم يخفوا قلقهم تجاه نمو التيارات المعادية للسادات وتطبيع العلاقات.

اما نحن، الذين كنا نستمع الى خطاب السادات في مؤتمر حزبه - وكان في الواقع آخر خطاب عام القاه في حياته - فلم نكن نملك سوى الشعور بالصدمة، ونحن نرى امامنا زعيما استبد به اليأس والفزع حتى فقد سيطرته تماما على نفسه، وعلى ما يقول..

* * *

وهكذا تسربت كانسان بردية مفضلا ولا يعلم الا الله

وذات يوم، بدأت احرر رسالة جديدة لتليفزيون «ايه. بي. سي» بهذه العبارة:

«ثمة صمت ثقيل يخيم على انفاس القاهرة.. صمت شديد الوحشة والعمق ولكنه يكاد يصم الآذان...»

كان ذلك يوم ٦ اكتوبر ١٩٨١..

ولم أكمل الرسالة كما بدأتها.. فقد شاءت الأقدار أن اكتب رسالة اخرى بمقدمة جديدة.

* * *

توقفنا ـ طاقم التصوير وأنا ـ عند نقطة التفتيش على بعد نمو ربع ميل من مكان الاستعراض العسكري بمدينة نصر شمال شرقي القاهرة. وبعد ١٥ دقيقة من الاخذ والرد المعتادين مع الشرطة العسكرية سمح لسياراتنا بالمرور. وكان أهم ما لفت نظري أن التفتيش هذه المرة كان دقيقا، ومتعنتا للغاية. ولكني كنت مصممة على الاستمتاع بالاستعراض فلم اسمح لذلك بأن يعكر مزاجي، خصوصا وقد مضت سنة كاملة منذ التقيت بهذا الحشد من الزملاء والمعارف الأجانب والمصريين.

كنت ارتدي بلوزة سوداء على بنطلون اسود. ولعل هذا ما جعل واحدا من الوجوه المألوفة لي ضمن حرس السادات يسألني: لماذا كل هذا السواد؟

فأجبته مازحة «انا في حالة حداد»!

ـ اذن لماذا ترتدين حزاما أحمر.. وكذلك حذاء أحمر؟

قلت، مواصلة مزاحي

ـ حتى لا يلحظ أحد ذلك!!

أنا الآن بمكاني بجوار المنصة. الى الخلف، في الموقع المخصص للصحافيين والمصورين. وعلى المقاعد المصفوفة الى جوارنا بضع مئات من المسؤولين المصريين المدنيين والعسكريين والدبلوماسيين الأجانب والملحقين العسكريين وبعض كبار الضيوف، وايضا عشرات من افراد الاسرة الحاكمة ومن بينهم عدد من الأطفال.

قبل الحادية عشرة بقليل اقبل موكب السادات، بسيارته المكشوفة التي يطل منها والى جانبه نائبه حسني مبارك، يحف بها من الجانبين ثمانية من الحراس الاشداء، ومثلهم من الأمام ومن الخلف بنفس الأبهة والطراز المألوف في موكب الرئيس الأميركي.

وعندما خطا السادات بعد نزوله من السيارة الليموزين، وأخذ يحيى ضباطه ومستقبليه، بدا لي في حالة ذهول تام وهو يتحرك كانسان آلي، ببزته الرمادية المزرقة المزينة بعشرات الأوسمة والنياشين، والتي اعدت له بمعرفة افخم بيوت الأزياء الفرنسية. والى جانبه نائبه حسني مبارك ووزير الدفاع عبدالحليم ابو غزالة بنفس الزي.

وفيما كانت الموسيقى تعزف النشيد الوطني والسادات يضع اكليلا من الزهور على ضريح الجندي المجهول، عاد المصورون وأطقم كاميرات التليفزيون الى مواقعهم لتغطية الاستعراض.

وبدأ العرض كالعادة بالقرآن الكريم. ثم القى ابو غزالة خطابا قصيرا حيا فيه

ذكرى ذلك اليوم العظيم في تاريخ مصر، يوم عبر جنودها قناة السويس وحطموا خط بارليف وكادوا يجبرون الاسرائيليين على الركوع والاستسلام.

كان هذا اليوم ايضا امجد ايام السادات.. فهو اليوم الذي خلع عليه لقب «بطل العبور»، والذي أهله بعد ذلك لاتخاذ صورة البطل العالمي.

ولكن ها أنذا أراه أمامي الآن من على بعد ٥٠ مترا، وسط كل هذا الحشد من أعوانه ومؤيديه، رجلا معزولا محاصرا بالأزمات، يغالب اليأس والقهر بالمبالغة في التظاهر بالكبرياء..

ولكن محاولة قراءة وجه السادات وهو في غير حالة من الثورة والانفعال كانت لا تقل صعوبة عن محاولة قراءة بردية كتبت باللغة الهيروغليفية. فأدرت عيني لأتأمل الحشد على المنصة. أول ما لا حظت انه لا توجد شبكة على مقدمة المنصة لحماية الرئيس من «أولاده» كما اعتاد ان يخاطب جنوده. والحرس الخاص الأميركي المكون من ١٢ خبيرا بالملابس المدنية او نحو ذلك قد تراجع كل افراده الى الخلف ليخلوا المقاعد الأمامية بناء على رغبة السادات للحراس العسكريين، الذين تناثروا في ارجاء المنصة وعلى الأرض، ومن بينهم سكرتير الرئيس الخاص فوزي عبدالحافظ الذي لزم مكانه المعهود خلف السادات مباشرة.

وفي مقصورة زجاجية خاصة أعلا المنصة جلست جيهان السادات وبرفقتها بعض الضيفات وأحفاد الرئيس. بينما جلس تحت السفير الاميركي الفريد آثرتون، والسفير الاسرائيلي موشى ساسون (الذي خلف الياهو بن اليسار) والسفير البريطاني سير مايكل وير وغيرهم من السفراء والدبلوماسيين الجالسين على مقاعد خشبية رتبت فيما يبدو وفقا لترتيب الحروف الأبجدية للدول التي يمثلونها.

ولفت نظري بنوع خاص وجود اسامة الباز الذي لم يكن من عادته حضور امثال هذه المناسبات، مفضلا باستمرار برجه العاجي بوزارة الخارجية. والتقت عيناي بعينيه. ولكنه تجاهلني فاحترمت تجاهله.

وكان الجميع ـ باختصار ـ في حالة استرخاء، مشغولين بمراقبة الحركات البهلوانية المزودة بالألوان لأسراب طائرات الميراج التي استمرت على مدى اكثر من ساعة، بينما كانت طوابير العرض تمر على الأرض أمام المنصة. وعشرات من جنود المظلات يهبطون كل في الدائرة المخصصة له من ارتفاع آلاف الاقدام في دقة مثيرة للاعجاب. وكتيبة سلاح الحدود تجذب الانظار بجمالها وثياب جنودها الزاهية. ورجال الصاعقة يدقون الأرض بأقدامهم وهم يحيون الرئيس اثناء مرورهم السريع.

ثم بدأ دور الدبابات والمدرعات، ومعظمها سوفياتية الصنع، توالى مرورها بهدوء كأنما لا تريد أن تلفت نظر أحد، وكان هذا ايذانا بقرب انتهاء العرض.

ومالت عليّ جارتي، فرانسواز ديمولدر، وهي مصورة مركزها في بيروت لتقول

لي شيئا. ولكن هدير الطائرات بخيوط دخانها الملونة صم اذني عن سماعها.. كما جذب عيني الى السماء مثلما جذب عيون مئات الحاضرين.

* * *

وفجأة...

اصوات طلقات نارية. من أين؟ آه.. من تلك الشاحنة المفتوحة الواقفة هناك على بعد أمتار قليلة. أمامنا مباشرة. عدد من الجنود يقفزون منها. كم؟ اثنان؟ ثلاثة؟ ثمانية؟ اكثر؟ كلهم يعدون. كلهم يحملون مدافع رشاشة! انهم يطلقون النار. رباه! انها ذخيرة حية. انهم يتجهون نحونا.. نحو منصة العرض. ولكن لماذا يطلقون النار؟ انهم يهتفون.. ماذا يقولون؟.. اسمع صفير الرصاصات وهي تمرق بجوار اذني..

كلا.. لا يمكن ان يكون هذا حقيقة. مستحيل. انه جزء من العرض العسكري ولا شك.. اجل.. اجل. هذا هو التفسير.. كلا.. نعم.. كلا.. كلا..

بل هي الحقيقة..

يجب ان ارى ما يجري. يجب أن أسجل كل شيء.. تحركت في اتجاه السادات. ولكن أين هو السادات؟ انه غير موجود.. الصف الأمامي.. بل الصفوف الأمامية كلها غير موجودة.. لا يوجد سوى مقاعد مقلوبة، وصراخ هستيري وفزع وناس يهرولون في رعب قاتل في كل اتجاه.. وطلقات رصاص.

«دورين .. هل جننت؟ تعالي هنا»

- من؟ من الذي يناديني؟ لا.. يجب أن أرى السادات.. أرى كل شيء.. ثمة جندي بالرشاش يقف فوق حافة المنصة ويفرغ طلقاته في الداخل. في نفس المكان الذي كان فيه السادات. هل اصيب؟ هل هرب؟ أين مصورنا؟ هل يسجل ما يجري؟

مرة اخرى الصوت يناديني.. مصحوبا هذه المرة بيد قوية تشدني لأبتعد كان المنادي هو حسام، سائق سيارة التصوير، وهو يدفعني دفعا لنتخذ لنفسينا ساترا خلف عربة مسلحة على يمين المنصة مباشرة.

ثم لحظة سكون رهيب..

كم استغرقت؟ ٤٥ ثانية؟ ستين؟ تسعين؟ ثلاث دقائق؟ دهرا بأكمله؟

لا .. لا استطيع أن أبقى هكذا. يجب أن اتحرك يجب أن أرى السادات..

الصراخ والصياح والأنين والدماء والاشلاء تغطي جو ومقاعد الصفوف الامامية. واشباح مذهولة لمسؤولين كبار عسكريين ومدنيين يهرولون في ذهول كأنما يفرون من الجحيم.. ولا أحد يبالي بي أو يسألني وأنا اتحرك بين المقاعد المقلوبة وجثث الجرحى والقتلى..

ولكن السادات لم يكن موجودا. لا هو ولا حسني مبارك ولا ابو غزالة. كلهم ذهبوا.. ليس منهم أحد هنا.. نقلوا جميعا.. ولا يعلم الا الله من منهم نقل ميتا، ومن منهم لايزال على قيد الحياة.

غير أن الذي يعنيني حقا.. هو السادات.. وماذا جرى له؟

اهم شيء الآن هو ان أعود الى المكتب بأسرع ما يمكن، ومعي الاشرطة المصورة وروايتي كشاهد عيان. وكل ما أعرفه أن المصور قد تمكن من التقاط جانب من المشهد المثير. وبينما أنا أشق طريقي وسط الاضطراب مررت برئيس وزراء سابق في حالة ذهول تام لا يدري الى اين يتجه. فكرت في أن اسأله «ماذا حدث؟» ولكن لم يكن لدي وقت. وأسرعت أطوي مسافة النصف ميل الى حيث كنت أرجو أن أجد السيارة ودسوقي في انتظاري، ومعي حسام وفرانسواز. وبعد ٤٠ دقيقة في خضم شوارع القاهرة المزدحمة كنا في المكتب. كانت الساعة حينذاك ٤٥ر١ بعد الظهر. و٤٥ر٧ بتوقيت نيويورك. وقال لنا زملاؤنا الذين كانوا يشاهدون العرض العسكري على شاشة التليفزيون انهم فوجئوا بالشاشة تظلم، واستنتجوا ان شيئا ما قد حدث بالرغم من قول المذيع الذي ظهر بعد لحظات أن العرض قد انتهى وان السادات قد غادر الساحة عند نهايته.

وفي غضون بضع ثوان كنت اذيع على ملايين الاميركيين والكنديين بالهاتف من القاهرة على الهواء نبأ محاولة الاغتيال.. التي اجمع مراسلوا الشبكات الثلاث على انها «محاولة» قد تكون نجحت وقد لا تكون. فمع أني كنت على بعد اقل من ٥٠ مترا من مكان السادات الا أني مثل مئات الآخرين لم أكن أعلم حتى ذلك الحين ما اذا كان حيا أو ميتا.

ولم يكن يعرف الحقيقة سوى حفنة قليلة من كبار المسؤولين. ولكنهم لا يريدون أن يقولوا شيئا. ولأن ما حدث يمكن أن يكون جزءا من انقلاب كامل، فان المنشئات الحيوية وخاصة الاذاعة والتليفزيون والهاتف وضعت تحت حراسة مشددة، وكذلك مطار القاهرة. وفرضت رقابة صارمة على التسجيلات الصوتية والمرئية المرسلة الى أقرب محطات الاقمار الصناعية في اثينا وعمان. وبمجرد استئناف الحركة في مطار القاهرة تم ترتيب اللازم لنقل الاشرطة خارج مصر، ليجرى بثها في الولايات المتحدة..

ومضى نحو ساعة ونحن لا نعرف بعد ما جرى للسادات. كل ما علمناه ـ وارسلناه مباشرة بالهاتف لنيويورك ـ ان السادات قد نقل الى مستشفى المعادي. وكنا على اتصال مستمر بمسؤولي المستشفى من ناحية ـ وواشنطن من ناحية اخرى.

وفي الساعة ٥٠ر٢ بالدقة دخل علينا زميلنا المصري «جامبو» ليقول لي بأسلوبه الهادىء المعتاد كأنما يقول خبرا عن اسعار البصل

ـ مات !

ـ من الذي مات يا جامبو ؟

ـ السادات .. مات .

هتفت بانفعال .

ـ من الذي يقول ذلك ؟

ـ المسؤولون بالرئاسة ، ليس بشكل رسمي بالطبع ، فهم لا يريدون اعلان شيء الآن ، لأسباب واضحة .

بعد تسعين ثانية بالضبط ، كان حسن بهجت قد تأكد من مصادره الخاصة أن الخبر صحيح ، ولا ريب فيه .

* * *

ومع ذلك فقد ظل المسؤولون يصرحون رسميا أن السادات «اصيب بجرح طفيف في ذراعه ، وفي ما عدا ذلك لم يصب بسوء وكانوا في واشنطن يرددون نفس الشيء .

وعلى مدى ربع ساعة ، ١٥ دقيقة كاملة كل ثانية فيها تساوي عمرا ، دار جدل عنيف بيني وبين المسؤولين في المقر الرئيسي بنيويورك . فأنا واثقة من صحة الخبر . ولكنهم رغم كل تاريخنا معهم مترددون ، خشية أن يقعوا في نفس الخطأ المعيب الذي وقعت فيه شبكات التليفزيون الثلاث قبل ذلك في نفس العام ، عندما اجمعت على ان جيم برادي ، السكرتير الصحافي للرئيس ريجان قد لقى حتفه اثناء محاولة اغتيال الرئيس ، ثم تبين بعد ذلك أن السباق على الخبر افقد الشبكات الثلاث ضرورة الحذر .

وكان من حقي أن أغضب . بل أجن . فنحن أول من علم بموت السادات ، ولا ينبغي لأي سبب أن يعوق سبقنا باذاعة النبأ ، خصوصا وأنا واثقة تماما من صحته .. وكان ما يريدونه هو «شيء رسمي يؤيد معلوماتنا . واخيرا استطعت أن اذيع النبأ على الهواء مباشرة بالهاتف ناسبة المصدر الى شريف عطية ، المتحدث الصحافي لرئاسة الجمهورية .

وكانت اذاعة «ايه . بي . سي » اول من اذاع في أميركا خبر مصرع السادات . بينما كانت المعلومات الرسمية لدى الادارة الاميركية ما زالت تؤكد ان الاصابة خفيفة ، وأنه لن يلبث أن يغادر المستشفى بعد العلاج البسيط .

وبعد ساعة كاملة توقف البث المعتاد في تليفزيون القاهرة ، لتحل محله تلاوة متصلة للقرآن الكريم . وكان هذا دليلا كافيا على أن السادات بالفعل قد مات .

* * *

اذا كان اغتيال السادات امرا متوقعا ، ومحتوما ، منذ امد طويل ، فان احد لم يتصور أبدا أن يتم بهذه الطريقة أو على هذا النحو ، وأن يلقى سبعة اشخاص

آخرون حتفهم معه، ويصاب الى جوارهم عشرات. فقبل حادث المنصة بثلاثة اسابيع تمكنت المخابرات المصرية بمساعدة من السي. اي. ايه. من احباط محاولة لاغتيال السادات. وكان هناك ضابط كبير من المخابرات هارب، ولديه خطة العرض العسكري بالكامل. وهو نفس الشخص الذي اشار اليه السادات في آخر خطاب له محذرا من أنه لن يفلت من يده، واسمه عبود الزمر. وبعد أيام قليلة احبطت محاولة أخرى لاغتياله في المنصورة. وطرحت فكرة الغاء احتفال ٦ اكتوبر ولكنه رفض الفكرة. وفي صباح يوم العرض العسكري نصحه الناصحون بألا يحضر العرض لأسباب أمنية. ولكنه لم يقبل النصيحة. وتقول جيهان أنها تعجبت في ذلك الصباح عندما امتنع عن ارتداء القميص الواقي من الرصاص فأجابها «لماذا؟ أنا ذاهب لرؤية أولادي».. ومن فرط رغبته في اظهار مدى احساسه بالأمان رفض تخصيص مكان في برج المراقبة لكي يرابط فيه قناص اميركي، كما رفض السماح بوجود الحراس العسكريين في المدرجات، مكتفيا بالحرس الخاص من حاملي المسدسات. كما رفض وجود رجال الأمن مباشرة تحت جدار المنصة المبني بالاسمنت المسلح..

لم يكن هناك شيء يستطيع أن يزعزع احساسه بالأمن التام وهو وسط جنوده.. ولذلك كانت آخر كلماته وهو يواجه فوهة المدفع الرشاش ناهضا في مقعده: مش معقول!!

ولقد كان السادات يعيش في ظل تهديد مستمر بالقتل يتجدد مع مشرق الشمس كل يوم. وفي الفترة من خريف ١٩٧٧ حتى خريف ١٩٨١ احبطت اكثر من ١٢ محاولة لاغتياله، ومعظم هذه المحاولات لم يعلن عنها ابدا، ولكن السادات كان يعلم كل تفاصيلها أولا بأول.. وقد تعرض حراسه الشخصيون - بما فيهم الاميركيون - الى نقد عنيف من صحافة الغرب لفشلهم في حمايته. ولكن سواء انهم اخذوا بالمفاجأة، أو شلت انفجارات القنابل اليدوية قدرتهم على التصرف بسرعة، أو أنهم غلبوا على أمرهم أمام المدافع الرشاشة أو أنهم ببساطة كانوا مهملين أو عاجزين، فان الذي لا شك فيه أن السبب الأساسي كان عدم اكتراث السادات نفسه، بل يكاد المرء يوقن أنه كان قد وصل الى مرحلة من اليأس والثقة في أن خصومه سوف ينالونه أن لم يكن اليوم فغدا الى درجة لم يعد معها يرغب في مواصلة القتال لانقاذ مصيره.

والذي حدث بالفعل أن حادث المنصة كان هو الثالث في سلسلة من خمسة محاولات مرتبة لاغتياله. وكان البديل الرابع مدبرا بحيث يتم قتله اثناء توجهه الى قرية ميت ابو الكوم كعادته كل عام بمناسبة ذكرى وفاة اخيه من ابيه الذي لقى حتفه اثناء حرب اكتوبر. ولو فشلت هذه المحاولة فان المحاولة الخامسة كان مخططا لها أن تتم اثناء ظهوره في أول مناسبة عامة تالية..

على اية حال، كل هذا لم يعد يهم الآن.. المهم أن السادات قد مات، وينبغي تشييع جنازته وموارته التراب.

* * *

السبت ، ١٠ اكتوبر ١٩٨١ . القاهرة، مدينة العشرة ملايين نسمة هادئة تماما، والحياة تنساب كالمعتاد مثلما تنساب مياه النيل منذ آلاف السنين. لا اثر بالمرة هنا، ولا في أي مكان آخر لتلك الموجة العارمة من الحزن الرهيب الذي شهدته مصر وهي تودع جمال عبدالناصر قبل ذلك باحدى عشر سنة. نعم ان هناك حالة طوارىء معلنة منذ حادث المنصة، والاضطرابات التي وقعت في اعقابه في اسيوط بنوع خاص ونجم عنها اعتقال بضع مئات، ولكن هذا لا يمكن ان يفسر ابدا انصراف الناس الى الاحتفال بعيد الأضحى وتجاهلهم تماما لجنازة الرجل الذي كان يعتبر نفسه «كبير العائلة» المصرية..

أما العالم الغربي فقد هرع ممثلوه ليشيعوا السادات الى مقره الأخير. لقد جاء اصدقاؤه لمواراته التراب.. ولسوف يعطونه حقه كبطل لهم، حتى ولو أنكره مواطنوه.

والآن، ها هي الجنازة تتحرك متثاقلة على نفس الطريق الذي طالما طرقه السادات، وطرقه ايضا خالد الاسلامبولي وزملاؤه الذين اغتالوا السادات. وكل ما يستطيع المرء أن يراه صفوف من الرجال المتلاصقين بثياب قاتمة داكنة، ومعظمهم أجانب، ومن الغرب على وجه الخصوص. كان هناك الرؤساء الاميركيون السابقون جيمي كارتر وجيرالد فورد وريتشارد نيكسون والمستشار الالماني هيلموت شميت، والرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان، والعديد من رؤساء الدول والشخصيات السياسية من ٧٥ بلدا. وبين هؤلاء بالذات رئيس الوزراء الاسرائيلي مناحيم بيجن الذي حضر ليشارك في وداع ودفن «صديقه العزيز انور».. الزعيم العربي الوحيد الذي جرؤ على اقامة «السلام» معه. وبالطبع، ولنفس السبب، لم يكن هناك وجود للعرب في الجنازة، فلم يشارك منهم فيها سوى السودان وعمان والصومال، كما لم يشارك من جانب مصر سوى حسني مبارك نائب السادات وخليفته، والوزراء، وكبار الرسميين..

وتوقفت كاميرات التليفزيون في لقطات طويلة على بعض الوجوه الحزينة، ومنها وجه ابنه جمال، ونجل الشاه الراحل الامير رضا، وجيهان السادات، وبناته الثلاث، وارملة الشاه فرح ديبا، وحرم الرئيس السوداني جعفر نميري، حيث كن جالسات في مدرج قرب نفس المكان الذي شهد مصرع السادات.

وفيما كانت عربة النعش التي تجرها الخيول تتحرك ببطء في اتجاه ضريح الجندي المجهول وفي ذيلها عدد من الجنود يحملون أوسمة السادات ونياشينه التي

طالما زين صدره بها، ومنها نجمة سيناء الذهبية المرصعة التي كان يحملها حين مصرعه على بعد امتار قليلة، تجلت المأساة بكل ابعادها التي لم تفلح كل محاولات تليفزيون القاهرة في تجاهلها أو اخفائها عن المشاهدين، ألا وهي أن ما يراه الآن المصريون على شاشته انما هو جنازة غربية، لبطل من أبطال الغرب..

ولقد حاولت الكاميرات قدر الطاقة عدم التركيز على وجوه المعزين الاجانب، ولكننا معشر الجالسين أمام شاشات الرصد التليفزيوني في مكتب القاهرة كنا نذيع لآخر مرة لملايين المشاهدين في اميركا حدثا على الهواء مباشرة من القاهرة، ولأول مرة من أربع سنوات كنا نحاول ان ننقل لهم الحقيقة كما هي، وكما هي في الواقع وليس كما تريد دبلوماسية التليفزيون ان تكون.. وهكذا اخيرا كانت وفاة السادات هي التي اوقفت التليفزيون الاميركي على حقيقة حياة السادات.

والآن، والوقت ظهرا بتوقيت القاهرة. والفجر بتوقيت نيويورك ها أنذا اجلس الى الميكروفون، وعلى الطرف الآخر بربارا والترز وبيتر جيننجز اللذان تابعا قصة حياة انور السادات، ولعبا دورا كبيرا مثلما لعبت في صنع هذا البطل وتقديمه في اروع صورة للعالم كله.

وتسألني بربارا متعجبة، بصوت عال على شاشة التليفزيون وبنبرة فيها من الحيرة بقدر ما فيها من الأسى.

- ولكن.. اين المصريون يا دورين؟ أين اللقطات التي تصور الحزن والأسى، أو مشاركة الناس في وداع الرئيس؟ لا بد أن تدابير الأمن وحالة الطوارىء هي التي منعت الناس من المشاركة في تشييع الجنازة؟.

حاولت أن أفسر لها الأمر باختصار، فقلت

- جزئيا يا بربارا!..

- من المؤكد أن كثيرين احزنهم ما جرى.، ولكن تدابير الأمن تمنعهم من اظهار مشاعرهم..

- اكثر منهم الذين لم يعيروا الأمر التفاتا بالمرة!

- ماذا تعنين؟ هل تقصدين أنهم يحسون بالخلاص؟

- المسألة باختصار أن الحب الذي أحاط بالسادات في الغرب لم يكن له وجود في مصر..

* * *

واذا كان تجاهل الشعب المصري لجنازة السادات قد صدم بربارا والترز، فانه قد صدم ايضا الملايين في اوروبا واميركا الذين كانوا يعتبرون السادات بطلا لا مثيل له، ورمزا للشجاعة والسلام.. و«واحدا من أبرز زعماء هذا العصر».

فالرجل الذي مات، ويدفن الآن بطل اجنبي.. بطل فقط بالنسبة للغرب.

ومن المؤكد أن السادات كان سيسر كثيرا بالكلمة التي نقشت على شاهد قبره، والتي تتحدث عنه كبطل وشهيد. فهي نهاية هوليودية رائعة صالحة جدا للاستهلاك الغربي. ولكن «بطلنا» لسوء الحظ لم يلق حتفه شهيدا من أجل مبادئه. فالسلام لم يكن هو الذي قتل أنور السادات، وانما أنور السادات هو الذي قتل نفسه. ولم تكن مشاهدة المرء له وهو يموت ببطء من اثر الجراح التي أصاب نفسه بها تختلف في شيء عن مشاهدة اغتيال جثة هامدة. ولعل هذا ما جعلني لا اشعر بشيء في ذلك اليوم اللهم الا الاحساس بالخلاص كأنما انقذ الموت السادات من نفسه، مثلما انقذني انا من السادات.

ففي خلال الثلاثين شهرا الاخيرة من حكم السادات تحول الرئيس المصري الى دكتاتور مستبد وطاغية متطرف، وذلك في معظمه بفضل رعاية الغرب، واميركا بنوع خاص له، ولمبادرته ، وتلهف الاعلام الغربي على التعبد في محرابه. ويبدو أنه تصور ذلك بمثابة جواز سفر الى الخلود، والى الانطلاق كعلامة بارزة في رحاب التاريخ. وهنا تكمن مأساة السادات الحقيقية، كرجل حملته اوهام البطولة الى خارج حدود بلده، فكانت النتيجة أن كسب الغرب، ولكنه خسر وطنه.

لم يكن السلام هو الذي قصم ظهر السادات. بالعكس. لقد اطالت مبادرة القدس في عمر نظامه بعد أن كان يترنح على حافة الهاوية ايام احداث يناير ١٩٧٧. فلقد اعطته المبادرة وما صاحبها من حملة دعاية ناجحة فرصة اطول. ولكن هذا كان لا يمكن أن يستمر. فقد كان الفارق بين التماسه رضا اميركا واسرائيل، وجبروت طغيانه المستبد بأبناء وطنه من الاتساع بحيث لم يعد احد يتحمله.

ولعل البداية كانت الاضطرابات التي اكتسحت مصر في يناير ١٩٧٧ اي قبل المبادرة بعشرة اشهر. ويخطىء من يعتقد ان هذه الاضطرابات كانت فقط بسبب الاعلان عن رفع اسعار بعض المواد الغذائية. واكثر خطأ من يتصور أنها كانت ـ كما زعم السادات وكتّابه-مدبرة من جانب الشيوعيين ـ وانما الواقع أنها كانت انتفاضة شعبية وتحذيراً عالي الصوت من الذين لا يملكون ازاء شراهة الذين يملكون، حيث كانت الاغلبية الساحقة للشعب المصري تحس بأنها غريبة في وطنها في عصر الانفتاح، محرومة من أبسط مقومات الحياة،بينما اقلية من المحظوظين والاقارب والمحاسيب تنعم بكل شيء، ابتداء من كاميرا التليفزيون الى السيارات الفارهة والمساكن المترفة وسهرات النعيم في ملاهي الهرم.

ولقد هزت هذه الانتفاضة السادات كالزلزال، وكانت مبادرة القدس هي المخرج العبقري الذي صرف اذهان الناس بلعبة جديدة تماما، ووعود مسرفة في الاغراء حتى ليصعب على المرء ألا يصدقها !!

وكان الوجه الآخر للمبادرة التي القت السادات في احضان الغرب واسلمته الى

«رحمة» اسرائيل هو الابتعاد عن العرب الذي لم يقتصر على «البعد» بل تجاوزه الى التحقير والاهانة.

وفي غمرة عملية الرقص على حبال السيرك الاسرائيلي الاميركي اخطأ السادات الحساب عدة مرات..

كانت المرة الاولى عندما عمد الى تقوية الجماعات الدينية المتطرفة ليستخدمها كاداة في حربه ضد معارضيه اليساريين والناصريين، دون أن ينتبه الى خطورة الثعبان السام الذي يربيه في حضنه.

وكان الخطأ الثاني أنه تصور امكانية الهاء عامة الناس عن التدهور ـ بل الفساد الاقتصادي ـ بلعبة الارقام على الورق بينما الناس يلمسون اثر هذا الفساد في حياتهم اليومية وواقعهم العملي.

ولم ينتبه السادات الى الانطباع السيء الذي تتركه تصرفات السيدة جيهان زوجته لدى عامة المصريين. واذا كان الغرب قد اعجب بميلها الواضح للنمط الغربي في الحياة، ودفاعها الحار عن حقوق المرأة وتنظيم النسل وسعيها الحثيث للحصول على شهادات دراسية ارقى، فان الشعب المصري كان يزداد سخطا على تدخلات هذه السيدة في سياسته واقتصاده وحياته. وكان يضيق بتشبهها باميلدا ماركوس، قرينة الرئيس الفلبيني، ومحاولتها تأكيد انها القوة المسيطرة وراء رأس السلطة، وبروزها كسيدة أعمال وصاحبة ثروة تتضاعف بسرعة بلا مسوغ مشروع.. هذا فضلا عن العديد من الاشاعات التي تتناول حياتها الخاصة والعامة والتي كان لا بد أن ينعكس اثرها على صورة الرئيس.

ثم جاء المسمار الأخير على شكل اجراءات سبتمبر ١٩٨١، عندما اعتقل كافة رموز المعارضة وقياداتها من اليمين واليسار والوسط ومن كل اتجاه، بما في ذلك عدد من خصومه الشخصيين. فقد كانت هذه هي القشة التي قصمت الظهر، وصدقت على قرار اغتياله. ولعله لم يدرك ذلك الا بعد فوات الأوان.

ولكن اذا كان السادات قد اسهم بقدر كبير في قتل نفسه، فان هذا لا يعفي من المسؤولية كل الذين شاركوه في عملية «السلام» وبالذات الولايات المتحدة واسرائيل ومناحيم بيجن، واخيرا التليفزيون الاميركي الذي ظل ينفخ في البالونة حتى انفجرت..

فكل هؤلاء، كلنا، شاركنا في قتل انور السادات، وان كان على رأسنا أنور السادات نفقسه.

فلقد كان هو العقرب، وكان هو الضفدعة.

المحتـــويات

صفحة

مقدمة المترجم ١

مقدمة الكتاب ٣

الفصل الأول :

إلى آخر مكان على الأرض ٨

الفصل الثاني :

عيد الأضحى في القدس ١٩

الفصل الثالث :

العرض مستمر على الطريق ٣٣

الفصل الرابع :

عيد الميلاد في الإسماعيلية ٤٨

الفصل الخامس :

عندما تتهاوى بيوت الورق ٥٩

الفصل السادس :

في طريق مسدود ٧٤

الفصل السابع :

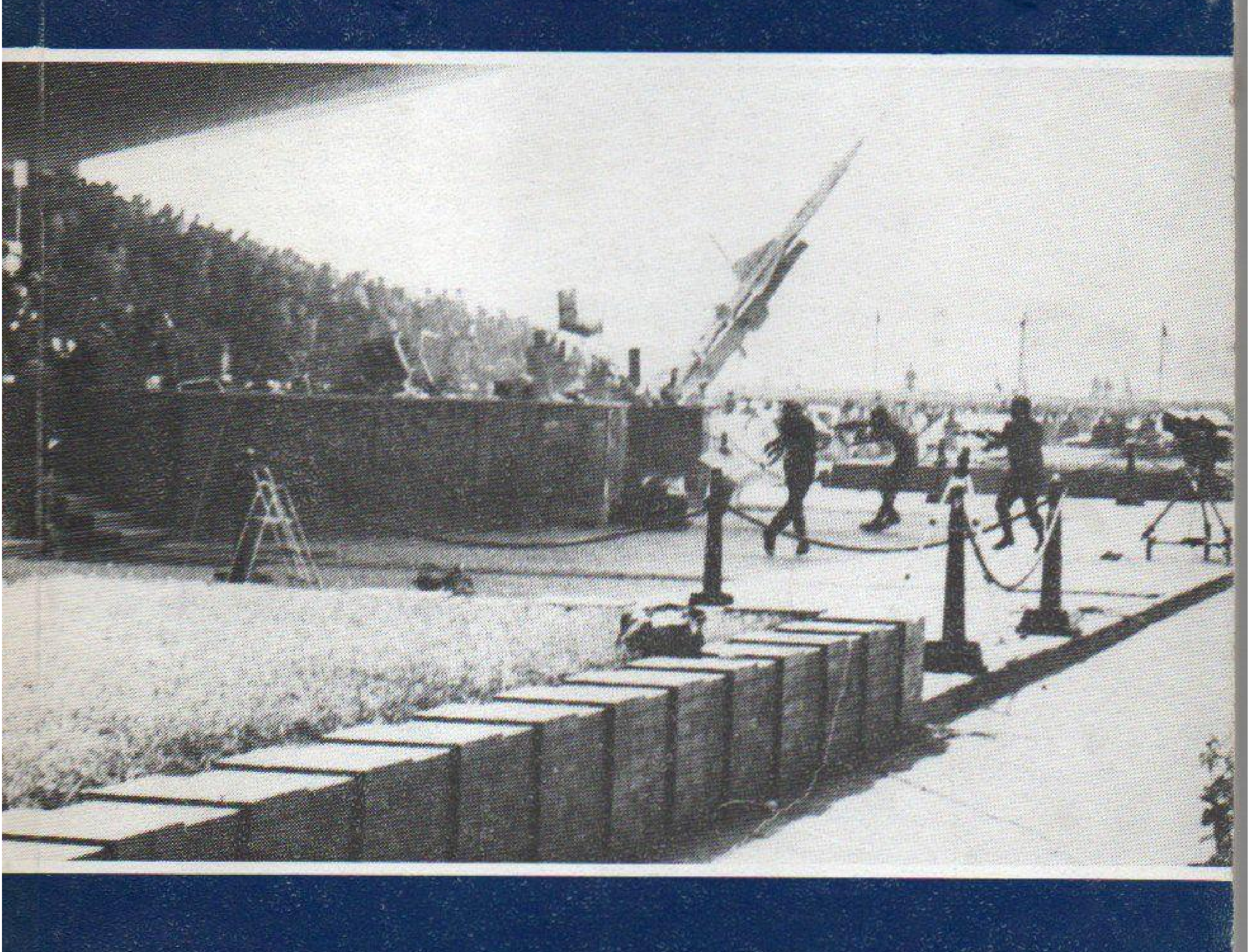
أين كبرياء الطاووس ١٠٧

الفصل الثامن :

الموت على المنصة ١٦٠

حقوق النشر والطبع والتوزيع
مؤسسة البيان للصحافة والطباعة والنشر
تلفون : ٤٤٤٤٠٠ - ص.ب : ٢٧١٠
دبي - الإمارات العربية المتحدة

السعر ٢٥ درهم أو ما يعادلها



طبعت بمطابع البيان التجارية ت: ٤٤٤٤٠٠ - ص.ب: ٢٧١٠ دبي